دخان

إيفان تورجنيف

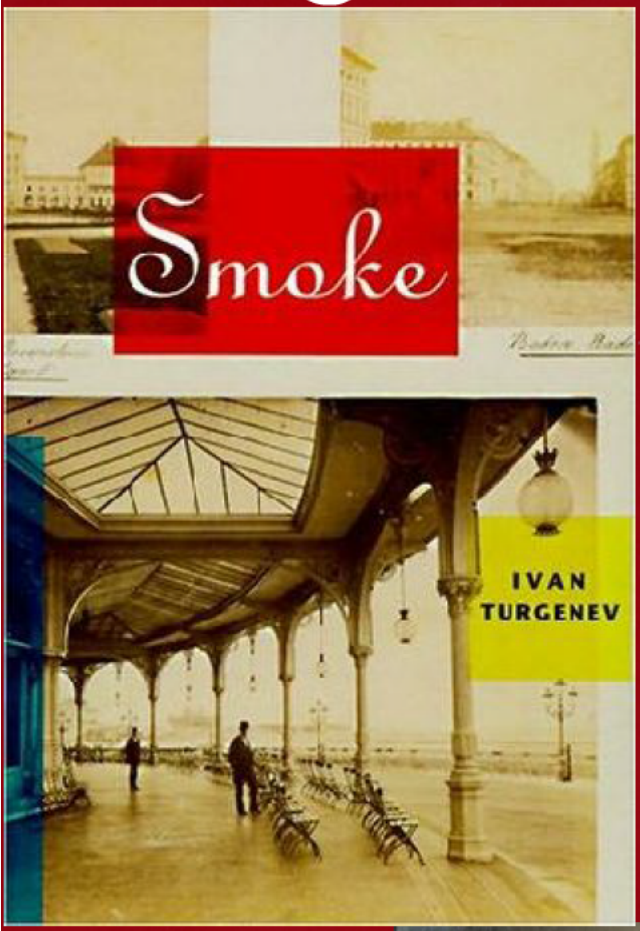

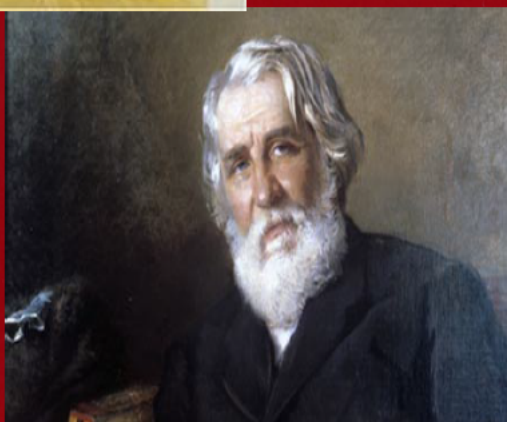

ترجمة

شكري عياد

الكتاب: دخان/ رواية
المؤلف: إيفان تورجنيف
المترجم: شكري محمد عياد
عدد الصفحات: 248 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-12-2

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340
مصر: القاهرة – وسط البلد – 8 شارع قصر النيل – الدور الأول – شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

تقديم

حوالي منتصف القرن التاسع عشر كان يخيّم على الأفق الأوربي ظل كبير.. ظل الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت، لقد عاد آل بوربون إلى فرنسا كما كانوا قبل الثورة. ومات نابليون، شبه مجنون، في جزيرة سانت هيلانة، ولكن كلمة الحرية ظلت تتردد في أرجاء أوربا فتتلقفها الملايين. وعلى الرغم من «الحلف المقدس» وهجمات الرجعية المستأسدة فقد استمرت الثورات، كما استمرت حركات المطالبة بالحكم النيابي، فتحررت إيطاليا، وتكررت الثورات الوطنية في المجر، وبولندا، وعادت الجمهورية في فرنسا، وفرض الأحرار الألمان حكومة ديمقراطية.

وفي هذا الجو كانت «روسيا المقدَّسة» وريثة الأمبراطورية البيزنطية، وحامية الدين المسيحي، هي المعقل الأول للرجعية. وكان دور القيصرية في مقاومة الحركات التحررية دورًا متعدد الأوجه. كانت تفرض على بولندا وسائر مستعمراتها في أوربا، وآسيا عبودية أبدية، وتخمد ثوراتها بعنف دموي. وكانت تضع جيوشها في خدمة الرجعية الأوربية المرتبكة، كما فعلت في ثورة المجر وكانت ـ في روسيا نفسها ـ تقمع بقسوة كل نزعة فكرية تشتم منها رائحة الحرية، وكل دعوة إصلاحية تحبذ ـ سرًا أو علانية ـ الحكومة الشعبية.

وفي حُمّى القمع والإرهاب لم تكن الرجعية تفرق بين الأفكار المعارضة لمصالحها حقيقة وبين الأفكار التي يمكنها أن تستغلها وتستخدمها. كان «السلافوفيل» في كثير من الأحيان يلقون من التنكيل مثلما يلقاه «الغربيون»

مع أن السلافوفيل كانوا يقدِّمون للرجعية الروسية تكئة قوية لمقاومة الثورة، وأساسًا نظريًا للمحافظة على القديم، فقد كانوا يذهبون إلى أن الحضارة الأوربية قد دبَّ فيها الفساد، فلا ينبغي أن تستعير روسيا من الغرب، بل يجب عليها أن تحافظ على نظمها «السلافية» الأصيلة وكان خصومهم الغربيون ـ على العكس ـ يدعون إلى الاقتباس من الغرب والتلمذة له، ومعنى ذلك، في ذلك الوقت، اقتباس وسائل الإنتاج الحديث، ونظم الحكم الديمقراطي، وتراث العلم العالمي وأشكال الفن المتطور.

وكان تورجنيف من هذا الفريق الأخير. وقد ذهب إلى أوربا شابًا ليدرس الفلسفة في إحدى الجامعات الألمانية، وليتنفس بحرية في جو فكري بعيد عن إرهاب القيصرية، ولكنه لم يكن «هاربًا» ولم يكن متنكرًا لوطنه، بل لعله كان في فراره من بلاده، وطنيًا حاد الوطنية. وعاطفة تورجنيف نحو وطنه ـ وهي العاطفة التي تجلت في «دخان» وعبر عنها أصدق تعبير على لسان «بوتوجين» ـ تظهر في هذه الكلمات التي وصف بها حالته في صدر شبابه.

«إن الحركة التي كانت تدفع بأترابي من الشبان إلى البلاد الأجنبية كانت تعيد إلى الذاكرة صورة أولئك الصقالبة الأقدمين الذين ذهبوا يبحثون عن أمراء لهم بين «الفارج» وراء البحار[1]. فكل منا كان يحس إحساسًا عميقًا أن «أرضه» (ولا أعني الوطن على التعميم بل تراث الآباء الخلقي والفكري) «أرض عظيمة غنية ولكنها خلو من النظام». وأستطيع أن أقول عن نفسي أنني شعرت شعورًا أليمًا بمساوئ هذا الانتزاع من منبتي الأصلي، وهذا القطع العنيف لكل صلة تربطني بالبيئة التي شببت فيها.. ولكني لم أكن أستطيع غير ذلك. فهذه الحياة، وهذا الوسط، وبخاصة هذه الدائرة التي كنت منتميًا إليها، دائرة ملاك الأراض وأصحاب العبيد، لم يكن فيها ما

(1) يشير تورجنيف إلى نزوح إحدى قبائل اسكندناوة إلى روسيا في مستهل القرن التاسع وتأسيسهم الإمارات هناك. وقد ورد ذكر هذه الواقعة في «دخان» والعبارة الموضوعة هنا بين أقواس هي العبارة التي يروى أن مبعوثي الصقالبة قالوها لأمراء الفارج.

يدعوني إلى البقاء. بل على العكس، كان كل ما أراه حولي تقريبًا يبعث في نفسي شعور القلق والثورة، أو باختصار شعور الاشمئزاز. فلم أستطع التردد طويلا، إذ لم يكن بُدّ من إحدى اثنتين: إما أن أخضع وأسير بهدوء في الدرب المطروق، وإما أن أنتزع نفسي دفعة واحدة، وأتخلص من كل شيء وكل إنسان، وإن أدى ذلك إلى حرماني من أشياء كثيرة حبيبة إلى قلبي. وكان ذلك هو السبيل الذي اخترته. فألقيت بنفسي في «الخضمّ الألماني» ليطهّرني ويجدّد حياتي، حتى إذا خرجت من مياهه وجدت نفسي «غريبًا»، وكذلك بقيت. فلم أستطع أن أتنفس وأعيش وجهًا لوجه مع ما كنت أكره، ولعله كانت تعوزني السيطرة على النفس وقوة الشخصية اللازمتان لذلك. كان علي أن أبتعد عن عدوّي مهما يكن الثمن، كي أسدد إليه عن بُعْد ضربات أشد قوة. وقد كنت أرى لهذا العدو وجهًا واضح القسمات، وكان له عندي اسم معروف. كان عدوّي هو حق الاسترقاق. وتحت هذا الاسم جمعت كل ما كنت عازمًا على مصارعته إلى النهاية، كل ما أقسمت على محاربته بغير مهادنة. كان ذلك عندي هو قَسَم هانيبال. ولم أكن وحدي صاحب هذا القسم. وذهبت إلى الغرب كي أبرَّ بقَسَمي..».

حوالي سنة 1847 كان تورجنيف في روسيا. وبدأ ينشر صورًا من حياة الفلاحين كانت معولا من المعاول القوية التي وُجِّهت إلى نظام الرقيق. وكانت قوتها في واقعيتها الإنسانية التي أظهرت هؤلاء الفلاحين الأرقاء، لأول مرة في تاريخ الأدب الروسي، في مشاهد حياتهم العادية القاسية، وصوَّرت آمالهم وآلامهم، فكأنها نبهت إلى أنهم بشر كغيرهم من الناس، وقد جمع تورجنيف هذه الصور في كتابه «مشاهد من حياة صياد» (1852) وعوقب بالنفي إلى الريف. ولكن الرجيعة لم تستطع أن تمضي في استبدادها إلى النهاية. فإن الفلاحين أنفسهم بدأوا يثورون، وتكررت حوادث العصيان الجماعي حتى بلغ عددها في سنة 1848 وحدها أربعة وستين. وأدت سياسة القيصر نيكولاس الأول العدوانية إلى حرب القرم سنة 1854 ضد الدولة

العثمانية، وحاربت إنجلترا وفرنسا في صف العثمانيين وهُزمت روسيا هزائم متلاحقة حتى اضطر القيصر ألكسندر الثاني الذي تولى العرش سنة 1855 إلى عقد الصلح بعد خسائر جسيمة لم تحصل البلاد من ورائها على أيّ فائدة. ثم بدأ سلسلة من الإصلاحات كان أولها وأهمها إلغاء الرق سنة 1861، وجاءت بعد ذلك قوانين التجنيد الإجباري، وفتح الجامعات أمام أبناء الشعب، وإدخال نظام المحلّفين في المحاكم الروسية، ولكن الرجعية كانت تنظر شزرًا إلى هذه الإصلاحات، وتحيطها بمختلف العراقيل ولم تلبث أن كشفت وجهها ثانية، ففي سنة 1865 رفض القيصر طلب النبلاء تأسيس مجلس نيابي، وتلا ذلك تعطيل الصحف الحرة، وإذاعة منشور رسمي يدعو الشعب إلى «مقاومة الأفكار الخبيثة التي تهدم الدين والنظام والملكية الخاصة». وبينما كانت الرجعية تشدد قبضتها بدأ الفكر الروسي يتحول من التحرر إلى الثورة. وكما هي العادة دائمًا في مثل هذا التحول امتلأت أجواء المثقفين بالبدع الفكرية والدعوات الكاذبة والمغامرات الصبيانية. وكان هذا هو الجو الذي كتب فيه تورجنيف «دخان» سنة 1868.

صوَّر تورجنيف في «دخان» جماعات من المغتربين الروس في مصيف ألماني. فصوَّر المجتمع الأرستقراطي بأناقته وتفاهته وفراغه وانحلاله. كما صور منتديات أكثر شعبية، منتديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الأعمى لشعار أو قائد. والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة، وصوَّرها بدقة حفار، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعي. على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسي، بل إن وراءها إحساسًا مرًا، إحساسًا تراجيديًا بضياع الجهد الإنساني واضطراب الفكر الإنساني، وغموض المصير الإنساني. وقد لخص الروائي هذا الإحساس في عنوان الرواية «دخان» الذي أخذه من هذه الفقرة قرب الخاتمة، وهي تذكرنا تذكيرًا قويًا بسفر الجامعة:

«وجعل ينظر من نافذة القطار. كان الجو أغبر رطبًا، لا مطر فيه، ولكن

الضباب لا ينكشف، والسحب الدانية تحجب السماء. وهبت الريح في مواجهة القطار، فاندفع أمام النافذة التي جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة. وأخذ لتفينوف يراقب هذا البخار والدخان. كانت السحب تمر بعد السحب، ولا تزال تصعد، وتعلو وتهبط، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات، وكأنها تلعب في إحدى المساخر. ثم تتمدد وتذوب في الفضاء.. كانت تتبدل دائمًا وهي لا تزال كما هي.. لعبة سريعة سخيفة مكررة! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسرة، فيتلاشى الرعيل كله فجأة، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة. ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرّين الفسيح. حدّق وحدّق، واستولى عليه شرود غريب.. كان وحيدًا في المقصورة، لم يكن هناك من يزعجه، فردد مرات عديدة: دخان. دخان. وفجأة بدا له كل شيء دخانًا ـ كل شيء: حياته هو، والحياة الروسية، وكل ما هو بشري، وعلى الخصوص كل ما هو روسي. الكل دخان وبخار ـ هكذا قال لنفسه ـ كل شيء يبدو دائم التغير، في كل مكان أشكال جديدة، أحداث بعد أحداث، وكل شيء كما هو في الصميم. كل شيء يسرع طائرًا إلى وجهة ما، وكل شيء يتلاشى من دون أن يترك أثرًا أو يبلغ أمرًا وتتغير الريح، فيسرع كل شيء في الاتجاه المضاد، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة العقيم. وتذكّر الكثير مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج، فهمس: دخان، دخان. وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف، وعند أناس أخرين منهم الشبان والشيوخ، والبسطاء والعظماء، التقدميون والرجعيون.. فردد. دخان، بخار ودخان. وتذكر أخيرًا تلك النزهة الأنيقة، وتذكر خُطَبًا وتصريحات وأشخاصًا آخرين يعدون أنفسهم لأكبر المناصب، حتى كل مواعظ بوتوجين.. دخان، دخان، ولا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوِّح بيده في قنوط».

ولكننا ننسى أن «دخان» رواية وليست سياسة. فالسياسة في «دخان» كما هي في معظم الروايات، مرتبطة بقصة حب، والكاتب البارع هو الذي يجعل الحب والسياسة في وحدة، فتتداخل الحوادث السياسية في حوادث الحب، وتؤثر فيها، وقد تتأثر بها. ولكن الكاتب الأبرع لا يحتاج دائمًا إلى اصطناع مثل هذا الربط في العقدة ـ وكثيرًا ما يكون متكلفًا ـ بل يقدمهما معًا كعنصرين في جو واحد، ويحقق التلاؤم بينهما بمبادئ شكلية غير تسلسل الحوادث التي يؤثر بعضها في بعض. وهذا ما نجده في «دخان».

فلتفينوف، الشاب الأمين المثابر الذي يقع تحت سلطان عاطفة غشوم مستعرة نحو امرأة أرستقراطية نارية، وهو في الوقت نفسه قد خطب قريبة له يتمثل فيها نموذج الفتاة الطيبة الحنون في أسر نبلاء الريف المتوسطي الحال ـ لتفينوف لا يشارك في المناقشات السياسية وغيرها إلا متفرجًا، ولا يحتك بالشخصيات الأرستقراطية أو بأدعياء التحرر ألا مرغمًا. لأنه «إن شئت الحقيقة ليس لي آراء سياسية». على أن الحقيقة هي أنه ضنين باستعمال كلمة السياسة لمثل هذا الضجيج المتنافر الذي يسمعه عند أدعياء التحرر وأقطاب الأرستقراطية جميعًا. ولكن كبرياءه الشعبية النظيفة تثور إذا سمع هجومًا على حق الشعب في التعلم أو في التملك أو في الحرية. إن السياسة عنده تتلخص في كلمتين: «الحرية والعمل». وحين يعود إلى بلاده يجد أن أراءه هذه التي رفض أن يسميها أراء سياسية كانت أقرب إلى الصواب من كل ما سمعه من أولئك «الثوريين» الذين تنكروا لمبادئهم بعد قليل. فقد كانت المبادئ الجديدة (مبادئ الإصلاح) لم ترسخ أصولها بعد، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة. كان الجهل يرتطم بالخيانة، ونظام الحياة الذي اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء: «كلمة الحرية». ولعل هذا هو الدرس السياسي الذي أراد تورجنيف أن يؤديه في «دخان»، ولكن هذا الدرس والأجواء السياسية التي مهدت له، لا تكاد تتصل بالقصة العاطفية

بالمعنى الشائع من الاتصال وهو التأثير المتبادل بين نوعين من الأحداث. فكيف ربط تورجنيف بينهما؟

إن الرباط هنا رباط شعوري يظهر في الفقرة التي سبقت الإشارة إليها. لقد فكر لتفينوف في «جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه» بعد أن مرت بمخيلته ذكريات الأحداث السياسية التي أحيطت بالتهريج والضجيج، والجدل العنيف والصياح والنقاش عند أناس كثيرين منهم الشبان والشيوخ، والبسطاء والعظماء، والتقدميون والرجعيون. كأنما «جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه» كانت تحمل، عن غير وعي منه، صدى هذا الضجيج والجدل العنيف. وكأن الرواية كلها تمثل أمل تورجنيف في أن تخرج بلاده، أن يخرج أحرار بلاده من الضجيج السياسي إلى العمل الصبور المثمر، كما خرج لتفينوف من ضجيجه العاطفي إلى حب عطوف مستقر. ولابد لهذا الخروج من تضحيات. لا بد من تضحية وهج العاطفة، ونشوة البطولة، وسكرة الحلم، من أجل حقيقة أكثر ثباتًا، ولابد للروائي إذن أن يضحي بقمة شامخة مثل «بازاروف» بطل «الآباء والأبناء» التي كتبها سنة 1862، ليجعل بطله في «دخان» تلاًّ صغيرًا، هو لتفينوف. وهذه هي الملاحظة التي أبداها الزعيم الثوري بيساريف ـ على سبيل النقد للتعبير عن الجوهر التراجيدي في روايتنا هذه. الحياة تتقدم، ويجب أن تتقدم. وحين تتقدم الحياة يكسب الأحياء، ولكي يكسبوا يجب أن يخسروا. لن يعرف لتفينوف مع تاتيانا تلك النشوة التي وجدها بين ذراعي إيرينا، ولكنه سيذهب إلى تاتيانا. ولن يصنع الشعب الروسي معجزة بين عشية وضحاها ولكنه سيتقدم بمثابرة وصبر ليؤدي دوره المقسوم. هذه هي حكمة تورجنيف في «دخان»، وهي حكمة كسبها، في مجال التفكير السياسي والعاطفة الشخصية على السواء، بتجربة السنين المريرة. لقد هاجر تورجنيف في شبابه ليستطيع أن يضرب عدوه بقوة أكبر، ولكنه اعتاد بعد ذلك أن يقيم بعيدًا عن وطنه، ولعله كان ينزلق أحيانًا إلى مناقشات جوفاء عن مستقبل روسيا كتلك المناقشات

التي يصورها في «دخان». وقد أحب تورجنيف المغنية الفرنسية الأسبانية الأصل بولين فياردو، أحبها بلا سعادة، كما أحب بوتوجين إيرينا، من شبابه إلى كهولته، ولم يستطع قط أن ينجو من أسر هذه العاطفة الجبارة كما نجا لتفينوف.

وحين جاءته فكرة «دخان» وهو يدلف إلى الخمسين، لم يستغرق في كتابتها وقتًا طويلا، وكأنه وجد سريعًا البديل الموضوعي لحالته النفسية. ومع أنه شكا في بعض خطاباته من الصعوبة التي وجدها عند بدء العمل، لطول انقطاعه عن الكتابة قبل ذلك، فإننا نجد فيها فنه الكامل، الذي جعل «تين» يقول عنه: «أنه أعظم فنان عرفته أوربا منذ سوفوكليس». فمهما سخر أو هجا فإن شخصياته تظل حية حياتها الخاصة، ولا تتحول قط إلى صور خشبية. ومهما ملأ حواره السياسي بالإشارات إلى حوادث معاصرة فإنه يعرف كيف وأين يضع هذا الحوار ليظل جزءًا متممًا لبناء الرواية الفني، وإن نسيت المناسبات التي يشير إليها. ويستطيع القارئ أن يمر بالهوامش التي أضفناها إلى هذه الترجمة ليتمثل الجو التاريخي للرواية، ويستطيع أن يتركها من دون أن يحس أنه ترك شيئًا لا بد منه لفهم الرواية نفسها. فالمناقشات السياسية والاجتماعية الخارجة عن الأحداث الرئيسية تؤدي وظيفتها الفنية الكاملة عن طريق التقابل وتخفيف التوتر والهارمونية، وما إليها من مبادئ شكلية أخرى يمكن أن تكون محلا للدراسة المفصلة، وتفهم في ضوء هذه التقابلات وإن لم يتحدد كل ما تشير إليه.

أما شخصية إيرينا فهي كما يقول عنها الناقد الإنجليزي أدوارد جارنت:

«إن سر هذا الخلق الممتاز هو أنها تجمع بين الخير والشر على سواء حتى لتبدو النسوة الخيرات بجانبها تافهات والنسوة الشريرات مصنوعات. وقد حبتها الطبيعة فتنة آسرة يزيدها الخيال بذلك الموقف الذي يستجد بينها وبين لتفينوف. فهي ترغب في السمو رغبة صادقة وتود لو تبلغ مثل الحب الأعلى الذي يتصوره قلب المرأة. ولكنها لا تقوى إلا على هدم الرجل

الذي تحبه.. هل تستطيع أن تكون له بديلا من تاتيانا؟ كلا، أنها لا تستطيع أن تكون كذلك لأي رجل، فقد خلقت لتفسد من دون أن يمسها الفساد، وأنها لتسترد سلطانها على نفسها بعد لحظات اللذة الأولى، وأنها لتظل مشتهاة وإن لم تمنح قلبها كاملا للحبيب».

هذه شخصية مليئة بالحياة. ومع ذلك فقد نتساءل: هل مصدر هذه الحياة أن لها شخصيتها الفردية المتميزة التي نتمثلها في مواقف الهوى والغيرة والعناد والكبرياء والاندفاع والخيانة، أم مصدره أنها نموذج خيالي عام للمرأة الخالدة التي ترمز للحياة نفسها: «المرأة التي تفسد من دون أن يمسها الفساد.. وتظل مشتهاة وإن لم تمنح قلبها كاملا للحبيب؟» إن الجمع في إيرينا بين طرفي الخصوص والعموم مثل من أمثلة فن تورجنيف الناضج، وهو وحده كفيل بأن يحفظ لهذه الرواية مكانة ممتازة بين ذخائر الأدب الخالد.

شكري محمد عياد

- 1 -

حوالي الساعة العاشرة من عصر 10 أغسطس سنة 1862 كنت ترى كثيرًا من الناس محتشدين أمام «بهو السمر» الشهير في بادن بادن. وكان الجو رائقًا وكل ما يحيط في المكان يرتع جذلان في أشعة الشمس الحنون: الأشجار الخضراء، البيوت الزاهية الألوان في المدينة الأنيقة، الجبال المشرفة بقممها التي تشبه الموج. كل شيء كان يبسم في سرور مطمئن غافل، فتمس هذه البسمة الحنون الغامضة وجوه البشر شابة وهرمة، حَسَنة ودميمة. حتى وجوه بنات الهوى الباريسيات المبدرة المزوّقة لم تكن لتفسد هذا الجو المرح السعيد. وكانت أشرطتهن وريشهن، وشذرات الذهب والمعدن التي تلمع في قبعاتهن وبراقعهن، تمثل للعين أزهار الربيع المتألقة تميل بخفّة، وأجنحة الطيور ترف بألوان قوس قزح. ولكن الرطانة الفرنسية الصارخة التي كانت تُسمع من كل ناحية لم تكن لتماثل تغريد الطيور ولا لتقارَنَ به.

على أن كل شيء كان يسير وفق العادة، فكانت الفرقة الموسيقية في شرفة البهو تعزف مزيجًا من «الترافيايا»، وفالسا لشتراوس، ثم «أخبريها» وهي أغنية روسية أعدها للعزف على الآلات موسيقار عظيم. وحول الموائد الخضراء في غرف القمار كانت تحتشد نفس الوجوه، وعليها نفس التعبير: تعبير الغباء والتحفّز والخوف الذي تطبعه حمى القمار على أنبل الوجوه. كان هناك ذلك الشريف الروسي القادم من تامبوف، في ثيابه الفخمة بغير

ذوق، وقد انحنى على مائدة القمار بعينين جاحظتين، غير مبال بابتسامات الكروبييه الباردة وهم ينادون Rien ne va plus [1]، بينما يضع الجنيهات الذهبية بلا رويّة ـ ويده تتصبب عرقًا ـ على أركان المائدة الأربعة، فيحرم نفسه كل فرصة للربح... حتى لو حالفه الحظ. ولم يكن جهله بالقمار ليمنعه من أن يردد بحماسة كلمات الأمير كوكو أحد زعماء المعارضة الأرستقراطية المشهورين، والأمير كوكو هو صاحب تلك الكلمة المأثورة التي قالها في باريس في صالون الأمير ماتيلد، وعلى مسمع من الإمبراطور نفسه: «سيدتي، إن مبدأ الملكية في روسيا مزعزع من الأساس». وكان أبناء وطننا الأعزاء وبنات وطننا العزيزات مجتمعين كعادتهم حول الشجرة الروسية à l'arbre russe كما يقولون. كانوا يتوافدون وهم يمشون الهوينى مترفعين غير مكترثين كبدع هذا العصر، ويتهادون التحايا في سمت أنيق كما ينبغي لأناس في الدرجة العليا من المجتمع. ولكن الجمع لا يكاد يلتئم حتى يحاروا كل الحيرة في ما يقول بعضهم لبعض، فيقنعون بتسقّط التافه من الكلام، أو ببذاءة محدِّث فرنسي سخيف كان فيما مضى صحفيًا، وهو الآن مهرِّج ثرثار: في ساقيه الصغيرتين الهزيلتين حذاء غليظ، وفي وجهه الصغير الدنيء لحية صغيرة حقيرة. فيروي لهم كل ما حوته التقاويم الهزلية القديمة مثل «التشاريفاري» و«التنتامار» من بارد الفكاهات، وينفجر هؤلاء «الأمراء الروس» ضاحكين برضا وامتنان كأنهم مرغمون على أن يعترفوا بروعة الفكاهة الأجنبية، وبعجزهم عن ابتكار أي شيء طريف. ومع ذلك فهؤلاء هم «زهرة» مجتمعنا، ونماذج البدع والأناقة عندنا.. هذا هو الكونت «س» محب الفنون ذو الطبع الموسيقي الحساس الذي يستطيع أن يترنم بأجمل الأغاني، ولكن أصابعه تضل على مفاتيح البيان، والذي يغني بطريقة وسط بين طريقة مغنّ غجري بائس وطريقة حلاق باريسي. وهذا هو البارون «ك» الساحر.. أستاذ في كل فن: في الأدب والإدارة والخطابة والغش في

(1) عبارة عندهم معناها أن المراهنة قد انتهت، يقولونها قبل أن تُدار «الروليت».

القمار. وهذا أيضًا الأمير «ي» صديق الدين والشعب، الذي جمع لنفسه ثروة طائلة من بيع الفودكا مغشوشة بالبلادونا في تلك الأيام المباركة التي كانت تجارة الخمور فيها احتكارا. والجنرال الذكي «و. و.» الذي هزم أحدًا ما وأخضع شيئًا ما، ولكنه لا يزال نكرة ولا يدري ماذا يصنع بنفسه. و«ر. ر.» ذلك الرجل المسلي الذي يظن نفسه مريضًا جدًا وظريفًا جدًا، مع أنه قوي كالثور ومصمت كاللوح... هذا الـ«ر. ر.» يكاد يكون الرجل الوحيد في زمننا الذي حافظ على تقاليد فتيان العقد الخامس، وليام «فتى العصر»[1] والكونتيسة فورتنسكي ـ حافظ على تلك المشية الخاصة المترجحة على الكعبين، كما حافظ على «فن الإشارة» ـ Le Culte de la Pose ـ ومعذرة إذا كانت كل ترجمة قاصرة عن أداء المعنى. إنه فن التكلُّف في الحركات، والتثاقل في التعبير، والجمود المترفّع في الأسارير، ومقاطعة أحاديث الناس بالتثاؤب. فن التحديق في أظافر اليدين، والضحك من الأنف، ودفع القبعة من مؤخر الرأس إلى الحاجبين.. إلخ. وهنا أيضًا رجال من ذوي المراتب العالية في الحكومة: سياسيون أولو شأن خطير، وأسماء أوربية، ورجال ذوو علم ومعرفة، يحسَبون أن «الثور الذهبي» مرسوم أصدره البابا، وأن ضريبة الفقراء في إنجلترا ضريبة تجبى من الفقراء. وهنا عباد «غادات الكاميليا» الدائرو الرءوس المعقودو الألسنة.. فتيان غنادير شعورهم مفروقة بأناقة حتى مؤخر الرأس، وعوارضهم الجميلة مرسلة على صفحتي الوجه، يلبسون ثيابًا لندنية أصيلة.. ظباء لا يعوزهم شيء لينافسوا ذلك المحدّث الفرنسي الشهير. ولكن لا! إن منتجاتنا الوطنية ضئيلة الحظ من تشجيع أهل البدع والأناقة. فالكونتس «س» ملكة الأزياء المبتدعة و«الجران جنر» التي تلقبها الألسنة الحادة بملكة الضبابير، وبميدوزا ذات القبعة[2] ـ هذه

---

(1) مجموعة قصص للشاعر الروسي ليرمنتوف، ظهرت سنة 1841، وتمثلت فيها قمة الرومانسية الروسية. بطلها «بيكورين» شاب فاتك لا يعرف الحب ولكنه مغرم بأن يوقع النساء في هواه.

(2) «ميدوزا» اسم سعلاة أو امرأة غول في الأساطير اليونانية، شعرها ثعابين ملتفة، ووجهها

الكونتيسة «س» تفضل إذا غاب الفرنسي الطريف أن تتحدث مع الإيطاليين أو المدافيين، أو محضّري الأرواح الأمريكيين، أو سكرتيري المفوضيات الأجنبية المتأنقين، أو النبلاء الألمان ذوي السحر الذي تجتمع فيه النعومة والحصافة المبكرة، والمكان حافل بكل هؤلاء. وتقتدي بالكونتيسة الأميرة بابت التي مات شوبان بين ذراعيها (وفي أوربا نعَدّ أكثر من ألف امرأة مات شوبان بين أذرعهن) والأميرة آنت التي لا يغض من فتنتها إلا تلك الغسالة القروية الساذجة التي تطل من أهابها بين الحين والحين، كرائحة كرنب تختلط بأرق العطور، والأميرة باشت التعسة الحظ التي ظفر زوجها بوظيفة ممتازة، ثم إذا هو Dieu sait pourquoi ـ يضرب عمدة المدينة ويسرق عشرين ألف روبل من مال الدولة، والأميرة زيزي الضاحكة، والأميرة زوزو الباكية ـ فكلهن يمنحن بني وطنهن صدًا وإعراضًا. فلنعرض نحن أيضًا عن هؤلاء السيدات الحسان، ولنبتعد عن الشجرة الذائعة الصيت، التي يجلسن حولها في ثياب غالية ولكنها لا تخلو من سماجة. وعسى الله أن يتوب عليهن من ذلك الملل الذي يفري منهن النفوس!

مدور، وأنفها أفطس، ولسانها دالع، وأسنانها بارزة.

- 2 -

على مسيرة خطوات من «الشجرة الروسية» كان يجلس إلى منضدة أمام قهوة فيبر رجل وسيم يناهز الثلاثين من العمر، نحيل، أسمر، متوسِّط القامة، في محياه بشاشة ورجولة، وكان منحنيًا إلى الأمام وقد اعتمد بكلتا ذراعيه على عصاه، بهدوء الرجل الذي لا يخطر بباله أن أحدًا من الناس يعنى به أو يراعيه. وكانت عيناه العسليتان المعبّرتان تحدّقان في ما حوله مليًا، ويخزرهما أحيانًا ليتقي ضوء الشمس، ثم يتأمل بعض من يمرون به من تلك الشخوص الغريبة، فيختلج شارباه وشفتاه وذقنه البارزة الصغير بابتسامة فيها من الطفولة شيء كثير. وكان يلبس معطفًا ألمانيًا ضافيًا، ويغطي نصف جبهته العريضة بقبعة من الصوف الرمادي. وكان يبدو للنظرة الأولى شابًا أمينًا رزينًا معتدًا بنفسه، ككثير من الشبان في هذا الوجود. كما كان يبدو أنه يستجمّ بعد عمل طويل شاق، وأن أفكاره الشاردة التي تجول في عالم بعيد عن ذلك الذي يحيط به لا تزيده إلا التذاذًا بريئًا بهذا المنظر المنبسط أمام عينيه. وكان روسيًا. وكان اسمه جريجوري ميهالوفتش لتفينوف.

وإذ لم يكن لنا بد من معرفته فلنروِ ماضيه في بضع كلمات، ولن نجد في ماضيه كثيرًا من الغرابة ولا التعقيد.

كان أبوه موظفًا على المعاش، وكان ينتمي إلى طبقة العامة، ولكن الابن لم يتلقَ تعليمه في المدينة كما يُتوقع في مثل هذه الحال بل تلقاه في الريف. أما أمه فكانت سليلة أسرة من النبلاء، تعلمت في إحدى

المدارس الرسمية، وكانت إنسانة سليمة الطوية سريعة التأثر، ولكنها لم تكن تافهة الشخصية، فعلى الرغم من أنها كانت تصغر زوجها بعشرين عامًا فقد غيرته قدر الإمكان، وأخرجته من وضاعة حياة الموظف الصغير إلى عيشة المالك الكبير، ورققت من عنفه، وهذّبت من عناده، وبفضلها أصبح يعتني بهندامه وشارته، وصار يحترم العلم والعلماء ـ ولو أنه لم يفكر قط في أن يقرأ كتابًا ـ وترك السباب وحاول بكل وسيلة أن يكتسب مظاهر النبل، حتى إنه صار يمشي متئدًا ويتحدث بصوت خفيض. وكثيرًا ما كان يتحدث في موضوعات جليلة، وكان ذلك يجشمه عناء غير قليل، فكان يقول في نفسه: «والله يا هذا لا تستحقّ إلا الضرب» ولكنه يرفع صوته قائلا: «نعم نعم، هذا صحيح. بالطبع. إنها مسألة مهمة». وقد جعلت أم لتفينوف منزلها أوربي الطراز أيضًا، فلم تكن تشتم الخدم، ولم تكن تسمح لأحد بأن يبقى على مائدتها حتى يكبسه النعاس. أما الأرض التي كانت تملكها فقد عجزت هي وزوجها كل العجز عن العناية بها، فبقيت مهملة زمنًا طويلا. مع أنها كانت أرضًا واسعة تضم مراعي وغابات وبحيرة، وكان يشرف على البحيرة في ما مضى من الزمان مصنع أقامه مالك متحمّس ولكنه لا يألف النظام، وراج على عهده تاجر مخادع، وخرب بإشراف مدير ألماني مدقّق. وكانت مدام لتفينوف راضية قانعة بأنها لا تبيع أرضها ولا تستدين ولكنها لم تكن موفورة الصحة، فماتت بالسلّ في السنة التي دخل فيها ابنها جامعة موسكو. ولم يُتِمّ الفتى دراسته لأمور سيعلمها القارئ في ما بعد، فعاد إلى منزله الريفي حيث قضى فترة من الزمان بلا عمل ولا واجب ولا صديق. وجُنّد في سنة 1855، والفضل في ذلك لنبلاء إقليمه الذين كانوا لا يحبونه، وكانوا يؤمنون بالحكمة الشائعة: «خلّص نفسك وارم جارك»، وأكثر إيمانهم بالنظرية الأجنبية التي تقول: إن المالك يجب أن يقيم في أرضه. وكاد يهلك بالتيفوس في القرم حيث قضى ستة أشهر في كوخ من الطين على شاطئ البحر الأسود من دون أن يقع بصره على رجل واحد من

«الحلفاء». واشترك بعد ذلك في مجالس النبلاء، ولم تخل هذه الفترة من حياته من تجارب أليمة ولكنه أغرم بالزراعة بعد أن عاش في الريف زمنًا قصيرًا. وأدرك أن ثروة أمه كانت في يد أبيه العاجز الضعيف الكسول لا تغلّ عُشر ما يمكن أن تغلّه، وأنها إذا تعهَّدتها يدٌ مجرّبة ماهرة أصبحت منجمًا من الذهب. إلا أنه أدرك أيضًا أنه لا يعوزه شيء كما تعوزه المهارة والتجربة. فسافر إلى الخارج ليتخصص في الزراعة والتكنولوجيا أو على الأصح ليتعلّمهما من مبادئهما الأولى. وأمضى أكثر من أربع سنوات في مكلنبورج وسيليسيا وكارلسروهه، وسافر إلى بلجيكا وإنجلترا، وعكف على العمل، وحصّل كثيرًا من المعارف، وما كان ذلك بالأمر اليسير، ولكنه ثابر وقاوم الصعاب إلى النهاية. وقد أخذ يتأهب الآن للعودة إلى وطنه، مؤمنًا بنفسه ومستقبله وبنفعه لجيرانه، بل ربما للإقليم كله، تستحثه دعوات أبيه اليائسة الضارعة، وقد حار فكره في تحرير الرقيق، وإعادة توزيع الأراضي، وشروط حيازتها.. الخ. أو باختصار في النظام الجديد.. ولكن لماذا كان في بادن؟

لقد كان في بادن لأنه كان ينتظر من يوم إلى يوم قدوم ابنة خالته وخطيبته «تاتيانا بروفنا شستوف» التي عرفها منذ الصغر، وأمضى الربيع والصيف معها في درسدن حيث كانت تعيش مع عمتها. وقد حمل لهذه القريبة الشابة حبا صادقا واحتراما عميقا. فلما انتهى من أعماله التمهيدية المملة وأخذ يستعد لاقتحام ميدان جديد ـ ميدان العمل الحقيقي الحر ـ رأى فيها المرأة الحبيبة والرفيق والصديق. فتقدم إليها يسألها أن تربط حياتها بحياته، على السعادة والشقاء، على الجهد والدعة، على الخير والشر، فوافقت. وعاد إلى كارلسروهه حيث كان قد خلف كتبه وأوراقه وأمتعته. ولكنك تسأل مرة ثانية: لماذا كان في بادن؟

حسنًا. لقد كان في بادن لأن عمته تاتيانا كابيتولينا ماركوفنا شستوف، وهي سيدة عانس في الخامسة والخمسين، متقلبة الطبع على الرغم من

طيبتها وإخلاصها، مفكرة حرة تشتعل رغبة في التضحية، «عقلية ثورية» (فقد كانت تقرأ شتراوس[1]، وإن أخفت هذه الحقيقة عن ابنة أخيها)، ديمقراطية، خصم لدود للأرستقراطية والمجتمعات الراقية ـ كابيتولينا اركوفنا هذه لم تستطع أن تقاوم الرغبة في إلقاء نظرة واحدة على بادن الأنيقة ومجتمعها الراقي. فقد كانت كابيتولينا ماركوفنا لا تلبس «رواقع»[2]، وكانت تقص شعرها الأبيض قصة مدورة بسيطة، ولكن الترف والفخامة كان لهما تأثير خفيّ في نفسها، فكانت ملهاتها المحببة أن تسخر منهما، وتبدي احتقارها لهما!! فكيف يستطيع المرء ـ بعد هذا كله ـ أن يرفض للعجوز الطيبة رغبة؟

لهذا كان لتفينوف هادئًا كل الهدوء، وكان ينظر حواليه واثقًا بنفسه كل الثقة، لأن مستقبله كان مبسوطًا أمامه خريطة ظاهرة المعالم، ولأن حياته كانت مرسومة ومحدّدة، وكان بهذا المستقبل فخورًا وسعيدًا، لأنه كان من صنع يديه.

---

(1) د. ف. شتراوس (1808 - 1874) مفكر ألماني من تلاميذ هيجل، كانت دراسته الأولى دينية، ولكنه أثار ضجة كبيرة في العالم المسيحي واتهم بالمروق حين أصدر كتابه عن حياة المسيح (1836)، الذي حاول فيه أن يخضع العقيدة المسيحية للنقد العقلي، فأنكر معجزات المسيح، واعتبر الجانب الأكبر من تاريخه المروي في الأناجيل أسطورة ترمز إلى الحقيقة ولا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها.
وقد كان لشتراوس تأثير كبير في تحرير الفكر الديني،بخاصة في العالم البروتستانتي.

(2) قطعة من ملابس من نسيج مقوى، كانت النساء يلبسنها تحت الملابس لرفع الجزء الأسفل من الجسم.

- 3 -

فجأة سمع صوتًا رفيعًا ينبعث بالقرب من أذنه:

ـ أمسك! ضبطتك!

وحطت يد سمينة على كتفه. رفع رأسه، وإذا هو بصاحب من أصحابه المسكوفيين القليلين يُدعى بمبايف. مخلوق طيب من ذلك الصنف الفارغ العقل، تخطى سن الشباب، له أنف منتفش وخدّان مسترخيان كأنهما غُليا في ماء، وخصل شعثاء ملبدة، وجسم قصير سمين، كان روستيسلاف بمبايف لا يزال يقطع وجه أمنا الصبور ـ الأرض ـ بلا هدف ولا غاية، ولكن بضجيج كثير. وكان مفلسًا دائمًا، ومتحمسًا دائمًا لسبب من الأسباب.

ظل يردد وقد فتح عينيه الغائرتين، ومط شفتيه الغليظتين، اللتين بدا عليهما الشاربين الهزيلين المصبوغين:

ـ أهلا أهلا! أي مصادفة غريبة.

ثم أردف:

ـ آه! شكرًا لكِ يا بادن! إن الناس جميعًا يجرون إلى هنا كالخنافس خلف الموقدة! ماذا جاء بك يا جريشا؟ (ولم يكن في العالم أحد لا يناديه بمبايف باسم التدليل).

ـ أنا هنا من ثلاثة أيام.

ـ وأين كنت؟

ـ لماذا تريد أن تعلم؟

ـ لماذا أريد! اصبر عليّ قليلا. لعلك لا تعلم من قدم إلى هنا أيضا؟ جوباريوف! إنه جوباريوف نفسه.. تصور! لقد جاء أمس من هيدلبرج. طبعًا أنت تعرفه!

ـ سمعت عنه...

ـ سمعت عنه فقط؟ يا عزيزي! يجب أن نأخذك إليه حالًا، في هذه الدقيقة كيف لا تعرف رجلا مثله؟ انظر. لعلك لا تعرف هذا أيضًا؟ يسرني أن أعرفكما، فكلاكما من رجال العلم! إنه من الأفذاذ! تعانقا!

والتفت بمبايف وهو ينطق بهذه الكلمات إلى شاب وسيم واقف بالقرب منه، له وجه نضرٌ مورد، ترتسم عليه رزانة مبكرة. ووقف لتفينوف، ولم يعانق «الفذ» بل اكتفى بأن تبادل وإياه انحناءة مبتسرة، إذ كان مظهره الصارم العبوس يدل على أنه لم يسرّ كثيرًا بهذا التعريف المفاجئ.

واستمر بمبايف يقول:

ـ قلت لك إنه من الأفذاذ، وهذا صحيح. اذهب إلى المدرسة الحربية في بطرسبرج، وانظر إلى لوحتها الذهبية.. فمن عساك ترى اسمه في أول القائمة؟ إنه فوروشيلوف، سيميون ياكوفليفتش فوروشيلوف! ولكن جوباريوف.. جوباريوف يا صديقي هو من يجب أن نطير إليه! إنني أعبد ذلك الرجل عبادة! ولست وحدي الذي أعبده! كلهم، كلهم! آه، ما أعظم هذا الكتاب الذي يؤلفه! أووه...

فسأله لتفينوف:

ـ عن أي شيء؟

ـ عن كل شيء يا بني. يشبه كتب «بكل» تقريبًا[1]، إلا أنه أعمق.. أعمق.. سيقرر كل شيء ويوضح كل شيء.

ـ هل قرأت هذا الكتاب؟

ـ لا لم اقرأه، والحقيقة أنه لا يزال سرًا. ولكن جوباريوف لا يعجزه شيء! أجل! ـ وتنهد بمبايف وضم ذراعيه ـ آه لو كان لدينا عقلان أو ثلاثة كهذا! إذن لرأينا منهم العجب! ـ سأقول لك شيئًا واحدًا يا جريشا: مهما تكن أعمالك في هذه الأيام ـ فأنا لا أعرف عنها شيئًا ـ ومهما تكن معتقداتك ـ فأنا لا أعرف عنها شيئًا أيضًا ـ فسوف تتعلم من جوباريوف. إنه لسوء الحظ لن يطيل إقامته هنا، فيجب ألا نضيّع وقتًا قبل رؤيته. هيّا إليه! إليه!

وبينما كان يتحدث مرَّ فتى متأنق ذو خصل صهباء مجعدة، يلبس قبعة قصيرة مزينة بشريط أزرق، وجعل يحدِّق فيه من خلال نظّارتيه وعلى وجهه ابتسامة ساخرة. فقال لتفينوف مغيظًا:

ـ لماذا تصرخ هكذا؟ من يسمعك يحسب أنك تزعق على كلاب صيد! إنني حتى الساعة ما تعشيت.

ـ حسنًا! عندي فكرة. نذهب حالا إلى مطعم فيبر.. ثلاثتنا معًا..

ثم أضاف همسًا:

ـ معك نقود لتدفع حسابي؟

ـ نعم نعم. ولكن في الحقيقة لا أدري...

ـ كيف!.. ستشكّر لي هذا الجميل. سيسرّ بمعرفتك..

---

(1) «بكل» (1821 ـ 1862) مؤرخ إنجليزي اشتهر بكتابه «تاريخ الحضارة» الذي صدر جزءه الأول سنة 1857 والثاني سنة 1861، وحاول فيه أن يضع فلسفة للتاريخ توضح القواعد العامة للتقدم البشري.

ثم صاح فجأة:

ـ يا للسماء؟ إنهم يعزفون ختام هرناني.. ما أروعه! آسوم موكارلو... يا لي من رجل! ما أقرب دمعتي! ألا تأتي معنا يا سيمون باكوفليفتش؟

وكان فوروشيلوف قد ظلّ واقفًا في وضع مهيب، فلم يلطّف شيئًا من سيمائه المتكبرة، بل عقد حاجبيه، وخفض عينيه، وتمتم شيئًا بين أسنانه.. ولكنه لم يرفض. وقال لتفينوف في نفسه: «لا ضرر من هذا. عندي وقت». وأمسك بمبايف بذراعه، ولكنه لم يمض به إلى المطعم إلا بعد أن أشار إلى ايزابيل بائعة الأزهار الشهيرة في نادي الفروسية، فقد بدا له أن يشتري منها باقة زهر. غير أن بائعة الأزهار الأرستقراطية لم تتحرك من مكانها.. فما الذي يرغمها على الدنو من سيد بغير قفاز، يلبس سترة من القطن، ورباط عنق مخططا، وحذاء مكعوبا، سيّد لم تر مثله حتى في باريس؟ وعندئذ أشار إليها فوروشيلوف بدوره، فاقتربت، وتناول من سلتها باقة صغيرة من البنفسج ورمى إليها فلورينا. وكان يحسب أنه سيدهشها بكرمه، ولكن هدبًا واحدًا لم يهتز على وجهها، بل زمّت شفتيها باحتقار بعد أن التفت منصرفًا.. فقد كان فوروشيلوف يرتدي ثيابًا أنيقة فاخرة، ولكن الفتاة الباريسية لمحت بعينيها الخبيرة أن هندامه ومسلكه ومشيته التي لم يخفى طابعها العسكري ـ كل ذلك كان خاليًا من «الأناقة» الحقيقية الأصيلة.

وبعد أن جلس أصحابنا في قاعة الطعام العامة وطلبوا طعامًا أخذوا يتحدثون. وتكلّم بمبايف بصوت مرتفع وحماسة بالغة عن مناقب جوباريوف، ولكنه سرعان ما كفّ عن الحديث وجعل يصب كوبًا في إثر كوب وهو يشهق ويزفر. أما فوروشيلوف فقد أكل قليلا وشرب قليلا، وكأنه لم يشارك في الطعام والشراب إلا مرغمًا. ثم سأل لتفينوف عن طبيعة أعماله، وأخذ يدلي بآرائه في شتى المسائل العامة أكثر من هذه الأعمال ذاتها. وما لبث أن أخذته الحماسة، فانطلق كالحصان الأرن، ومضى ينبر المقاطع والحروف كتلميذ واثق بنفسه ذهب ليؤدي الامتحان

النهائي. وكان يصحب حديثه بإشارات حماسية لا داعي لها، ولم يقاطعه أحد فزاد اندفاعًا وتأكيدًا، حتى كأنه يتلو بحثًا أو محاضرة وكانت تنهمر من فمه أسماء أحدث العلماء الثقات، مع تاريخ ميلاد كل منهم أو تاريخ وفاته، وعناوين الرسائل التي ظهرت حديثًا في أفق البحث العلمي، وأسماء وأسماء وأسماء... وكانت هذه الأسماء تهبه رضاً عميقًا ينعكس على عينيه اللامعتين. كان فوروشيلوف في ما يظهر يحتقر كل قديم، ولا يقدِّر إلا زبدة الثقافة، أي أحدث المسائل العلمية وأرقاها. كان يلذّ له ويسعده أن يشير ـ ولو بغير مناسبة ـ إلى كتاب لشخص يدعى الدكتور تساوربنجل عن السجون البنسلفانية، أو إلى مقالات ظهرت بالأمس في «ألاسياتك جورنال» عن الفيدات والبورانات (وكان ينطق كلمة «جورنال» نطقًا إنجليزيًا مع أنه لم يكن يعرف الإنجليزية). وأصغى إليه لتفينوف ثم أصغى بغير أن يستطيع معرفة ناحية اختصاصه. فقد أفاض في الحديث عن الدور الذي لعبه الجنس الكلتي في التاريخ، ثم شطح إلى التاريخ القديم فتحدث عن الألواح الإيجينية، وتكلم بحماسة عن المثال الذي عاش قبل فيدياس ـ وهو أوناتاس ـ وسماه «جوناثان» فجعل للحديث كله نكهة بين نكهة الكتاب المقدَّس والنكهة الأمريكية. ثم قفز فجأة إلى الاقتصاد السياسي وسمى باستيات أبله أو غبيًا «مثل آدم سميث وسائر الفزيوقراطيين»، فتمتم بامبايف: «الفزيوقراطيين؟... الأرستقراطيين؟» وأثار علائم الحيرة على وجه بمبايف بقوله عن ماكولي ـ عرضًا وفي ثنايا الحديث ـ أنه كاتب عتيق. لم تعد له قيمة بعدما وصل إليه علم التاريخ الحديث. أما جنايست، فقد صرح أنه ليس بحاجة حتى إلى ذكر اسمه، وهز كتفيه، فهز بمبايف كتفيه. وقال لتفينوف لنفسه وهو ينظر إلى صاحبه الجديد، بشعره الأصفر وعينيه الصافيتين وأسنانه البيضاء (وقد ضايقته على الخصوص هذه الأسنان الكبيرة الناصعة البياض وهاتين اليدان بإشاراتهما النابية): «هكذا بلا ترو ولا مناسبة وأمام غرباء.. في مطعم! ولكنه يبدو فتى طيبًا ساذجًا». وأخيرًا بدأ فوروشيلوف يهدأ! وتكسّر صوته الرنان كصوت ديك صغير، وانتهز

بمبايف الفرصة فأنشد أبياتًا من الشعر، وتهدج صوته بالبكاء حتى روَّع مائدة قريبة كانت تجلس حولها أسرة إنجليزية، وأضحك مائدة أخرى كانت تجلس إليها غانيتان فرنسيتان مع مخلوق يشبه طفلا من عصر قديم بشعر مستعار. ثم أحضر النادل التذكرة ودفع الأصدقاء الحساب.

ونهض بمبايف عن مقعده متثاقلًا. قال:

ـ حسنًا.. نشرب الآن قدحًا من القهوة، ثم نمضي مسرعين. وزاد وهو يجتاز العتبة ويشير في شيء من المرح بيده الحمراء اللينة إلى فورشيلوف ولتفينوف:

ـ هذه هي روسيا... بلادنا. ما قولكما فيها؟

فقال لتفينوف في نفسه: «حقًا إنها روسيا»، أما فوروشيلوف الذي استعار وجهه مظهر التفكير العميق، فقد ابتسم ثانية في ترفّع ودق عقبيه دقًا خفيفًا.

وبعد خمس دقائق كان ثلاثتهم يصعدون درج الفندق الذي يقيم في ستيبان نيكولايتش جوباريوف.. وكانت تنحدر على السلم نفسه سيدة فارعة القامة، رشيقة القد، تلبس قبعة ذات نقاب أسود قصير. فما إن بصرت بلتفينوف حتى التفتت إليه بغتة ووقفت وكأنما تملّكها الذهول، واحمرّ وجهها ثم شحب سريعًا تحت نقابه الأسود الكثيف. ولكن لتفينوف لم ينتبه إليها، فانطلقت تهبط الدرج مسرعة.

- 4 -

صاح بمبايف وهو يقدم لتفينوف إلى رجل ربعة له هيئة شريف من أشراف الريف، يلبس خفًا وسترة قصيرة وبنطلونًا صباحيًا رمادي اللون، ويقف في وسط حجرة ساطعة الضوء حسنة الرياش: «جريجوري لتفينوف، جلمود صخر، قلبٌ روسيٌّ حقٌّ، أوصيك به خيرًا». ثم أردف مخاطبًا لتفينوف: «وهذا هو، هو نفسه، إنه جوباريوف وحسب».

وحدق لتفينوف فيه «هو نفسه» بدهشة وتطلع، فلم يرَ فيه للوهلة الأولى شيئًا غير عادي. رأى رجلا وقور المظهر في شبه بَلادة عريض الجبين، واسع العينين، غليظ الشفتين، مرسل اللحية، مكتنز العنق، له نظرة ثابتة يصوِّبها إلى الأرض. ابتسم ذلك السيد وهمهم قائلا: «آه.. إنني سعيد جدًا». ثم رفع يديه إلى وجهه وأولى لتفينوف ظهره وسار بضع خطوات على البساط في مشية بطيئة منحرفة، كأنه يحاول أن ينسلّ غير ملحوظ. وكان من عادة جوباريوف أن يديم السير ذهابًا وجيئة، ممسكًا لحيته بين لحظة وأخرى، يمشطها بأطراف أظافره الطويلة الصلبة. وكان في الحجرة مع جوباريوف سيدة في نحو الخمسين، تلبس ثوبًا حريريًا باليًا، ولها وجه أصفر كالليمونة مفرط الحركات، وشعر أسود كثيف على شفتها العليا، وعينان سريعتا الدوران حتى لكأنهما تقفزان من رأسها، ثم رجل ضخم يجلس منحنيًا في ركن.

تكلم بورجايوف مخاطبًا السيدة، من دون أن يرى ـ في ما يبدو ـ ضرورة لتعريفها إلى لتفينوف:

ـ حسنًا يا عزيزتي ماترونا سميونوفنا زوهانتشيكوف. فيمَ كنت تحدثيننا؟

فشرعت تلك السيدة ـ وكانت امرأة عاقرًا رقيقة الحال، قضت عامين متنقلة من بلد إلى بلد ـ شرعت تقول بحدة لاهثة غريبة:

ـ نعم، لقد ذهب إلى الأمير وقال له: «إن مركزك يا صاحب السعادة يمكّنك من رفع الظلم عني. أظنك تقدر نُبلَ أفكاري! وهل يمكن أن يضطهد إنسان في هذا العصر من أجل أفكاره؟» فماذا تظن الأمير قد فعل... ذلك السيد المثقف ذا المركز الممتاز؟

فسأل جوباريوف وهو يشعل لفيفة وعلى وجهه سيماء التفكير:

ـ نعم، ماذا فعل؟

فنصبت السيدة قامتها ومدت يمناها المعروقة وقد باعدت بين سبابتها وسائر أصابعها:

ـ لقد نادى خادمه وقال له: «هيا انزع معطف هذا الرجل وخذه لنفسك فهو هدية لك!».

فسأل بمبايف ملوحًا بذراعيه:

ـ وهل نزعه الخادم؟

ـ لقد نزعه وأخذه... هذا ما فعله الأمير بارنولوف. ذلك الشريف الثريّ المعروف.. رجل الحكومة ذو المنصب الرفيع! فماذا يتوقع المرء بعد ذلك؟

وكان جسم مدام زوها نتشيكوف يرتعد كله غضبًا، ووجهها يتقلص بحركات تشنّجية، وصدرها الذاوي الأمسح يعلو ويهبط محتدمًا تحت صديرتها. أما عيناها فكادتا تقفزان من رأسها قفزًا... ولكن الحقيقة أنهما كانتا تقفزان مهما يكن الموضوع الذي تتحدث فيه. وصاح بمبايف:

ـ فضيحة صارخة! فضيحة صارخة! أي عقاب يكفي؟

فهمهم جوباريوف معقبًا:

ـ الفساد شامل. العقاب.. ليس هو المطلوب في هذه الحالة بل.. أمور أخرى.

وسأل لتفينوف معلِّقًا على القصة:

ـ ولكن هل حدث هذا حقًا؟

فانفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة:

ـ حدث حقًا، كيف؟ إنه فوق كل شك! كل شك ـ ك! ونطقت بهذه الكلمات في حماسة بالغة جعلتها ترتجف من الجهد، لقد سمعته من رجل ثقة، أنت تعرفه يا ستيبان نيكولايتش. إنه اليستراتوف، كابيتون الستراتوف. وقد سمعها بنفسه من شهود عيان رأوا ذلك المنظر المخزي.

فسأل جوباريوف:

ـ اليستراتوف؟.. أهو ذلك الذي كان في قازان؟

ـ نعم. إنني أعلم يا ستيبان نيكولايتش ما أشيع عنه من أخذ الرشى من بعض التجار أو مقطِّري الخمور هناك.. ولكن من الذي زعم هذا؟ إنه بليخانوف! وكيف يصدق المرء بليخانوف وكل إنسان يعلم أنه.. جاسوس؟

فقاطعها بمبايف قائلا:

ـ كلا. اسمحي لي يا ماترونا سميونوفيا. إن بليخانوف صديقي، ولا وجه لاتهامه بالجاسوسية.

ـ أجل، أجل، إنه جاسوس!

ـ مهلا.. أرجوك!..

فصرخت مدام زوها نتشيكوف:

ـ جاسوس! جاسوس!

فصرخ بمبايف بدوره:

ـ لا، لا، دقيقة واحدة... سأخبرك بالحقيقة... فأصرّت مدام زوها نتشيكوف على صياحها:

ـ جاسوس! جاسوس!

وزأر بمبايف بكل ما في رئتيه من قوة:

ـ كلا، كلا. إن كنت تقصدين تنتليف فهذا شأن آخر.

فصمتت مدام زوها نتشيكوف برهة، واستمر بمبايف يقول بصوته العادي:

ـ إنني أعلم من مصدر وثيق أن هذا السيد حين استدعاه البوليس السرّي سجد عند قدمي الكونتيسة بلازنكرامبف ومضى يئن وينتحب قائلا:

ـ «انقذيني! ساعديني!» ولكن بليخانوف لم يهبط قط إلى هذا الدرك.

فتمتم جوباريوف:

ـ مم.. تنتليف.. يجب.. يجب ألا ننسى هذه.

وهزت مدام زوها نتشيكوف كتفيها باحتقار وقالت:

ـ كلاهما شرّ من أخيه، ولكنني أعلم عن تنتليف هذا قصة أبدع. إنه كان ـ كما يعلم الجميع ـ مستبدًا ظالما لرفيقه، على الرغم من دعواه أنه من أنصار التحرير. وقد حدث مرة أنه كان في صالون إحدى السيدات في باريس، ودخلت مدام بيتشرستو ـ وهي كما تعلمون صاحبة «كوخ العم توم»[1]،

---

(1) هاريت بيتشر ستو كاتبة إنسانية وزعيمة من زعيمات الحركة النسائية في الولايات

فألحّ تنتليف على مضيفته ـ وتنتليف شخص ملحف رذل ـ كي تقدمه إليها، ولكنها ما كادت تسمع اسمه حتى قالت: «ماذا؟ أيطمع أن يُقَدَّم إلى مؤلفة كوخ العم توم؟» وصفعته على خده قائلة «أخرج!» فماذا تظنه فعل؟ لقد تناول قبعته وانسحب كالكلب الذليل.

فقال مبايف:

ـ أظن أن في هذه القصة بعض المبالغة. لقد قالت له: «أخرج»، هذا صحيح، ولكنها لم تصفعه.

فجعلت مدام زوها نتشيوف تكرر بعنف عصبي:

ـ أجل لقد صفعته على وجهه! إنني لا أختلق الأخبار! هؤلاء هم أصدقاؤك!

ـ معذرة يا ماترونا سيمونوفنا. إنني لم أقل قط أن تنتليف صديق لي، لقد كنت أتحدث عن بليخانوف.

ـ تنتليف أو واحد من أمثاله... عندك مينوف مثلا..

فسأل بمبايف وقد ظهرت على وجهه أمارات الفزع:

ـ ماذا فعل مينوف؟

ـ ماذا؟ أتراك لا تعرف؟ لقد صاح في شارع بوزنسنزكي بحيث سمعه الناس جميعًا «إن الأحرار كلهم يجب أن يُرموا في السجون!». وواحدة أخرى: زاره زميل له من أيام التلمذة ـ رجل فقير بالطبع ـ وسأله: هل يستطيع أن يبقى معه إلى العشاء؟ فأجابه مينوف: «لا يمكن.. سيتعشّى معي اليوم كونتان، أعفنا من وجودك!».

المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، روايتها «كوخ العم توم» (1852) كان لها أثر كبير في حركة تحرر العبيد. قامت برحلة إلى أوربا سنة 1853.

فزعق بمبايف:

ـ أقسم أن هذا تشنيع!

ـ تشنيع؟ تشنيع؟ إن الأمير فاروشكن الذي كان هو أيضًا مدعوًا للعشاء على مائدة صديقك مينوف...

فقطعها جوباريوف بشدة:

ـ إن الأمير فاروشكن قريبي، ولكني لا أسمح له بدخول منزلي.. فلا ضرورة أيضًا لذكر اسمه.

فاستمرت مدام زوها نتشيكوف تقول وهي تحني رأسها بخضوع نحو جوباريوف:

ـ وثانيًا، إن براسكوفيا ياكوفلفنا نفسها أخبرتني بذلك.

ـ لقد وقعت على راوية أمينة! كيف! إنها هي وزاكيزوف أكبر مشنّعين على وجه البسيطة!

ـ معذرة، إن زاكيزوف كذاب بلا شك.. لقد سرق الكفن الحريري من تابوت أبيه، أنا لا أجادل في هذا، ولكن براسكوفيا ياكوفلفنا!.. شتّان ما بينهما! أنسيت كيف كان فراقها لزوجها فراقًا كريمًا؟ ولكنك دائمًا...

ـ كفى كفى يا ماترونا سميونوفنا. لنترك هذه الثرثرة ولنتحدث في موضوع أسمى. إنني لست ضئيل الخبرة بهذه الموضوعات كما تعلمين، هل قرأت «مدموازيل دولاكنتيني» هذه رائعة بلا ريب! وهي في الوقت نفسه تتفق مع مبادئك كل الاتفاق!

فأجابت مدام زوها نتشيكوف بجفاء وحدة:

ـ إنني لا أقرأ الروايات الآن مطلقًا.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أجد وقتًا لذلك. أنا لا أفكر إلا في شيء واحد: ماكينات الخياطة.

فسأل لتفينوف:

ـ ماكينات ماذا؟

ـ الخياطة.. الخياطة، يجب أن تحصل النساء جميعًا على ماكينات خياطة، وأن يؤلّفن جميعات، فبهذه الطريقة يستطعن أن يكسبن قوتَهُنّ ويظفرن باستقلالهن في أقصر وقت، وبغير هذا لن يحصلن على حريتهن. هذه مسألة اجتماعية هامة جدًا. لقد تناقشت فيها مع بولسلاف ستاد نتسكي، إن بولسلاف ستاد نتسكي شخصية ممتازة ولكنه يستخف بهذه المسائل.. لا همّ له إلا الضحك. أحمق!

فتكلم جوباريوف ببطء وفي نبرة تشبه نبرة حكيم أو نبي:

ـ سيأتي يومٌ يحاسَبُ فيه الجميع، ويُوَفّون ما عملوا.

فردد بمبايف:

ـ أجل، أجل، سيحاسَبون بالضبط.

ثم أردف بصوت خفيض:

ـ ولكن خبرني يا ستيبان نيكولايتش.. ماذا فعلت في كتابك الكبير؟

فأجاب جوباريوف عاقدًا حاجبيه:

ـ إنني أجمع المواد.

ثم التفت إلى لتفينوف الذي بدأ رأسه يدور من ضجة الأسماء الغريبة والتشنيع المحموم. وسأله عما يعنى به من الموضوعات، فأجابه لتفينوف عما سأل.

ـ آه بلا شك، العلوم الطبيعية، إنها نافعة إذا كانت نوعًا من التدريب، لا

غاية في ذاتها، إن الغاية يجب أن تكون.. مم... يجب أن تكون... شيئًا آخر. هل تسمح لي أن أسألك عن آرائك الخاصة؟

ـ أي آراء؟

ـ آرائك أو بالأحرى آرائك السياسية، ما آراؤك السياسية؟

فابتسم لتفينوف وقال:

ـ إن شئت الحقيقة فليس لي آراء سياسية.

فرفع الرجل الضخم الجالس في الركن رأسه عند سماع هذه الكلمات ونظر إلى لتفينوف مليًا، وسأله جوباريوف بلطف:

ـ كيف؟ ألم تفكر في الأمر بعد، أم تراك تعبت من التفكير فيه؟

ـ لا أدري كيف أقول. ولكن يبدو لي أننا نحن الروس ما زلنا بعيدين عن أن تكون لنا أفكار سياسية، أو أن نتوهّم أن لنا مثل هذه الأفكار. وأود أن أنبّهك إلى أني أريد «بالسياسة» ذلك المعنى الذي تختص به هذه الكلمة، وأن...

فقاطعه جوباريوف بلطف أيضًا:

ـ آه! إنه لم ينضج بعد.

واتجه إلى فوروشيلوف وسأله هل قرأ البحث الذي أعطاه إياه؟ وكان الأمر الذي أدهش لتفينوف أن فوروشيلوف لم ينبس بكلمة منذ جاء، بل زوى حاجبيه وجعل يدير حدقتيه (ويظهر أنه كان معتادًا أن يخطب أو يلزم الصمت). فلما وجّه إليه جوباريوف ذلك السؤال شد صدره بحركة عسكرية وأومأ إيجابًا وهو يدق عقبيه.

ـ حسنًا. وكيف وجدته؟ هل أعجبك؟

أما من حيث المبادئ الأساسية فقد أعجبت به، غير أني لم أسلِّم بالنتائج.

ـ مم.. ومع هذا فقد امتدح أندريه أيفانتش هذا البحث. يجب أن توضح لي مأخذك في ما بعد.

ـ أتحب أن أكتبها لك؟

فتجلت الدهشة على وجه جوباريوف، ولكنه أجاب بعد تفكير قصير:

ـ فلتكن مكتوبة، وأريد منك بهذه المناسبة أن تشرح لي آراءك أيضًا.. في موضوع. الاتحادات.

ـ على نظام لاسال أو على نظام شلتسه ودليتزش؟

ـ على النظامين كليهما. فالناحية الاقتصادية هي التي تهمنا نحن الروس. ثم هناك الأرتل..[1] وهو النواة.. يجب أن ننظر في هذا كله.. لا تترك شيئًا.. ولا تنس مسألة تقسيم الأرض بين الفلاحين.

فسأله فوروشيلوف وفي صوته نبرة إجلال:

- وما رأيك أنت يا ستيبان نيكولايتش في العدد المناسب من الأفدنة؟

ولكن جوباريوف كان يتمتم مستغرقًا في تفكيره، وهو ينظر إلى المنضدة ويقرض خصلة من لحيته:

ـ مم.. وكوميون القرية! الكوميون[2]، فاهم؟ إنها كلمة عظيمة! ثم ما معنى هذه الحرائق.. وهذه.. هذه الإجراءات الحكومية ضد المدارس الليلية، ودور المطالعة والصحف؟ ولِمَ رفض الفلاحون أن يوقعوا على الوثائق التي تثبت استقلالهم عن سادتهم الأقدمين؟ ولماذا يجري ما يجري

---

(1) «الأرتل» نوع من الارتباط بين العمال على أساس المشاركة في الأرباح وفي المسئولية.

(2) نظام القرية الروسية في العهد القيصري، وهو أشبه بالنظام القبلي، إذ كان أساسه التعاون الوثيق بين أهل القرية في إحراز المنافع ورفع المضار، وكانت الأرض، أو قسم كبير منها، وهو الذي يترك للمراعي والغابات، ملكًا مشاعًا بين أهل القرية.

في بولندا؟ ألا ترى أن.. مم.. أننا.. أننا يجب أن نتصل بالشعب..وأن نتعرف... نتعرف إلى آراءه..

وكأنما تملك جوباريوف فجأة انفعال عنيف يوشك أن يكون حقدًا وغضبًا فاكفهرّ وجهه، وثقلت أنفاسه، ولكنه مع ذلك لم يرفع عينيه بل ظل يقرض لحيته:

ـ ألا ترى..

وفجأة انفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة بصوت مزعج:

ـ إن يفسيف نذل!

وكان بمبايف يروي لها شيئًا بصوت خفض منه احترام مضيفهم فدار جوباريوف على عقبيه مسرعًا، وعاد ينظر في أرجاء الحجرة.

وظل الضيوف يتوافدون، فلما تقدم الليل كان كثير من الناس مجتمعين، وكان من بينهم السيد يفسيف الذي سبّته مدام زوها نتشيكوف بذلك اللفظ القاسي، وقد حادثته بشوق وترحاب وسألته أن يرافقها إلى منزلها. كما حضر شخص يدعى بشتشالكن، وهو قاضي تحكيم[1] ممتاز، من أولئك الرجال الذين قد تكون روسيا أحوج إليهم من غيرهم: فهو ضيق الأفق، محدود الثقافة، ضئيل المواهب، إلا أنه دقيق صبور أمين، يكاد الفلاحون في إقليمه يعبدونه، وهو يحترم نفسه لأنه جدير حقًا بالاحترام. وكان هناك أيضًا ضباط قليلون، فروا بإجازات قصيرة إلى أوربا، وراحوا يستمتعون ـ بحذر ومن دون أن تفارق أدمغتهم صورة قائدهم ـ بمعابثة أهل الفكر الذين لا يخلون من خطر، وطالبان من هيدلبرج مفرطا النحافة، دخلا مسرعين، وكان أحدهما ينظر إلى من حوله باحتقار شديد والآخر يضحك ضحكات

(1) «قاضي التحكيم» وظيفة أنشئت في فترة تحرير الرقيق، ومهمته التوسط بين النبلاء والفلاحين.

عصبية، وكان كلاهما شديدي الأرتباك، وانحشر بعدهما فرنسي ممن يسمونهم Petit jeun homme مخلوق صغير حقير غبي كريه.. يحظى ببعض الشهرة بين زملائه من سماسرة دور السياحة لزعمهم أن الكونتات الروسيات يذبن في هواه، والحقيقة أن همه الأكبر هو الحصول على عشاء مجّاني. وكان آخر من ظهر هو تت بنداسوف، وهو رجل له مظهر طالب ألماني ماجن، أما في الحقيقة فهو بلطجي محتال، صديق لزوجات التجار الروس ولبنات الهوى الباريسيات، أصلع، أدرد، سكير، جاء أحمر الوجه مخمورًا، وجعل يؤكد لكل من رآه أن ذلك الوغد بنازت «قشطه» من كل ما معه، والحقيقة أنه ربح ستة عشر جلدًا.. كان هناك ـ باختصار عدد كبير من الناس. وكان عجيبًا حقًا ذلك الاحترام الذي يبدونه جميعًا لجوباريوف كأنه مرشد أو زعيم، كانوا يعرضون عليه أفكارهم، ويخضعونها لحكمه، فيجيب بالتمتمة، ونتف لحيته، وتحويل عينيه، أو بكلمات جوفاء متقطعة تتلقف كأنها نطق حكمة سامية، وقلما كان جوباريوف نفسه يشترك في المناقشة، ولكن الآخرين كانوا يكدون صدورهم ليعوّضوا ذلك. وقد حدث غير مرة أن اشترك ثلاثة أو أربعة في الصياح، وكانوا كلهم راضين، وكانوا كلهم مفهومين. واستمر الحديث حتى كاد الليل ينتصف وامتاز ـ كالعادة ـ بتعدد الموضوعات المطروقة وتنوّعها. فتحدثت مدام زوها نتشيكوف عن غاريبالدي، وعن شخص يدعى كارل ايفانوفتش جلده عبيد داره، وعن نابليون الثالث، وعن اشتغال النساء بالأعمال، وعن تاجر يدعى بلسكاتشوف تسبب عامدًا في موت اثنتي عشرة عاملة ونال جزاء ذلك وسامًا نُقش عليه «لأعماله الجليلة». كما تحدثت عن البروليتاريا، وعن الأمير الجرجاني تشكتشيولدزوف الذي قتل زوجته بمدفع، وعن مستقبل روسيا، وتحدث بشتشالكن أيضًا عن مستقبل روسيا، وعن احتكار الخمور، وعن معنى القوميات، وعن كراهته لكل حديث مُعاد. ثم كان انفجار مفاجئ من فوروشيلوف، فذكر في نفس واحد ـ وكاد يختنق من إسرافه على رئتيه ـ أسماء درابر، وفرتشو، وشلجونوف، وبيتشات، وهلمولتز، وشتار، وسنت

رايموند، وجوهان ميلر الفسيولوجي، وجوهان ملر المؤرخ ـ وكان واضحًا أنه يخلط بينهما ـ وتين ورينان، وشتسابوف ثم توماس ناش، وبيل، وجرين.. فتمتم بمبايف حائرًا: «من هؤلاء يا ترى؟» فأجابه فوروشيلوف منتهرًا: «أنهم أسلاف شكسبير، وهو بينهم كالجبل الأبيض بين سلاسل الألب». وواصل الحديث عن مستقبل روسيا. وتحدث بمبايف أيضًا عن مستقبل روسيا، وأضفى عليه ألوانًا زاهية، وابتهج بخاصة عندما ذكر الموسيقى الروسية، فقد كان يراها «آه! رائعة حقًا!» ولكي يؤيد ذلك جعل يترنم بأغنية لفارلاموف، ولكنه قوطع بصيحة إجماعية: «إنه يغني الميزيريري من التروفاتوري، وغناؤه يصك الأسماع». وبين هذه الضجة كان ضابط صغير يذم الأدب الروسي، وأخر ينشد قصيدة من «أسكرا»[1]، وتطرف بنداسوف فأعلن أن هؤلاء المخادعين جميعًا يجب أن تُهَشَّم أسنانهم، وهذا كل ما هنالك.. ولكنه لم يعين من هم المخادعون الذين يعنيهم، وأصبح دخان السجائر خانقًا، وأحس الجميع بالحَرّ والإعياء، وبحّت الأصوات، وغامت العيون، ولمعت قطرات العرق على كل وجه، وأحضرت زجاجات الجعة فأفرغت في الحال، وسأل أحدهم: ماذا كنت أقول؟ وسأل أخر: من كنت أناقش وفيم كنت أناقش؟ وبين الضوضاء والدخان كان جوباريوف يسير كدأبه بلا كَلَل، وهو يترجح من ناحية إلى ناحية، ويجذب لحيته، ومرة يصغي إلى مناقشة، ومرة يلقي بكلمة، وكل إنسان لا يملك إلا أن يشعر أنه هو ـ جوباريوف مصدر هذا كله، وأنه سيد المكان وأبرز الحاضرين.

وكان لتفينوف قد بدأ قرابة الساعة العاشرة يحس بدوار فظيع فانسلَّ خارجًا من دون أن يشعر به أحد، منتهزًا فرصة احتدام عام حين تذكرت مدام زوها نتشيكوف مثلا جديدًا على ظلم الأمير بارنولوف. إذ كاد يأمر بقرض أذني أحد الناس.

---

(1) «الشرارة» مجلة ثورية.

وغمر هواء الليل النقي وجه لتفينوف المحرور، ورطبت أنفاس النسيم العطر شفتيه الجافتين، ففكر وهو يقطع الشارع المظلم: «ما هذا الذي كنت أشهد؟ فيمَ كان اجتماعهم؟ وفيمَ كان صياحهم وضجيجهم؟ فيمَ كل هذا؟» وهز لتفينوف كتفيه وعرج على قهوة فيبر فتناول صحيفة وطلب مثلجة. فكانت الصحيفة مشحونة بالحديث عن المسألة الإيطالية كما كانت المثلجة كريهة المذاق. وكان يهم بالعودة إلى فندقه عندما اقترب منه فجأة شخص مجهول يلبس قبعة عريضة، وجلس إلى منضدته قائلا بالروسية: «لعلي لا أزعجك» وأطال لتفينوف النظر إلى ذلك الغريب قبل أن يعرف أنه السيد الضخم الذي كان متواريًا في ركن عند جوباريوف، والذي حدَّق فيه بانتباه بالغ عندما دار الحديث حول الآراء السياسية، إن ذلك السيد لم يفتح فاه قط طيلة المساء.. وها هو ذا قد جلس على مقربة من لتفينوف، وخلع قبعته وهو ينظر إليه متوددًا بشيء من الارتباك.

- 5 -

بدأ ذلك الغريب حديثه قائلا:

ـ إن السيد جوباريوف الذي تشرفت بمقابلتك في داره اليوم لم يُعْنَ بتعريفك بي. فاسمح لي أن أعرِّفك بنفسي، أنا أدعى بوتوجين، وكنت موظفًا في وزارة المالية في سانت بطرسبرج، أرجو ألا تدهش.. فليس من عادتي أن أصادق الناس بهذه السرعة.. ولكن معك..

وهنا انعقد لسانه، فسأل النادل أن يحضر له كأسًا صغيرة من «الكرشفاسر» وأضاف مبتسمًا: «لكي أتشجَّع».

ونظر لتفينوف باهتمام مضاعف إلى آخر من كُتِبَ له أن يعرفهم في يومه ذاك من الغرباء. وكان أول ما خطر بباله: «أنه لا يشبه الآخرين».

إنه لا يشبههم ما في ذلك ريب، فقد كان هذا الجالس أمامه ينقر على حافة المنضدة بأصابع ناعمة، رجلا عريض المنكبين، ممتلئ الجذع، قصير الساقين، منحني الرأس، جعد الشعر مشعثه، له عينان واعيتان حزينتان يظللهما حاجبان كثيفان، وفم غليظ حسن القطع متراكب الثنايا، وأنف من تلك الأنوف الروسية الصميمة التي يشبهونها بالبطاطس. رجلا يبدو في مسلكه عسر ونبوّ عن المألوف، وأقل ما يقال فيه أنه لم يكن من طراز عادي بين الناس. وكان هندامه مهملا، فسترته العتيقة الطراز معلقة عليه كالزكيبة، ورباط رقبته ملفوت. وما ضاق لتفينوف بإقدامه المفاجئ ولم

يَحْسَبه تطفلا، بل أحسّ أن له شيئًا من الزهو الخفي، فقد كان من الجلي أن ذلك الرجل لم يألف التقرّب من الغرباء. وقد أثرّ في لتفينوف تأثيرًا عجيبًا، وأثار فيه حبًا واحترامًا وعطفًا صادقًا.

كرر في صوت رقيق فيه شيء من الخدر والضعف، صوت كان متسقًا اتساقًا غريبًا مع شخصيته كلها:

ـ إذن فأنا لا أضايقك؟

فأجابه لتفينوف:

ـ البتة. بل إنني جد سعيد.

ـ حقًا؟ إذن فأنا سعيد أيضًا، لقد سمعت عنك الكثير، وعرفت أعمالك ومشروعاتك، إنه لخير ما عزمت عليه، فلا عجب أن بقيت الليلة صامتًا.

فأجابه لتفينوف:

ـ نعم، وأراك أيضًا لم تتكلم إلا قليلا.

فتنهّد بوتوجين:

ـ لقد قال الآخرون ما يكفي وزيادة. كنت أستمع لهم.

ثم عقّب بعد لحظة وهو يرفع حاجبيه ممازحًا:

– هل أعجبك برج بابل الذي كنا فيه!

– برج بابل! لقد أحسنت التعبير. طالما وددت أن أسأل أولئك السادة لماذا يثيرون كل هذه الضجة.

فتنهد بوتوجين مرة أخرى:

ـ الحق أنهم هم أنفسهم لا يعلمون. وقد كان يقال عن أمثالهم قديمًا: «إنهم آلات مسخّرة بين يدي قوة قاهرة»، ولكن لدينا الآن أوصافًا أكثر

وضوحًا. ولا أقول ذلك رغبة في انتقادهم، بل إني لأغلو فأقول إنهم كلهم من خيار الناس. فمدام زوها نتشكيوف ـ مثلا ـ أعلم عنها خيرًا كثيرًا، فقد منحت آخر ما تبقى من ثروتها لقريتين فقيرتين. حتى إن قلنا إنها لم تخل من تأثير التظاهر والرغبة في الظفر بإعجاب الناس فقد كان عملها على أي حال تضحية رائعة من امرأة ليست على نعمة كبيرة! وناهيك بالسيد بشتشالكن! فسيأتي يوم يقدِّم إليه فلاحو إقليمه كأسًا من الفضة على شكل القرعة، أو أيقونة لقديسة الراعي، وسيقول لهم في خطبة الشكر إنه لا يستحق هذا الشرف، ولكنه لن يكون صادقًا في ذلك، فإنه يستحقه ولا ريب. وصديقك السيد بمبايف قلبٌ من ذهب، وإن كان أمره كأمر الشاعر يازيكوف الذي ذكروا أنه كان يتغنى بمديح باخوس وهو جالس إلى كتاب يرشف الماء!.. فحماسته ليس لها هدف محدود، ولكنها حماسة على كل حال. والسيد فوروشيلوف من أطيب خلق الله نفسًا، وهو كسائر أنداده من أصحاب «لوحة الشرف» يعد نفسه «أركان حرب» للعلم والحضارة، وهو كثير الجعجعة، ولكنه صغير السن كما ترى، نعم نعم، إنهم جميعًا من خيار الناس، ولكنك إذا جمعت النتائج لم تخرج بشيء. المواد كلها من الطراز الأول أما الطبخة فكريهة المذاق!

أصغى لتفينوف إلى بوتوجين مليًا، وكان حديثه المطمئن الواثق ينبئ بأنه ممن يحسنون الكلام، أجل، إن بوتوجين كان يحب الكلام ويحسنه، ولكنه كان رجلا ذهبت بخيلائه تجاريب الحياة، فهو ينتظر في هدوء فلسفي حتى تسنح له فرصة اللقاء مع روح يوافق روحه.

تابع حديثه بنبرته الحزينة التي لا تشوبها مرارة:

ـ أجل، إن هذا كله جد غريب، وأمر أخر أود أن تلاحظه: إذا اجتمع عشرة من الإنجليز مثلا فإنهم سرعان ما يتحدثون عن التلغراف البحري، أو عن ضريبة الورق، أو عن طريقة لدبغ جلود الفئران ـ أي شيء واقعي محدد. وإذا اجتمع عشرة من الألمان فثمة الحديث عن شلزفج هولشتين ووحدة

ألمانيا. فإذا اجتمع عشرة من الفرنسيين فالكلام دائر ـ مهما تحاول أن تغير مجراه ـ حول أحاديث الغرام. أما إذا اجتمع عشرة من الروس فسرعان ما يتنافسون ـ كما رأيت هذا المساء ـ في عظمة روسيا ومستقبلها فيتحدثون بعبارات غامضة كل الغموض، بادئين مع بدء الخليقة، غير مستندين إلى حقائق ولا منتهين إلى نتائج. بل إنهم يبدأون ويعيدون في ذلك الحديث الممجوج كما يلوك الأطفال قطعة من المطاط لا تسمن ولا تغني من جوع. ثم يأتي موضوع الغرب المتعفّن لينال نصيبه. وعجيب أمر هذا الغرب! فنحن نعلن أنه متعفن مع أنه يفوقنا في كل شيء. ويا ليتنا نحتقره حقا! ولكن الأمر لا يعدو الدجل والتهويش. ومهما نذمّ فإننا لا نقدِّر سوى رأي الغرب، أعني رأي صعاليك باريس.. أعرف رجلا من الفضلاء ـ رب أسرة جاوز طور الشباب ـ لازمه الحزن عدة أيام لأنه صاح في مطعم فرنسي يطلب une portion de bifteck aux pommes de terre ثم إذا رجل فرنسي أصيل ينادي: garçon, bifteck pommes فمنذ ذلك الحين أخذ ينادي في كل مكان bifteck pommes وعلم رفاقه أن ينادوا مثله. بل أن بنات الهوى ليعجبن لتلك الرهبة التي تغشى شبابنا الأجلاف حين يدخلون مخادعهن المنكودة وكأنهم يقولون لأنفسهم:

«يا لله! أحقا إني هنا مع أنا ديليون نفسها!».

فسأله لتفينوف:

ـ وإلى أي شيء تعزو نفوذ جوباريوف الظاهر على كل من حوله؟ أهي موهبته؟ أهي ملكاته؟

ـ لا لا، لا شيء فيه مما تقول.

ـ أتراها شخصيته!

ـ ولا ذلك أيضًا، إنما هي قوة إرادته، قوة الإرادة سلعة نادرة عندنا نحن الصقالبة، ولهذا نخشع أمامها خشوعًا. إن جوباريوف يريد أن يكون سيدًا

فيسلّم له الجميع بذلك. ماذا تظن؟ لقد حررتنا الحكومة ـ وهي مشكورة ـ من رقبة العبودية، ولكن عادات العبودية ما زالت متأصلة في نفوسنا بحيث لا نستطيع أن نتخلص منها، إننا نريد سيدًا في كل شيء وفي كل مكان. وهذا السيد قد يكون شخصًا حيًا وقد يكون «اتجاهًا» يسيطر علينا.. فنحن في هذه الأيام مثلا عبيد أرقّاء للعلوم الطبيعية. أما لماذا نقبل على أنفسنا هذا النوع من الرق فأمر لا يسهل فهمه، ولكن يبدو أنه بعض طبيعتنا، وأهم شيء على كل حال هو أن يكون لنا سيد، فإذا كان بيننا هذا السيد فمعنى ذلك أنه لنا، ولا علينا بعد ذلك من شيء! عبيد! وكبرياؤنا كبرياء العبيد، وخضوعنا خضوع العبيد.. فإذا ظهر سيد جديد فقد انتهى أمر السيد القديم، كان زيدًا ثم أصبح عمرًا، فنحن نلكم زيدًا ونسجد لعمرو! تذكر كم مرة وقعنا ضحيّة هذه اللعبة! ونحن نزعم أن الشكّ هو خصيصتنا الأصلية، ولكننا حتى عندما نشك لا نكون كمحارب يقاتل بسيفه بل كخادم يضرب بقبضته، ولعله إنما يفعل ذلك طاعة لأمر سيده. ثم إننا شعب ليّن العريكة، وليس من العسير أن نبقى ملجمين. هكذا أصبح السيد جوباريوف قوة بيننا. لقد ظل يدق في موضع واحد حتى نفذ منه. الناس يرون أمامهم رجلا معتدًا بشخصيته، يؤمن بنفسه ويلقي الأوامر ـ وهذا أهم ما في الأمر، إنه يلقي الأوامر ـ فلابد إذن أن يكون على صواب، ولابد أن نطيعه. هكذا نشأت الفرق الدينية عندنا، الأونفوريون والأكولينيون وغيرهم. من يمسك العصا فهو القائد.

كان بوتوجين غائم العينين، مشتعل الوجنتين، ولكن العجب أن حديثه على قسوته وعنفه لم يكن فيه شيء من المرارة، بل كان يشفّ عن حزن صادق عميق.

سأله لتفينوف:

ـ كيف عرفت جوباريوف؟

ـ عرفته منذ زمن طويل.. إليك خاصيّة أخرى من خصائصنا: الكاتب الذي أمضى حياته كلها يحارب المسكرات بالشعر والنثر، ويهاجم شركات

الخمور بحرارة وعنف، هذا الكاتب لا جناح عليه إن اشترى معملين للتقطير وافتتح مائة حانة! ولو فعلها رجل غيره لمُحي عن وجه الأرض، أما هذا فلا يلومه ولا يعتب عليه أحد! وكذلك السيد جوباريوف فهو سلافوفيل وديموقراطي واشتراكي وما شئت فسمّه، ولكنه كان ـ وما زال ـ يكل إدارة ممتلكاته لأخيه، وهو سيد من طراز السادة الأقدمين الذين يلقَّبون «بالجلادين». ومع ذلك فمدام زوها نتشيكوف تعفّر رأسها في التراب عند قدمي جوباريوف، وهي التي طربت لأن مسز بيتشر ستو صفعت تنتليف على خده! وما ذاك إلا لأن جوباريوف يوهم الناس أنه يقرأ كتبًا قيِّمة! هذا كل ما له من فضل! لقد رأيت بعينيك اليوم مبلغ قدرته على التعبير، والحمد لله على قلّة كلامه وانطوائه على نفسه. فهو حين يتبسّط وينطلق لا يطيقه أحد ولو كان صبورًا مثلي. إنه يسترسل في النكات الغليظة والنوادر البذيئة.. أجل، إن السيد جوباريوف المبجَّل يروي نوادر مكشوفة ويقهقه قهقهة صاخبة وهو يرويها.

قال لتفينوف:

ـ أصبور أنت! لقد كان يخيل إليّ عكس ذلك، ولكن اسمح لي أن أسألك عن اسمك.

فرشف بوتوجين قليلا من الكرشفاسر:

ـ اسمي سوزونت.. سوزونت إيفانتش. وقد سَمّوني بهذا الاسم تيمنًا بقريب لي أرشمندريت[1] لا أدين له بغيره. وأنا من بيت دين إن جاز لي أن أقول هذا. أما شكك في صبري فلا أساس له، فأنا جدّ صبور، وقد خدمت الدولة اثنتين وعشرين سنة. وكنت مرءوسًا لعمّي، وهو الآن مستشار، واسمه أيرينار بوتوجين، هل تعرفه؟

---

(1) الارشمندنت في الكنيسة الروسية شيخ دير أو مجموعة من الأديرة. وقد اضطهدوا اضطهادًا عظيمًا، ونفي كثيرون منهم إلى سيبيريا، واشتهروا بجدهم وتقواهم وتقشفهم.

ـ لا.

ـ إذن أهنئك. أجل. إنني صبور. ولنعد إلى الأصل ـ كما كان يقول منذ بضعة قرون زميلي المطران يواكيم[1] الذي أُحرق في عصر القيصر تيودور. إنني أعجب يا سيدي لأبناء وطني. فكلهم شديدو الكآبة يمشون ناكسي الرءوس. وهم مع ذلك مفعَمون بالأمل. فما أسرع ما تطيش عقولهم وإذا هم ينتفضون حماسة! انظر إلى السلافوفيل الذي يعد جوباريوف نفسه واحدًا منهم. إنهم من خيار الناس. ولكن فيهم هذا المزاج نفسه من اليأس والاندفاع. ولهذا تراهم يعيشون في الزمن المستقبل، كل شيء سوف يكون، وإياك أن تنسى أنه سوف يكون! أما عن الحاضر فإننا لم نعمل شيئًا، ولم تخلق روسيا شيئًا من إنتاجها الشخصي، لا في السياسة ولا في القانون، ولا في الفن، بل ولا في الصناعة اليدوية!.. ولكن مهلا مهلاً، والصّبر الصّبر. فكل شيء سوف يكون، ولماذا! اسمحوا لي أن أسألكم هذا السؤال!

عجبًا! لأننا نحن المثقفين لا خير فينا، أما الشعب.. آه! الشعب العظيم. أرأيت قميص هذا الفلاح؟ إنه المنبع الذي سيصدر عنه كل شيء. لقد تحطمت كل الأصنام الأخرى، فعلينا أن نؤمن بالقميص. حسنًا! فماذا إذا أخلف القميص ظننا..! كلا، إنه لن يخلف الظن. اقرأ مدام كوهانوفسكا وارفع عينيك إلى السماء! حقًا لو كنت رسامًا لرسمت صورة كهذه: رجل مثقف راكع أمام فلاح وهو يقول له: اشفني يا سيدي الفلاح، فإن المرض يفتك بي، وفلاح راكع بدوره أمام الرجل المثقف وهو يقول له: علمني يا سيدي الشريف فإن الجهل يفتك بي.. كلاهما باق ـ طبعا ـ حيث هو. إن واجبنا هو أن نستشعر شيئًا من التواضع ـ فعلا لا قولا ـ وأن نستعير من

---

(1) شيخ السلفيين Raskolnik في القرن السابع عشر، وكانوا فرقة رفضت الإصلاحات الدينية التي أدخلها بطرك الكنيسة الروسية نيكون (1605 ـ 1681).

إخوتنا الكبار ما ابتكروه قبلنا وأتقنوه أكثر منا Kollner, noch ein glaschen Kirsch![1] لا تظن أني سكير، ولكن الخمرة تطلق لساني.

فقال لتفينوف مبتسمًا:

ـ لا حاجة بي ـ بعد ما قلته لي الآن ـ إلى سؤال عن الفريق الذي تنتمي إليه، ولا عن رأيك في أوربا. ولكن دعني أوجه إليك ملاحظة واحدة تقول: إننا يجب أن نستعير من أخوتنا الكبار، ولكن كيف نستطيع أن نستعير بغير أن نراعي ظروف المناخ والأرض، وخصائص البيئة والأمة؟ أذكر أن أبي اشترى من «بوتنوب» مكنة للدرس من الحديد الصب ـ مكنة مشهورة وممتازة في الحقيقة، أتدري ما الذي حدث؟ لقد بقيت في الجرن خمس سنوات طوالًا بلا فائدة حتى استبدلت بها أخرى أمريكية مصنوعة من الخشب وأقرب إلى أساليبنا وعاداتنا كأكثر المكنات الأمريكي. لا فائدة من أن نستعير دون تدبر يا سوزونت ايفانتش.

فرفع بوتوجين رأسه، وبقي لحظة صامتًا، ثم قال:

ـ لم أكن أتوقع مثل هذا النقد منك يا عزيزي جريجوري ميهالوفتش. ما الذي يدعوك أن تستعير شيئًا ما بدون تدبّر؟ أنت تأخذ ما ليس لك لا لأنه ملك لغيرك، بل لأنه يناسبك. وإذن فأنت تراعي وتختار. أما عن النتائج فلا نظلمن أنفسنا، فسوف يكون لها حظ كاف من الأصالة بفضل تلك الظروف والبيئة المناخية وغيرها مما ذكرته أنت. ما عليك إلا أن تضع أمام المعدة الطبيعية غذاء طيبًا لتهضمه بطريقتها الخاصة، وعندما يمر الزمن ويزداد الكيان قوة يمنحه من عنده لونًا جديدًا. خذ لغتنا نفسها مثلا، لقد غمرها بطرس الأكبر بسيل من آلاف الكلمات الأجنبية، من هولندية، وفرنسية، وألمانية، وكانت تلك الكلمات تدل على أفكار يجب أن يألفها الشعب الروسي، فصبها بطرس علينا بلا تردد ولا تلطّف. وكان النتاج الأول بالطبع

---

(1) «جرسون، كأسًا أخرى من الكرش!».

نتاجًا هجينًا مختلطًا، ثم بدأت عملية الهضم التي أشرت إليها، لقد ثبتت الأفكار وهضمت، فتبخرت الصيغ الأجنبية بالتدريج، ووجدت اللغة في نفسها ما يغني عن هذه الصيغ. والآن يستطيع أي كاتب عادي أن يترجم لك أي صفحة تريد من هيجل ـ أجل، من هيجل نفسه! ـ من دون أن يستعين بكلمة واحدة غير صقلبية. وما حدث في اللغة يجب أن نأمل حدوثه في النواحي الأخرى: فمرد الأمر كله إلى سؤال واحد: ألنا طبيعة ذات حيوية قوية؟.. حسنًا، إنني أقول إن طبيعتنا.. حسنًا، إنها سوف تثبت للتجربة، فقد اجتازت محنًا أعظم من هذه. إنما تخشى على سلامتها واستقلالها الأمم الضعيفة المنحلّة، وإنما يتباهى «بالأصالة الروسية» ضعفاء العقول منا. فقد يكون المرء معنيًا كل العناية بصحته ولكن ذلك لا يحمله على أن يتحمس في الحديث عنها، ولو فعل ذلك لحق له أن يخجل من نفسه.

ـ هذا كله صواب محض يا سوزونت ايفانتش، ولكن لماذا لا نعفي أنفسنا من التعرض لمثل هذه التجارب! أنت نفسك تقول إن النتاج الأول كان هجينًا مختلطًا! فماذا لو بقي ذلك النتاج الهجين! لقد بقي بالفعل كما تعلم أنت نفسك.

ـ ولكنه لم يبق في اللغة ـ وليس هذا بالشيء القليل! ثم إن الشعب هو الذي استبقاه لا أنا، فلست ملومًا إذا كان مقدورًا على هذا الشعب أن يتبع مثل هذا النظام. يصيح السلافوفيل: «لقد تطور الألمان تطورًا عاديًا» ولكن أنى لنا ذلك إذا كانت أول خطوة خطاها جنسنا ـ أعني استدعاء أمير من وراء البحار ليحكمهم ـ خطوة شاذة غير عادية، لا تزال تتكرر إلى اليوم في كل امرئ منا! كل منا بلا ريب قد قال لشيء أجنبي ـ ولو مرة واحدة في حياته ـ «تعال! احكمني وسُدني!» أنا بالطبع على استعداد لأن أسلم لك بأننا حين نضع مادة أجنبية في جسمنا لا نستطيع أن نحكم حكم اليقين أي مادة تلك التي نضعها فيه، أدسم أم سمّ. ولكن من المعروف أن الانتقال من السيئ إلى الحسن لا يكون بشيء أحسن نسبيًا، بل بشيء أسوأ. والسمّ نفسه ينفع في

الطب. لا يجدر بغير البُلهاء أو اللئام أن يحتجّوا بفقر الفلاحين بعد التحرير، أو بانتشار السكر منذ إلغاء احتكار الخمور، فالقاعدة دائمًا: من الأسوأ إلى الأحسن..

مسح بوتوجين وجهه بيده واستطرد قائلا:

ـ سألتني عن رأيي في أوربا. وأقول لك: إني معجب بها، ومناصر لمبادئها إلى أبعد حد، ولا أرى حاجة إلى إخفاء هذه الحقيقة. لقد تعلمت من زمن طويل ـ لا، ليس من زمن طويل ـ لقد تعلمت من زمن ألا أهاب التعبير عن معتقداتي بجلاء. وقد رأيتك أنت أيضًا لا تتردد في اطلاع جوباريوف على طريقتك الخاصة في التفكير. إنني أحمد الله على أني لم أعد أعبأ بآراء الرجل الذي أحادثه ولا بوجهات نظره ولا بعاداته. والحق أني لا أعلم شيئًا أقبح من هذا الجبن الذي لا داعي له ـ هذه الرغبة في الإرضاء التي تنبعث من الملق، وتجعلك ترى أحيانا رجلا من ذوي الشأن بيننا يحاول أن يتحبب إلى طالب صغير ليس بشيء في عينه، فهبط معه إلى نوع من العبث الفكري، ويلجأ إلى الخداع والحيلة. هب أن ذوي الشأن قد يلجأون إلى ذلك رغبة في الشهرة، ولكن ما الذي يجبرنا نحن العاديين من الناس على أن نتزحزح عن آرائنا، وننزل عن كرامتنا؟ أجل، أجل، إنني غربي أدين بالولاء لأوربا. ومعنى ذلك ـ إذا شئت التحديد ـ أنني أدين بالولاء للحضارة، تلك الحضارة التي يهزأ بها أصحابنا الآن هزءًا شنيعًا. معنى ذلك أني أدين بالولاء للمدنية. أجل، للمدنية، فهذه كلمة أفضل. وإني أحبها وأؤمن بها من صميم قلبي، وإني لا أؤمن ولن أؤمن بشيء سواها. هذه الكلمة «المدنية» (ونطق بوتوجين بكل مقطع في جزم وتأكيد) كلمة واضحة نقية مقدسة، وكل ما عداها من المثل كالقومية والمجد وما إليهما ـ كل هذه المثل تنبعث منها رائحة الدم.. سحقًا لتلك المثل!

ـ هذا حسن. ولكن ألا تحب روسيا ـ وطنك ـ يا سوزونت ايفانتش!

مرر بوتوجين يده عل وجهه قائلا:

ـ إنني أحبها حبًا عنيفًا وأكرهها كرهًا عنيفًا.

فهز لتفينوف كتفيه مرددًا:

ـ هذه عبارة قديمة يا سوزونت ايفانتش. هذه عبارة مبتذلة.

ـ وأي شيء في ذلك؟ أتراه يخيفك؟ عبارة مبتذلة! إنني أعرف كثيرًا من العبارات المبتذلة الرائعة. «النظام والحرية» مثلا. هذه عبارة مبتذلة جد معروفة، فهل تظن أننا لسنا بحاجة إليها مع ما نحن فيه من تحلل من القوانين، ومن استبداد بيروقراطي؟ ألا تجد أن كل العبارات تدير رءوسًا كثيرة شابة، من مثل «البورجوازية العفنة» و«سيادة الشعب» و«حق العمل» ـ ألا تجد أن هذه العبارات أيضًا عبارات مبتذلة؟ أما الحب الذي لا يمكن أن ينفصل عن الكره...

فقاطعه لتفينوف قائلا:

ـ بيرولزم.. رومانتيكية العقد الرابع.

ـ معذرة إذا قلت إنك مخطئ. إن مثل هذه الانفعالات المختلطة قد سبق إلى الإشارة إليها كاتلس ـ الشاعر الرومانسي كاتلس ـ منذ ألفي سنة. وقد قرأت ما كتبه في ذلك، فإني أعرف شيئًا من اللاتينية بفضل دراستي الدينية، أجل، إنني أحب روسيا وأكرهها في وقت واحد. روسيا، بلادي الغريبة الحلوة الكريهة العزيزة! لقد غادرتها منذ قليل لأني بحاجة إلى شيء من الهواء النقي بعد أن جلست عشرين عامًا على كرسي كاتب في إدارة حكومية. لقد غادرت روسيا وإني لأحمد المقام هنا، ولكنني أشعر أني سأعود إليها عما قريب. هذه الأرض طيبة للحدائق، ولكنها لا تصلح لثمارنا البرية.

قال لتفينوف:

ـ أنت تحمد المقام، وأنا أيضًا أحب هذه البلاد، وقد جئت إليها لأتعلم، ولكن ذلك لا يمنعني أن أرى مثل هذه الأشياء...

وأشار إلى فتاتين من بائعات الهوى تسيران وقد أحاطت بهما ثلة من أعضاء نادي الفروسية وهم يحاولون أن يتكلموا الفرنسية بلهجة باريس، وإلى بهو القمار وقد غصَّ بالناس على الرغم من تقدم الليل.

فقاطعه بوتوجين قائلا:

ـ وما أدراك أني لا أرى هذه الأشياء؟ معذرة إذا قلت لك إن ملاحظتك تذكرني بتهليل صحفيينا المساكين أثناء حرب القرم كلما وصفت جريدة التايمس سيئة من سيئات مجلس الحرب الإنجليزي. أنا نفسي لست متفائلا. إن البشرية كلها، وحياتنا كلها، وهذه المهزلة كلها بخواتيمها المحزنة، لا تبدو أمام ناظري في ألوان وردية. ولكن لماذا نلصق بالغرب ما لعله أن يكون متأصلا في طبيعتنا البشرية نفسها؟ إن كان بهو القمار هذا يقذي العين، فهل تراك تجد مقامرينا الوطنيين أحسن منظرًا؟ لا يا عزيزي جريجوري ميهالوفتش. يجب علينا أن نتواضع قليلا، ونتراجع قليلا. إن التلميذ النجيب يرى أخطاء أستاذه ولكنه يلزم الصمت إزاءها لأنه يحترم هذا الأستاذ. وهذه الأخطاء نفسها تنفعه وترشده إلى الطريق السوي، أما إن أبيت إلا أن تسلق الغرب بلسانك، فهذا هو الأمير كوكو يعدو إلى بهو القمار عدوًا، ولعله سيخسر على المائدة الخضراء في ربع ساعة الإيجار الذي انتزعه من مائة وخمسين أسرة شقيت في كسبه. إن أعصابه ثائرة، فقد رأيته اليوم في قهوة ماركس يتصفح رسالة لفايو[1]... ستجده خير مخلوق تتحدث معه!

فأسرع لتفينوف يقول حين رأى يوتوجين ينهض من مكانه:

ـ لا لا معذرة أنا لا أكاد أعرف الأمير كوكو، ثم إني أفضل أن أتحدث معك.

---

(1) ليري فايو (1813 ـ 1883) كاتب وصحفي فرنسي، عرف بتعصبه الشديد للكاثوليكية وعدائه العنيف لكل ألوان التفكير الحر.

فقاطعه بوتوجين وهو ينهض وينحني:

ـ أشكرك كثيرًا. ولكننا تحدثنا طويلا، أعني أنني وحدي في الحقيقة، ولعلك لاحظت من قبل أن المرء يعتريه دائمًا شبه خجل وارتباك حين يجد أنه تكلم وحده، وخصوصًا إذا كان ذلك في مقابلة أولى، فكأنه يريد أن يظهر براعته لصاحبه، إلى لقاء قريب، وأكرر لك أني سعيد بمعرفتك.

ـ لحظة واحدة يا سوزونت إيفانتش، أخبرني على الأقل أين تسكن، وهل تنوي أن تبقى كثيرًا؟

فبدا على بوتوجين شيء من الارتباك:

ـ سأبقى نحو أسبوع في بادن. نستطيع أن نلتقي هنا على كل حال. في قهوة فيبر أو في قهوة ماركس، وقد أزورك.

ـ أريد عنوانك على كل حال.

ـ إنني أعيش وحيدًا.

فسأله لتفينوف بغتة:

ـ أمتزوج أنت؟

ـ لا، معاذ الله من ذلك! ولكن معي بنتًا...

ـ آه!

وكان في نبرة لتفينوف معنى الاعتذار، وفي ملامحه تأدّب مقصود، فمضى بوتوجين يقول:

إن عمرها لا يتجاوز ست سنوات، إنها يتيمة.. ابنة سيدة.. صديقة حميمة لي.. يحسن بنا أن نلتقي هنا، وداعًا.

وكبس قبعته على رأسه الجعد الشعر واختفى سريعًا، ولمح لتفينوف شبحه مرتين تحت فوانيس الطريق المعتم المؤدي إلى طريق لختنتالر.

- 6 -

رجل غريب! يجب أن أبحث عنه!

هذا ما جال بخاطر لتفينوف وهو عائد إلى فندقه، ودخل حجرته فاستوقفت نظره رسالة على المنضدة، فقال في نفسه: «آه! تانيا!» واستخفّه الفرح، ولكن الرسالة كانت من بلده ـ من أبيه. فض لتفينوف الخاتم العائلي السميك، وكاد يبدأ في قراءة الرسالة عندما نبهه شذى قوي ممتع مألوف لديه، ورأى من النافذة طاقة كبيرة من الهليوتروب الغض في كوب ماء، فانحنى عليها بشيء من الدهشة وشمها... وكأنما نبض في ذاكرته شيء سحيق البعد.. ولكن أي شيء هو؟ لم يستطع أن يعرف. فدق الجرس يدعو الخادم، وسأله من أين جاءت هذه الأزهار. فأجابه الرجل إن سيدة أحضرتها وأبت أن تذكر اسمها، وقالت: إن «الهرتسليتنهوف» سيعرفها من هذه الأزهار. وعاد هذا الشيء ينبض في ذاكرة لتفينوف، وسأل الرجل كيف كان شكل السيدة، فأخبره أنها كانت فارعة الطول رائعة الملبس تسدل على وجهها نقابًا. وأضاف: «لعلها كونتة روسية». فسأله لتفينوف:

ـ لماذا تظن ذلك؟

فأجابه الخادم باسمًا عن نواجذه:

ـ لأنها أعطتني جلدين.

وصرف لتفينوف الخادم، وظل واقفًا أمام النافذة وقد غرق في تفكير

عميق، ثم لوح بيده وانصرف ثانية إلى الخطاب الآتي من الريف. كان أبوه يصب عليه شكاواه المعتادة، مؤكدًا له أن القمح قد بار إذ لم يرض أحد أن يأخذه ولو بغير ثمن، وأن الناس قد خرجوا تمامًا عن حدود الطاعة، وأن نهاية العالم ربما كانت وشيكة الوقوع. جاء في رسالته: «أتذكر سائقي الصغير ـ ذلك الفتى الكالموكي؟ لقد أصيب بمسّ من الجنون وأشرف على الموت المحقق، وكدت أصبح بلا سائق لولا لطف الله. فقد أشار عليّ بعض أولي الخير أن أرسل الفتى المريض إلى ريازان حيث يقيم قس مشهور ببراعته في إفساد السحر، فنجع علاجه على قدر الإمكان. وإليك رسالة الأب الطيب تأييدًا لما أقول وتذكارًا لهذا الحادث». وأجال لتفينوف بصره في تلك الوثيقة العجيبة فوجد فيها: «إن الخادم نيكافور ديمتريف قد أصابته علة لا ينفع فيها طب، وكانت هذه العلة من فعل أناس أشرار، ولكنه هو نفسه، أي نيكافور، كان السبب فيها، إذ حنث في وعده لفتاة معينة، فاستعانت بغيرها حتى جعلته لا يصلح لشيء، ولو لم أظهر أنا لمساعدته في هذه الحال لقضي عليه بأن يهلك كما تهلك الديدان، ولكني بإيماني العميق بالعين المطلعة على كل شيء كنت سببًا لامتداد أجله. ولست في حل من البوح بالطريقة التي سلختها لشفائه، ولكني أسأل سعادتكم ألا تعطفوا على هذه الفتاة الماكرة، بل إنه لا ضرر من انتهارها حتى لا تعود إلى إصابته بأذى».

شرد ذهن لتفينوف في هذه الوثيقة، فقد حملت إليه نفحة من الصحراء، من المروج، من الظلمة العمياء التي تخيّم على الحياة المتعفنة هناك. وبدا له غريبًا أن يقرأ مثل هذه الرسالة في بادن دون غيرها من المدن، وكان الليل قد جاوز منتصفه بكثير فأوى إلى فراشه وأطفأ النور. ولكنه لم يستطع نومًا. فقد ظلت الوجوه التي رآها والأحاديث التي سمعها تتوارد عليه وتدور وقد تشابكت واختلطت اختلاطًا غريبًا في رأسه الملتهب المصدع من أدخنة التبغ. فمرة كان يخيل إليه أنه يسمع جوباريوف يهمهم، ويرى عينيه مثبتتين

على أرض الغرفة بتحديقهما البليد العنيد. ثم إذا بهاتين العينين تلمعان وتقفزان وإذا هو يرى وجه مدام زوها نتشيكوف ويسمع صوتها الحاد، فيردد هامسًا من دون وعي: «أجل، أجل، لقد صفعته على وجهه» ثم يمر أمامه وجه بوتوجين المتنافر الملامح، ويسترجع للمرة العشرين كل كلمة قالها. ويقفز فوروشيلوف كعفريت العلبة، في سترته الأنيقة المحبوكة كأنها حلة عسكرية جديدة. ويومئ بشتشالكن ـ بجدّ ورزانة ـ برأسه المشذب الذي لا يفكر إلا في الخير، ويجأر بنداسوف ويقسم ويبكي بمبايف من شدة الطرب.. وفوق كل شيء هذا العطر.. هذا العطر الملح الثقيل لم يترك له راحة، بل أخذ يقوى ويقوى في الظلام، مذكرًا إياه في دأب بشيء ما زال يندّ عن ذاكرته.. وخطر للتفينوف أن رائحة الأزهار في حجرة النوم يمكن أن تضرّه، فنهض وأخذ يتلمس طريقه حتى نقله إلى الغرفة الأخرى. ولكن الشذا ظل ينفذ من هناك إلى وسادته، وتحت ملاءته، وهو يتقلب على جنبيه بألم. وبدأت تستولي عليه أحلام محمومة، فاعترض طريقه مرتين ذلك القس «المشهور ببراعته في إفساد السحر» على هيئة أرنب لعوب له لحية وذيل كذيل الخنزير. وغرد فوروشيلوف أمامه وهو جالس في قبعة جنرال بريشة ضخمة، وكأنه بلبل في شجيرة.. وفجأة قفز من سريره وصاح وهو يضرب يدًا بيد: «أمعقول أنها هي؟.. غير معقول!».

ولكي نوضح صيحة لتفينوف هذه يجب أن نسأل القارئ السمح أن يرجع معنا بضع سنوات إلى الوراء.

- 7 -

في أوائل العقد الخامس كانت أسرة الأمير أوزينين تعيش في موسكو بأفرادها العديدين، في ضيق يقرب من الفقر. وكانوا أمراء روسيين أصلاء من نسل روريك الخلص لا من تتر جورجيا، واسمهم يرد في التواريخ القديمة التي ترجع إلى عهد أمراء موسكو الكبار الأول الذين ضموا أطراف الأراضي الروسية. وقد ملكوا إقطاعات وراثية واسعة، وكوفئوا مرات كثيرة على «بلائهم وحَسَبهم وتضحياتهم»، وجلسوا في مجلس البويار[1]. بل إن أحدهم أبيح له أن يستعمل اسمه كاملا طبقًا لسلسلة النَّسَب. ولكن أعداءهم نسبوا إليهم «استعمال السحر والرقى المؤذية»، فحلت عليهم لعنة الإمبراطورية، ونُكبوا «نكبة مروعة لم يستطيعوا النهوض منها». وجُرِّدوا من رُتَبِهم، ونُفوا إلى جهات نائية. لقد هوى آل أوزينين ثم لم يرتفعوا ثانية. وقد رفعت عنهم اللعنة بعد أزمان، ورُدَّت إليهم ممتلكاتهم المصادرة، وتبؤوا منزلتهم القديمة في موسكو. ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئًا، فقد افتقرت أسرتهم، ونضبت مواردها، ولم تنتعش في عهد بطرس ولا في عهد كاترين، وما زالت تضمحلّ وتنحدر حتى أصبح من بين أعضائها رؤساء خدم في المنازل الكبيرة، ومديرو حانات ومفتشو بوليس.

---

(1) «البويار» لقب كان يطلق منذ أقدم عصور التاريخ الروسي على السادة المقربين من أمراء روسيا، وكانوا أصدقاء الأمير ومستشاريه وقادة حرسه. والأعضاء البارزين في مجلسه الاستشاري، وقد تطوروا حتى أصبحوا طبقة أرستقراطية لها حق امتلاك الأراضي والرقيق.

وكانت الأسرة التي أسلفنا ذكرها زوجًا وزوجة وخمسة أبناء. وكانوا يعيشون قرب «ساحة الكلاب» في منزل خشبي صغير ذي طبقة واحدة، له مدخل منقوش مطل على الشارع، وأسود خضر على البوابات، إلى آخر ما هنالك من شعائر النبل، على الرغم من أنهم كانوا لا يستطيعون تدبير معاشهم إلا بجهد شديد، وكانوا دائمًا مدينين للخضري، وربما أعوزهم الشمع والوقود في الشتاء، وكان الأمير نفسه رجلا غبيًا خاملا، كانت له في شبابه شهرة بالغندرة والأناقة ثم انحدرت به الحال حتى منح وظيفة من وظائف موسكو العتيقة ذات الراتب الصغير والاسم الطنّان، والتي لا عمل فيها على الإطلاق. وكانت هذه المنحة تقديرًا لزوجته ـ التي كانت وصيفة شرف ـ أكثر مما كانت تكريمًا لاسمه.. ولم يكن الأمير يشغل نفسه بشيء، ولم يكن له عمل إلا أن يجلس متدثرًا بمعطفه يدخّن ويزفر بشدة من الصباح إلى المساء. وكانت زوجته امرأة عليلة حادة الطبع، دائمة الاهتمام بتوافه البيت، وبإدخال أولادها إلى المدارس الأميرية، والمحافظة على صلاتها في بطرسبرج، ولم تستطع قط أن تألف حياتها، ولا بُعدها عن البلاط.

كان والد لتفينوف قد عرف آل أوزينين في أثناء إقامته بموسكو، وأتيح له أن يسدي إليهم بعض الخدمات، وأقرضهم مرة ثلاثمائة روبل. وكان ابنه يتردد عليهم وهو طالب، وقد اتفق أن مسكنه لم يكن بعيدًا عن منزلهم. ولكن الذي اجتذبه لم يكن قرب دارهم، ولا خشونة معيشتهم، إنما أخذ يكثر من زيارتهم بعد أن أغرم بابنتهم الكبرى إيرينا.

كانت وقتئذ في السابعة عشر من عمرها، حديثة عهد بالمدرسة الداخلية الارستقراطية التي أخرجتها منها أمها لسخطها على المديرة، وكان منشأ هذا السخط أن إيرينا اختيرت في الحفلة السنوية لتلقي أبياتًا بالفرنسية في تكريم المُراقِب، وقبيل الاحتفال أحلّت محلها فتاة أخرى كان أبوها من كبار مورّدي الخمور، ولم تستطع الأميرة أن تسكت على هذه الإهانة، والحقيقة أن إيرينا نفسها لم تغفر للمديرة قط هذا الظلم، فقد كانت تحلم أنها ستقف

أمام الجميع لتلقي أشعارها، فتتعلق بها الأنظار، ثم تتحدث عنها موسكو.. والحق أنها كانت جديرة أن تتحدث عنها موسكو. فقد كانت فارعة رشيقة، ذات صدر لم يكد يمتلئ، وكتفين ضيقتين لما تستديرا، وبشرة بيضاء مرمرية نادرة في مثل سنها، صافية ملساء كالقاشاني، وشعر أثيث أشقر تتخلله خصل داكنة تمنحه طرافة عجيبة. وكانت قسماتها الرائعة الدقة ـ إلى حد الكمال المفرط ـ لم تكد تفقد سذاجة الصبا، ولكن استدارة جيدها البديع، وابتسامتها الحالمة الشاردة، كانا يحدّثان عن سيدة شابة حادة المزاج، وكان في تقويس هاتين الشفتين اللتين لا تكادان تنفرجان بالابتسام، وفي ذلك الأنف الصغير الأُقنى الأقرب إلى الضيق، شيء من العناد والاندفاع يوشك أن يوردها وغيرها الموارد. وعيناها كانتا رائعتين، ناعستين حالمتين، لوزيتين كعيني آلهة مصرية، رماديتين في خضرة، مقرونتي الحاجبين وكان لتينك العينين تعبير غريب، كأنما تتأملان بانتباه من عمق بعيد مجهول.

وكان المشهور عن إيرينا في المدرسة أنها من أذكى الطالبات وأقدرهنّ، ولكنها متقلبة المزاج مشغوفة بالسلطة متشبثة برأيها، وقد تنبأت لها إحدى مدرّساتها بأن عواطفها ستكون سببًا في شقائها (Vos passions vous Perd Eront) على حين عابتها مدرسة أخرى ببرود الطبع وجمود الإحساس، ووصفتها بأنها «فتاة بلا قلب»، وكانت أترابها يرينها متكبرة منقبضة، وأخوتها يكادون يرهبونها، وأمها لا تثق بها، وأبوها يجزع حين تثبّت عليه نظرتها الغامضة، ولكن أباها وأمها كليهما كانا يشعران نحوها شعورًا غير إرادي بالاحترام، لا لشخصيتها بل لآمال غريبة مبهمة كانت تبعثها في نفسيهما.

قال الأمير الشيخ يومًا وهو يُخْرِجُ غليونه من فمه:

ـ سوف ترين يا براسكوفيا دانيلوفنا أن صغيرتنا إيرينا سترفعنا من هذا الحضيض.

فغضبت الأميرة وقالت لزوجها إن له (des expressions insupportables)[1]، ولكنها أخذت تحلم بكلماته بعد ذلك، وتمتمت بين أسنانها: آه! ليتنا نرتفع حقًا من هذا الحضيض!

وكانت إيرينا في بيت أبويها لا يكاد يحد من حريتها شيء، لم يكونا يدللانها بل لعلهما كانا يتجنبانها شيئًا ما، ولكنهما كانا لا يعترضان سبيلها، ولم تكن تريد غير هذا. وعندما كان يحدث أمر شديد الإذلال، كان يأتي أحد الباعة ويظل يصيح ليسمعه أهل الفناء كله، قائلا إنه مَلَّ المجيء للمطالبة بنقوده، أو يبدأ الخدم أنفسهم يغلظون القول لسادتهم «إنكم أمراء مدهشون حقًا، يمكنكم أن تصفّقوا في طلب العشاء وتذهبوا جياعًا إلى الفراش»... كانت إيرينا تلزم كرسيها من دون أن تحرك ساكنًا، ولكن وجهها العابس تنزلق عليه بسمة شريرة أمرُّ على أبويها من كل تأنيب. كانا يشعران بأنهما مذنبان ـ وإن لم يذنبا ـ نحو هذه الإنسانة التي وهبها مولدها وحده الحق في الثراء والترف والتكريم.

وقد أحب لتفينوف إيرينا من النظرة الأولى. ولم يكن يكبرها إلا بثلاث سنوات، ولكنه لبث مدة طويلة عاجزًا عن الفوز بحبها بل عن جذب انتباهها. وكان في سلوكها نحوه شيء من العداوة، وكأنما أهانها فانطوت على الجرح إلا أنها لم تستطع أن تغفر أبدًا وكان في ذلك الوقت أصغر سنًا وأكثر تواضعًا من أن يفهم ما قد يكمن تحت هذه الفجوة التي تشبه الإزدراء.. وربما نسي محاضراته وواجباته وبقي جالسًا في صالون آل أوزينين الكئيب، يرقب إيرينا خلسة وقلبه يدق دقًا بطيئًا مؤلمًا يكاد يخنقه، فكان يبدو عليها حينذاك شيء كالغضب، فتغادر مجلسها وتتمشى وتنظر إليه نظرات باردة وكأنه منضدة أو كرسي، ثم تهز كتفيها وتشبك ذراعيها. وربما تجنبت النظر إليه أيضًا طوال المساء، حتى عندما يتحادثان، فكأنها

(1) «ألفاظًا لا تحتمل».

تحرمه حتى نعمة النظر!... وربما عمدت إلى كتاب تحدِّق فيه من دون أن تقرأ، وقد زرّت حاجبيها وعضّت على شفتيها، ثم تسأل أباها أو أخاها فجأة بصوت مرتفع: «ما معنى الصبر بالألمانية؟» وحاول أن ينتزع نفسه من الدائرة المسحورة التي كان يضطرب فيها عاجزًا معذَّبًا كطائر في فخ، وغاب عن موسكو أسبوعًا حتى كاد يجن من الشوق والألم. ثم عاد إلى منزل آل أوزينين نحيلا مريضًا.. والعجيب أن إيرينا كانت قد نحلت هي الأخرى نحولا ظاهرًا خلال تلك الأيام، وشحب وجهها وذبل خَدّاها.. ولكنها قابلته بمزيد من البرود وإهمال يكاد ينطوي على البغض، وكأنه نكأ ذلك الجرح الخفي الذي طعنه في كبريائها.. وهكذا عذّبته شهرين. ثم انقلب الحال كله في يوم واحد. اشتعل الحب كالنار، انقضّ عليهما كالصاعقة. كان جالسًا ـ لقد ظل يذكر هذا اليوم سنين ـ في صالون آل أوزينين قرب النافذة، ينظر إلى الشارع ولا يعي، وقلبه يعتلج فيه الغيظ والسأم ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من مكانه.. وفكر أن لو كان يجري تحت النافذة نهر لرمى نفسه فيه برعشة خوف، لكن بغير ندم. وكانت إيرينا جالسة غير بعيدة منه في صمت وسكون غريبين. وكانت قد لبثت أيامًا عدة لا تكلّمه بل لا تكلم أحدًا ما. ظلت جالسة معتمدة برأسها على يدها وكأنها في حيرة، وهي تنظر حولها ببطء بين الفينة والفينة. وأخيرًا أصبح هذا العذاب البارد أعظم مما يستطيع لتفينوف أن يحتمله فنهض، وبدأ يبحث عن قبعته من دون أن يسلِّم. وإذا بصوت رقيق يهمس «ابق».

وخفق قلب لتفينوف ولم يعرف لتوه صوت إيرينا، فقد كانت في تلك الكلمة الواحدة رنة لم تكن فيه من قبل. ورفع رأسه فذهل.. لقد كانت إيرينا تنظر إليه بشغف، أجل بشغف! ورددت قولها: «ابق، لا تذهب، أود أن أكون معك» وأردفت وقد زاد صوتها انخفاضًا: «لا تذهب، إني أريد ذلك». اقترب منها من دون أن يفهم شيئًا، ومد إليها يديه وهو لا يكاد يعي ما يفعل.. فأسلمته يديها، ثم التفتت باسمة وقد أحمر وجهها احمرارًا شديدًا وخرجت

من الحجرة وهي لا تزال تبتسم. وعادت بعد دقائق قليلة مع أختها الصغرى، ونظرت إليه مرة أخرى تلك النظرة الطويلة الحنون وأجلسته بجانبها.. ولم تستطع أول الأمر أن تقول شيئًا، بل ظلت تتنهد ووجهها يحمرّ خجلا، ثم تشجعت فأخذت تسأله عدة مرات أن يصفح عنها لأنها لم تنصفه في ما مضى، وأكدت له أنها قد تغيرت تمامًا، وأدهشته إذ تحمست فجأة للنظام الجمهوري (وكان في ذلك الوقت يعبد روبسبير عبادة، ولا يستبيح لنفسه أن يجاهر بانتقاد). ولم يعرف أنها تحبه إلا بعد أسبوع. نعم، لقد ظل يذكر ذلك اليوم الأول طويلا.. ولكنه لم ينس الأيام التي تلته أيضًا، تلك الأيام التي رأى فيها ـ وهو لا يزال يقهر نفسه على الشك ويذودها عن اليقين ـ رأى فيها بجلاء وفي نشوة من الحبور تكاد تمازجها نشوة الخوف، تلك النعمة التي يئس منها تبعث على الحياة، وتزكو وتجرف كل شيء أمامها حتى تصل إليه. ثم جاءت لحظات الحب الأول ببهجتها وإشراقها. لحظات لا تتكرر في حياة واحدة، ولا ينبغي لها أن تتكرر. أصبحت إيرينا على غير توقّع هادئة كالحمل، ناعمة كالحرير، عطوفًا كل العطف. أخذت تعطي أخوتها الصغار دروسًا في الفرنسية والإنجليزية إلا البيانو فإنها لم تكن موسيقية ـ وكانت تقرأ معهم كتبهم المقرّرة، وتعنى معهم بشئون المنزل. كانت تجد في كل شيء طرافة ومتعة، وكانت إما تثرثر بلا انقطاع وإما تسبح في حنان صامت. وكانت تفكر في شتى الخطط، وتهيم في الحلم، بما سوف تعمله عندما تتزوج لتفينوف (لم يرتابا قط في أن زواجهما سيتم يومًا)، وكيف أنهما معًا سوف.. فيقول لتفينوف مسرعًا: «نعمل؟» فتردد إيرينا: «أجل نعمل، ونقرأ، ولكن السفر أولاً». كانت شديدة الرغبة في أن تغادر موسكو بأسرع ما يمكن. وعندما كان لتفينوف يذكّرها بأنه لم يتم دراسته في الجامعة بعد، كانت تجيبه دائمًا بعد تفكير قصير: إنه من الممكن جدًا أن يتم دراسته في برلين أو... في مكان ما. وكانت إيرينا قليلة التحفّظ في التعبير عن مشاعرها، فلم تخف علاقتها بلتفينوف على الأمير والأميرة، اللذين وإن لم يفرحا ـ فإنهما حين قدّرا جميع الظروف لم يجدا ضرورة لرفضها، فقد كانت ثروة لتفينوف جسيمة.

ـ ولكن أسرته! أسرته.

هكذا كانت تحتجّ الأميرة فيجيبها الأمير: «نعم، أسرته بالطبع ولكنه من النبلاء على كل حال. وأهم ما في الأمر أن إيرينا لن تصغي إلينا كما تعلمين، ومتى لم تعمل كما تهوى؟!

Vous connaissez sa violence [1] وبعد فلم يتحدد شيء.. هكذا كان الأمير يجادل، ولكنه كان يتابع في سره: «مدام لتفينوف ـ أهذا كل شيء؟ لقد كنت أتوقع شيئًا آخر». وقد سيطرت إيرينا على خطيب المستقبل سيطرة تامة، والحق أنه هو نفسه انقاد لها راضيًا وكأنه سقط في دوامة، ولم يعد يملك نفسه..

كان ذلك رهيبًا وحلوًا، لم يكن ثمة ما يندم عليه، ولم يكن ثمة ما يضن به. لم يستطع أن يفكر في معنى الزواج ومسئولياته، أو يقرر هل يستطيع رجل خاضع كل هذا الخضوع أن يكون زوجًا صالحًا، وأي طراز من الزوجات سوف تصبح إيرينا، وهل يقف كل منهما في الموضع الذي ينبغي أن يقفه من صاحبه؟ كان أسير هواه، كل ما يعلمه أنه يحب أن يتبعها، أن يكون معها ـ هكذا دائمًا ـ وليكن ما يكون!

ولكنه، وإن لم يبد مقاومة، وإن فاضت إيرينا حنانًا دافقًا، فإن علاقتهما لم تخلُ من سوء تفاهم ونزاع. فذات يوم ذهب إليها توًا بعد خروجه من الجامعة وعليه سترة بالية، ويداه ملطختان بالحبر، وأسرعت لتلقاه بترحابها المألوف، وإذا بها توقف فجأة وتقول بغير تمهيد:

ـ أين قفازك؟.. ثم أضافت مسرعة: يا للخجل! إنك لا تختلف عن أي طالب!

فقال لتفينوف:

---

(1) «أنت تعرفين استبدادها».

ـ أنت تسرفين يا إيرينا..

فكررت:

ـ إنك لا تختلف عن أي طالب[1] Vous n'ête pas distingué وأولته ظهرها وخرجت من الحجرة.. إلا أنها استغفرته بعد ساعة. وكانت سريعًا ما تندم وتسأله أن يسامحها، ولكن العجيب أنها كثيرًا ما كانت تتهم نفسها بشرور لا أصل لها إلا في خيالها، وتنكر بعناد نقائصها الحقيقية، ومرة أخرى وجدها تبكي، ورأسها بين يديها وشعرها مشعث، وعندما سألها في اضطراب عن سبب حزنها، أشارت بأصبعها إلى صدرها ولم تتكلم، فلمعت في ذهنه كلمة «السل!» وأمسك بيدها، وغمغم بصوت مرتعش:

ـ أأنت مريضة يا إيرينا؟ (وكانا قد اعتادا أن ينادي الواحد منهما الآخر باسمه الأول في المناسبات الكبرى) سأذهب حالا لأحضر الطبيب.

ولكن إيرينا لم تدعه يكمل، بل دقت الأرض بقدمها في غيظ:

ـ إنني بصحة تامة.. ولكن هذا الثوب.. ألا تفهم؟

فردد في حيرة:

ـ ماذا؟ هذا الثوب؟..

ـ ماذا؟ ماذا؟ أنا لا أملك غيره، وهو قديم كريه! ولابد لي أن ألبسه كل يوم.. حتى عندما تأتي أنت يا جريشا ـ يا جريجوري ـ إلى هنا... ستزهد في حبي أخيرًا حين تجدني بهذه الرثاثة!

ـ يالله! ماذا تقولين يا إيرينا؟ إن هذا الثوب جميل جدًا.. وهو عزيز أيضًا لأني رأيتك فيه أول مرة يا حبيبتي..

فاحمر وجهها خجلا:

---

(1) «أنت غير أنيق».

ـ أرجوك لا تذكرني يا جريجوري ميهالوفتش بأني لم يكن لدى ثوب غيره حتى في ذلك الحين.

ـ ولكني أؤكد لك يا إيرينا بافلوفنا أنه جميل عليك جدًا!

ـ لا، إنه كريه، كريه.. وألحّت في قولها وهي تشد خصلات شعرها الطويلة الناعمة بعصبية ـ أف! هذا الفقر! هذا الفقر وهذه القذارة! كيف يهرب الإنسان منه؟ كيف ينجو الإنسان من هذا المستنقع؟

ولم يدر لتفينوف ماذا يقول، وتحوّل عنها قليلا.

وفجأة وثبت إيرينا من مقعدها، ووضعت كلتا يديها على كتفيه، وتمتمت وهي تقرب وجهها منه، وعيناها اللتان ما زالتا مليئتين بالدموع تلمعان بنور السعادة:

ـ ولكنك تحبني يا جريشا؟ أنت تحبني؟ أنت تحبني أيها العزيز حتى في هذا الثوب الكريه؟..

فركع لتفينوف عند قدميها، فهمست وهي تنحني عليه:

ـ آه أحبني يا جميلي! يا منقذي!

وهكذا كانت الأيام تعدو، والأسابيع تمر، ولم يُعْلَن شيء رسمي، وظل لتفينوف يؤجل طلب يدها، ولم تكن تلك رغبته طبعًا، ولكنه كان ينتظر ما تشير به إيرينا (فقد كانت تلاحظ أحيانًا أنهما كليهما صغيران إلى درجة مضحكة، وأنهما يجب أن يزيدا على الأقل بضعة أسابيع على سنّيهما) إلا أن كل شيء كان يتجه إلى خاتمة، وكان المستقبل في اقترابه يزداد وضوحًا وتحددًا، عندما حدث فجأة حادث بعثر كل أحلامهما وخططهما كأنها غبار الطريق.

- 8 -

في ذلك الشتاء زار البلاط موسكو، وتتابعت الاحتفالات تترى، حتى جاء دور الحفلة الراقصة التقليدية الكبرى في بهو النبلاء. ووصل نبأ تلك الحفلة إلى المنزل الصغير في ساحة الكلاب وإن لم يصل إلا عن طريق إعلان في «الجريدة الرسمية». وكان الأمير أول من أثاره النبأ، فقرر على الفور أنهما يجب أن يذهبا ومعهما إيرينا، وأن من الإثم ألا ينتهز هذه الفرصة لرؤية مليكيهما وأن هذا ليس إلا نوعًا من الواجب على أبناء الأسر العريقة. ودافع عن رأيه في حرارة ظاهرة غير مألوفة منه، ووافقته الأميرة إلى حد ما، ولم يكن ضجرها إلا حسرة على ما يقتضيه ذلك من نفقات، ولكن إيرينا أظهرت معارضة شديدة، وأجابت على كل حجج والديها بأن «لا ضرورة للذهاب، وأنها لن تذهب» وبلغ عنادها حدًا جعل الأمير يقرر آخر الأمر أن يرجو لتفينوف ليحاول هو إقناعها، بأن يذكرها ـ بين ما يسوقه من الأسباب ـ أنه لا يحسن بفتاة صغيرة أن تتجنب المجتمع، وأنها ينبغي أن «تمرّ بهذه التجربة» وأن أحدًا لم يرها قط في أي مكان ـ وكان هذا صحيحًا ـ وأخذ لتفينوف على نفسه أن يعرض عليها «الحيثيات» فنظرت إليه إيرينا نظرة ثابتة فاحصة جعلته يرتبك ثم قالت بهدوء وهي تعبث بطرفي زنارها:

ـ أتريد أنت ذلك؟

فأجاب لتفينوف مترددًا:

ـ نعم، أظن هذا. إني أوافق أباك.. حقًا لماذا لا تذهبين؟ وضحك ضحكة قصيرة وأضاف: لتري الناس ويروك.. فكررت ببطء:

ـ يروني؟ حسن جدًا.. سأذهب إذن.. ولكن تذكر أنك أنت الذي أردت ذلك.

ـ إنني..

ـ إنك أنت الذي أردت ذلك. وهاك شرطًا أخر: يجب أن تعدني بألا تحضر هذه الحفلة.

ـ لماذا؟

ـ إني أرغب في ذلك.

فرفع لتفينوف يديه:

ـ سمعًا وطاعة.. ولكني اعترف بأني كنت أود أن استمتع برؤيتك في كامل بهائك وملاحظة الإعجاب الذي لا بد أنك ستثيرينه.

وأضاف وهو يتنهد:

ـ وإذن كم كنت أفخر بك..

فابتسمت إيرينا:

ـ إن كامل البهاء لن يكون إلا ثوبًا أبيض. أما الإعجاب.. حسنًا، لا أريد أن تكون هناك على كل حال.

ـ إيرينا أيتها الحبيبة، كأنك غاضبة!

فابتسمت ثانية:

ـ أوه، لا، لست غاضبة ولكن يا جريشا (وثبتت عينيها عليه، وظن أنه لم ير قط مثل هذا التعبير فيهما، وأضافت هامسة).. لعله لا بد أن يكون..

ـ ولكنك تحبينني يا إيرينا يا عزيزتي؟

فأجابت في جد يوشك أن يكون حزينًا، وشدت على يده بقوة كأنها رجل:

ـ إني أحبك!

وظلت إيرينا طيلة الأيام التالية منصرفة إلى ثوبها وتزيين شعرها. وفي اليوم السابق للحفلة أحسّت بوعكة، ولم تستطع أن تستقر وانفجرت بالبكاء مرتين في وحدتها، أما أمام لتفينوف فقد تكلّفت تلك الابتسامة التي لا تتغير. لم يتبدل حنانها المعهود، ولكنها كانت شاردة اللبّ، دائمة النظر إلى نفسها في المرآة. وفي يوم الحفلة ظلت صامتة شاحبة، ولكنها كانت مالكة زمام نفسها. وجاء لتفينوف في الساعة التاسعة مساء ليراها، فلما أتت لتقابله في ثوب من حرير أبيض، وفي شعرها المرفوع قليلا عنقود أزهار صغيرة زرقاء، كادت تبدر منه صيحة، فقد بدت أجمل وأروع من سنّها كثيرًا، وقال في نفسه: «أجل، إنها كبرت منذ الصباح! وكم تبدو شامخة! هذا ما تصنعه الوراثة!» ووقفت إيرينا أمامه، ويداها مسترخيتان، لا تبتسم ولا تتصنع، وهي تنظر في ثبات يشبه التحدي، لا إليه بل إلى الفضاء البعيد أمامها.

قال لتفينوف أخيرًا:

ـ لكأنك أميرة في كتاب قصص، أنت تشبهين محاربًا قبل المعركة، قبل النصر.. واستمر في قوله وهي لا تزال واقفة بغير حراك، وكأنها تصغي.. لا إليه بل إلى صوت أخر في أعماق نفسها: إنك لم تسمحي لي بأن اذهب إلى هذه الحفلة، ولكن لعلك تقبلين هذه الأزهار وتأخذينها معك؟

وأهدى إليها باقة من الهيلوتروب فلحظته لحظًا سريعًا، وأمسكت فجأة طرف العنقود الذي كان يزين شعرها، وقالت:

ـ أتريدني أن أبقى؟ قلها فأمزّق هذا كله وأبقى في المنزل! وخيل إلى لتفينوف أن قلبه ينشقّ، وكانت يد إيرينا قد سبقت إلى انتزاع العنقود.

فبادر يقول مسرعا في فيض من الكرم والسماحة:

ـ لا لا لماذا؟ أنا لست أنانيًا.. لماذا أحبس حريتك، في حين أعلم أن قلبك...

فقالت مسرعة:

ـ حسنًا، لا تقترب مني وإلا كسرت ثوبي.

واضطرب لتفينوف وسأل:

ـ ولكنك ستأخذين الزهور؟

ـ طبعا، إنها جميلة جدا، وأنا أحب هذه الرائحة، شكرًا سأحفظها ذكرى..

ـ فحفلتك الأولى، لانتصارك الأول.

ونظرت إيرينا من فوق كتفها إلى نفسها في المرآة، وهي تثني قوامها.

ـ وهل أبدو جميلة حقا؟ ألا تغالي؟

فأفاض لتفينوف في الثناء الحار بينما كانت إيرينا غير منصتة إليه، وقد قربت الأزهار من وجهها وجعلت تنظر مرة أخرى إلى الفضاء البعيد بعينين غريبتين كأنما زادتا دكنة وسعة، وارتفع شريطاها الرقيقان خلفها قليلا وقد حركهما تيار خفيف من الهواء فكانا أشبه بجناحين.

وظهر الأمير في رباط عنق أبيض وسترة سهرة سوداء باهتة، وقد صفّف شعره ووضع وسام النبالة على شريط فلاديمير في عروة سترته، وجاءت الأميرة بعده في فستان حرير صيني عتيق الطراز، وبتلك الصرامة القلقة التي تحاول الأمهات أن تخفين بها اضطرابهن، أصلحت هيئة ابنتها من خلف، بأن هزت ثنيات ثوبها دونما ضرورة، وزحفت عربة أجرة مقفلة عتيقة بأربعة مقاعد، يجرها حصانان هرمان أشعثان، إلى مدخل الدار، على الأكوام المتجمدة من الثلج المتراكم. وأطل من باب الصالون سائس عجوز في حلة

غريبة الشكل، وأعلن بنوع من المخاطرة أن العربة مُعَدّة... وبعد أن استودع الأميران الله أبناءهما الباقين في المنزل إلى الصباح، لبسا معطفيهما وخرجا إلى الدرج، وتبعتهما إيرينا وقد التفّت بحرملة شديدة الرقة شديدة القصر ـ كم كرهت هذه الحرملة الصغيرة في تلك اللحظة! ـ وصحبها لتفينوف إلى الخارج طامعًا في نظرة أخيرة من إيرينا، ولكنها جلست في مقعدها من العربة بغير أن تلتفت.

حوالي منتصف الليل سار تحت نوافذ بهو النبلاء، وكانت أضواء لا تحصى من شمعدانات ضخمة تبدو من خلال الستائر الحمراء أشبه بوشي معدنيّ لامع، وأنغام فالس لشتراوس تطير مرحة فاضحة متحدّية فوق الميدان الذي ازدحم بالعربات.

وفي الساعة الواحدة من اليوم التالي ذهب لتفينوف إلى منزل آل أوزينين، فلم يجد في المنزل أحدًا سوى الأمير، الذي أخبره على الفور بأن إيرينا أصابها صداع واعتكفت في سريرها، وأنها لن تغادره حتى المساء، لكن مثل هذه الوعكة غير مستغربة بعد أول مرة تذهب فيها الفتاة إلى حفلة راقصة، ودهش لتفينوف حين أردف الأمير بالفرنسية:

(1) C'est trés naturel, vous savez, chez les jeunes filles

ولاحظ في الوقت نفسه أنه لا يرتدي ثوب المنزل كعادته، بل يلبس سترة رسمية وأضاف الأمير:

– ثم إنها كانت مضطربة قليلا بعد أحداث البارحة!

فتمتم لتفينوف:

ـ أحداث؟

---

(1) «هذا طبيعي جدًا عند الفتيات كما تعلم».

ـ أجل، أجل، أحداث des vrais événenment إنك لا تستطيع أن تتخيل يا جريجوري ميهالوفتش quel suceés elle a eu [1] لقد استرعت أنظار البلاط كله! وقال الأمير ألكسندر فيدوروفتش إن مكانها ليس هنا، وأنها تذكّره بالكونتة ديفنشير[2]: أنت تعرف.. هذه... السيدة المشهورة.. وأعلن بلازنكراميف العجوز على مسمع من الجميع أن إيرينا هي ملكة الحفلة، ورغب أن يُقَدَّمَ إليها، وقدّم نفسه إليّ. أعني قال لي أنه يذكرني عندما كنت في سلاح الفرسان، وسألني: ماذا تعمل الآن؟.. إنه ظريف جدًا ذلك الكونت.. يا له من[3]! adonateur du beau sexe ولم يكتفوا بي.. زوجتي أيضًا لم يتركوها في حالها ـ لقد تحدثت معها نتاليا نيكتشا نفسها.. هل كنا نطمع في أكثر من ذلك؟ لقد رقصت إيرينا[4]! avec tous les meilleurs cavaliers كانوا يحضرونهم إليّ باستمرار. لم أستطع في الحقيقة أن اذكر عددهم، أتصدّق؟ لقد كانوا جميعا يتزاحمون حولها وأرادوا كلهم أن يرقصوا معها المازوركا. وعندما سمع أحد الدبلوماسيين الأجانب أنها فتاة من موسكو قال للقيصر: Sire, dé Moscou qui ést le centre de votre empire[5] cide ment c'est وأضاف دبلوماسي آخر[6] C'est une vrais revolution, sire لعله قال:[7] révélation أو [8] revolution. شيئًا هكذا. أجل. أجل. لقد كانت.. لقد كانت فوق التصور!

---

(1) «أي نجاح نالته».

(2) دوقة ديفونشير (1757 ـ 1806) إنجليزية كانت من أجمل وأذكى نساء عصرها وكان لها جيش من المعجبين وصالون يتردد عليه مشاهير العصر، وكانت تقول الشعر وتشتغل بالسياسة.

(3) «عابد للجنس اللطيف».

(4) «مع كل الفرسان البارزين».

(5) (مولاي لا شك أن موسكو هي قلب إمبراطوريتكم!».

(6) «هذه ثورة حقًا يا مولاي!»

(7) إلهام.

(8) ثورة.

سأل لتفينوف وقد سرت برودة في يديه وقدميه لمسمع حديث الأمير:

حسنًا وإيرينا بافلوفنا نفسها؟ هل استمتعت بالحفلة؟ هل كان يبدو عليها السرور؟

طبعًا استمتعت بالحفلة. السرور؟! لا بد أنها كانت مسرورة! ولكنك تعرفها.. لا يمكنك أن تعرف دخيلة نفسها! لقد كان كل إنسان يقول لي البارحة هذا عجيب Jamais on ne dirait que.

[1] mademoiselle votre fille est á son premier bal

الكونت ريزنباخ مثلا.. أظنك تعرفه؟

ـ لا، لا أعرفه مطلقًا، ولم أره في حياتي.

ـ من أقرباء زوجتي.

ـ إني لا أعرفه.

ـ رجل ثري من أمناء القصر يعيش في بطرسبرج في ذروة السلطان وهو الحاكم بأمره في ليفونيا، لم يكن يهتم بنا قبل اليوم.. ولكن لا تظن أني حانق عليه لهذا[2] j'ai l'humeur facile, comme vous savez حسنًا هذا الرجل جلس بجانب إيرينا وكلَّمها ربع ساعة لا أكثر، وبعد ذلك قال لأميرتي: [3] ma cousine, votre fille est une perle, c'est une perfection «إن كل امرئ يهنأ بقرابتها...» وبعد ذلك رأيته يذهب إلى... إلى شخصية عظيمة جدًا، ويكلمه وهو ينظر إلى إيرينا.. وكان الآخر ينظر إليها أيضًا..

---

(1) «من يقول أن هذه أول حفلة راقصة تذهب إليها الآنسة كريمتكم!».

(2) «إنني طيب القلب كما تعلم»:

(3) «يا عزيزتي! إن ابنتك جوهرة غالية، إنها تحفة».

فسأل لتفينوف مرة أخرى:

وإذن فلن تظهر إيرينا بافلوفنا طول اليوم؟

بالضبط، فهي تعاني صداعًا شديدًا، وقد سألتني أن أبلغك تحيتها، وأن أشكرك على أزهارك، qu'on a trouvé charmants [1] إنها بحاجة إلى الراحة..

وتنحنح الأمير، وأخذ يتململ في مجلسه كأنه لا يدري ماذا يقول بعد الذي قاله. فتناول لتفينوف قبعته وخرج، قائلا: إنه لا يريد إزعاج الأمير، وأنه سيأتي مرة أخرى ليسأل عن صحة إيرينا.

وعلى مسيرة خطوات من منزل آل أوزينين رأى عربة أنيقة ذات مقعدين واقفة أمام كشك رجل الشرطة. وكان سائس في حلة أنيقة أيضًا ينحني بتراخ ويسأل الشرطي الفنلندي عن مسكن الأمير بافل فاسيليفتش أوزينين. ورمق لتفينوف العربة التي كان يجلس بدخلها رجل متوسط العمر، مترهل الجلد، ذو وجه مغضّن شامخ وأنف مقوس وفم قاس، متدثر بفراء ثمين، تدل جميع المظاهر على أنه حقًا رجل عظيم جدًا.

---

(1) «التي لقيت الاستحسان».

- 9 -

لم يفِ لتفينوف بوعده أن يعود في ما بعد، فقد فكَّر أن يؤجل زيارته إلى اليوم التالي. وعندما ذهب في الساعة الثانية عشر إلى الصالون المألوف وجد هناك الأميرتين الصغيرتين فكتورنكا وكليوباترنكا فحياهما، وسأل: هل تحسنت حال إيرينا بافلوفنا وهل يستطيع أن يراها؟

فأجابته فكتورنكا، وكانت على الرغم من لثغتها أسرع جوابًا من أختها:

ـ إيرينكوتشكا ذهبت مع مامي.

فردد لتفينوف:

ـ ذهبت؟ كيف؟ وأحس في قرارة قلبه بشبه رعشة حبيسة ـ أليست.. أليست تعطيكما دروسًا في مثل هذا الوقت؟

فأجابت فكتورنكا:

ـ إيرينوتشكا لن تدرِّسنا بعد الآن.

وكررت كليوباترنكا بعدها:

ـ لن تدرس لنا بعد الآن.

فسأل لتفينوف:

ـ هل بابا في المنزل؟

فمضت فكتورنكا تقول:

- بابا ليس في المنزل، وإيرنيوتشكا مريضة، طوال الليل كانت تبكي، تبكي...

تبكي؟

- نعم تبكي، هكذا أخبرني يجوروفنا، وعيناها حمراوان جدًا، إنهما ملـ... ملـ تهبتان جدًا.

ومشى لتفينوف في الغرفة جيئة وذهابًا مرتين، وهو يرتجف كأنما أصابه برد، ثم عاد إلى منزله، وخالجه إحساس كذلك الذي يتملك الناظر من برج عال. تهافت كل شيء في باطنه، واستولى عليه دوار بطئ ممرض، حيرة خرساء، وأفكار تركض كالفئران، وفزع مبهم، وتوقُّعُ مشلّ، ودهشة غريبة توشك أن تكون وحشية. وفي حلقه مرارة الدموع المحتبسة، وعلى شفتيه بسمة فارغة مغتصبة. ثم دعاء ضارع بغير معنى، لغير أحد.. آه، ما أقسى وما أذلّ وما أفظع! «إيرينا لا تريد أن تراني» ـ كانت هذه هي الفكرة التي ظلت تدور في رأسه. «هذا واضح. ولكن ما سبب ذلك؟ ليت شعري ماذا حدث في تلك الحفلة المشئومة؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول فجأة.. فجأة هكذا؟» إن الناس يرون الموت يأتي دائمًا فجأة ولكنهم لا يمكن أن يألفوا مفاجأته. بل يجدون هذه المفاجأة شيئًا لا يقبله العقل. «إنها لم تكتب إليّ. لم تفسِّر لي شيئًا!».

وسمع لتفينوف صوتًا مرتفعًا يناديه بالقرب من أذنه: «جريجوري ميهالتش» فانتفض، ورأى أمامه الخادم وفي يده ورقة. وتبين فيها خط إيرينا. وأحس قبل أن يفضّ الخاتم بالويل المُحدِق، وثنى رأسه على صدره وحدّب كتفيه كأنه يتقي الضربة النازلة.

ثم استجمع شجاعته أخيرًا، وفض الغلاف، فوجد على قصاصة صغيرة من الورق هذه الأسطر:

«سامحني يا جريجوري ميهالتش. لقد انتهى كل شيء بيننا. سأذهب لأعيش في بطرسبرج. إنني شديدة التعاسة ـ ولكن المسألة كلها مقررة الآن. يبدو أن هذا هو القدر المكتوب عليّ.. ولكن لا، أنا لا أريد أن أبرئ نفسي، لقد تحققت مخاوفي. سامحني وانسني. إنني غير جديرة بك. كن كريمًا ولا تحاول أن تراني». إيرينا.

قرأ لتفينوف هذه الأسطر وتهافت على الأريكة كأن أحدًا صكّ صدره. وسقطت منه الورقة وقرأها مرة أخرى، وتمتم: «في بطرسبرج» ثم سقطت منه ثانية وانتهى الأمر. بل هبط عليه شعور بالسلام. بل إنه سوى بيديه المنطرحتين خلفه الوسادة التي تحت رأسه. وقال في نفسه: «من يطعن طعنة الموت لا يترنَّح. كما جاءت ذهبت. كل هذا طبيعي. لقد كنت أتوقعه دائمًا (كان يكذب على نفسه، فهو لم يتوقع قط شيئًا كهذا). تبكي؟.. ! هي كانت تبكي؟.. علام؟ إنها لم تكن تحبني! ولكن هذا كله مفهوم، متفق مع شخصيتها.. هي ـ هي غير جديرة بي.. أجل أجل (وضحك بمرارة) إنها لم تكن تعلم القوة الكامنة في نفسها، ولكنها تبينت تأثيرها في الحفلة، فهل يعقل أن تبقى مع طالب متواضع؟.. كل هذا طبيعي». ولكنه لم يلبث أن تذكر ألفاظها الرقيقة، وتلك البسمة وتلك العينين، العينين اللتان لن ينساهما، العينين اللتين لن يراهما أبدًا، العينين اللتين كانتا تسطعان وتذوبان كلما قابلتا عينيه! وتذكر قبلة واحدة سريعة وجلّة مشتعلة.. وإذا هو ينتحب، ينتحب انتحابًا متشنجًا عنيفًا حانقًا. ثم انقلب على وجهه يكاد يخنقه انفعاله المجنون، كأنه يود لو يمزِّق نفسه وكل من حوله أربًا، ودسَّ وجهه المحرور في وسادة الأريكة وراح يعضها بأسنانه.

يا حسرتاه! إن السيد الذي رآه لتفينوف بالأمس في العربة لم يكن إلا قريب الأميرة أوزينين، أمين القصر الكونت ريزنباخ، فإن الكونت لما رأى الإعجاب العظيم الذي أثارته إيرينا في شخصيات عليا، فكر لساعته في

المزايا التي يمكن الظفر بها من ذلك[1] mit etwas akkuratesse. وكان رجلا سريع التصرف يعرف من أين تؤكل الكتف. فوضع خطته من فوره، وصمم على أن يعمل عملا نابليونيًا خاطفًا. قال لنفسه: «سأخذ هذه الفتاة النادرة إلى منزلي في بطرسبرج، يا للشيطان! سأجعلها وريثتي، بل وريثتي الوحيدة، فليس لي ولد، إنها قريبتي، وقرينتي الكونتة تعيش في وحدة مملة.. الأفضل على كل حال أن يكون في صالون المرء وجه جميل. نعم، نعم.. هذا هو الصواب[2] Est ist eine ldee, Est ist eine ldee. المهم أن ينبهر الأبوان ويذهلان فيسلِّما أمرهما. وتابع الكونت تفكيره وهو في العربة في طريقه إلى ساحة الكلاب: «إنهما يعيشان عيش الكفاف، وما أظنهما يتشددان. ثم إنهما من طراز لا يمتاز بحنانه المفرط. ويمكنني أن أعطيهم في الصفقة مقدارًا من المال. وهي؟ إنها ستوافق.. الشَّهد حلو، وقد ذاقت طعمه في الليلة الماضية. لعلها نزوة مني، فليستغلوها.. هؤلاء الحمقى! سأدخل عليهم من كل باب.. ويجب أن تقرروا، وإلا فإنني أتبنى فتاة أخرى ـ يتيمة ـ لعل هذا أفضل، نعم أو لا. ولكم أربع وعشرين ساعة لتفكروا und damit punctum[3].

وقابل الكونت الأمير وهذه الكلمات نفسها على شفتيه، وكان قد أعلمه بزيارته في الليلة الماضية أثناء الحفلة، ونحن في غنى عن إطالة القول في نتائج هذه الزيارة.

فإن الكونت لم يكن مخطئًا في تنبؤه، وقد كان الأمير والأميرة حقًا غير عنيدين، وقبلا مبلغًا من المال، ووافقت إيرينا قبل أن تنتهي الأربع والعشرون ساعة، ولم يكن يسيرًا عليها أن تقطع ما بينها وبين لتفينوف، فقد كانت تحبه، وبعد أن أرسلت إليه كلماتها كادت تمرض، ولزمت فراشها

---

(1) «بشيء من المهارة» - بالألمانية.

(2) «إنها فكرة! فكرة!».

(3) «ولا كلام بعد ذلك».

معظم الوقت وظلت تبكي، ونحلت وشحبت، ورغم هذا كله فقد رافقتها الأميرة بعد شهر إلى بطرسبرج، واستودعتها منزل الكونت، وسلّمتا إلى عناية الكونتة، وهي امرأة في غاية الطيبة، ولكن لها مخّ دجاجة، وشكل دجاجة أيضًا.

وانقطع لتفينوف عن الجامعة، وعاد إلى أبيه في الريف. وأخذ جرحه يندمل رويدًا رويدا، ولم تكن تصل إليه أنباء عن إيرينا في أول الأمر، وكان في الحقيقة يتحاشى كل حديث عن بطرسبرج ومجتمع بطرسبرج، ثم أخذت تنتشر حولها الإشاعات ـ إشاعات لا نقول إنها فاضحة ولكنها غريبة على كل حال، واشتغلت الألسن بالحديث عنها، وبات اسم الأميرة أوزينين الشابة يتردد بكثرة متزايدة في مجتمعات الأقاليم، حيث كان يُنطَقُ بشغف واحترام وحسد، وقد أحاطت به هالة غريبة من المجد، كما كان اسم الأميرة فوروتنسكي في يوم من الأيام. وأخيرًا جاء نبأ زواجها. ولكن لتفينوف لم يكد يهتم بهذا النبأ الأخير، إذ كانت خطبته لتاتيانا قد تمّت.

والآن يستطيع القارئ بلا شك أن يفهم بسهولة وعلى وجه الدقة ما تذكره لتفينوف حين صاح: «أيمكن أن تكون هي؟».

إلى بادن إذن لنصل ما انقطع من قصتنا!

- 10 -

نام لتفينوف متأخرًا، ولم تطل نومته، فحين استيقظ كانت الشمس في أوّل إشراقتها، وكانت قمم الجبال السود التي تبدو من نوافذ حجرته ترتسم وردية باهتة على صفحة السماء الصافية. فقال في نفسه: «لا شك أن الجو لطيف هناك تحت الأشجار». ولبس على عجل، ونظر بلا اهتمام إلى الباقة التي ازدادت تفتحًا أثناء الليل، ثم تناول عصا وبدأ السير قاصدًا إلى «القلعة القديمة» على «الجبال» الشهيرة. واحتواه الصباح في أحضانه اللطيفة المنشطة، وتنفس أنفاسًا طويلة، وأخذ يخطو بحماسة وكل عرْقٍ من عروقه ينتزي بقوة الشباب، وكأن الأرض نفسها تميد تحت خطواته الخفيفة. وكانت كل خطوة تزيده مرحًا وسعادة وسار في الظل المطلول على حصباء الدروب الصغيرة، بجانب أشجار الشربين التي زهت أطراف أغصانها ببراعم الربيع الناشئة. وظل يكرر لنفسه: «ما أبدع وما أروع!» وفجأة سمع نبرات مألوفة، ونظر أمامه فرأى فوروشيلوف وبمبايف قادمَيْن نحوه. فأزعجه مرآهما، وابتعد مسرعاً كتلميذ صغير يتحاشى رؤية معلمه، واختبأ خلف شجيرة.. ودعا في سره: «اللهم برحمتك ابعد عني بني وطني!» وهان عليه أن يدفع أي مقدار من المال ولا يرياه.. وكان الله رحيمًا به فمر مواطناه من دون أن ينتبها إليه. وكان فوروشيلوف يحاضر بمبايف بصوته الصبياني المُعْجَب بنفسه عن «الأطوار» المختلفة لفن العمارة القوطية، وبمبايف يكتفي بأن يهمهم مستحسنًا، وكان واضحًا أن فوروشيلوف قد أمتعه طويلا

بالحديث عن هذه الأطوار، حتى بدأ المتحمّس الطيب القلب يشعر بالملل. وأنصت لتفينوف لحظات طويلة إلى وقع خطاهما المبتعدة، وقد زمّ شفتيه ومَدَّ عنقه. وظلت الأنغام الحلقية والأنفية من محاضرة فوروشيلوف تصل إلى أذنيه مدة، ولكن السكون عاد فشمل كل شيء. وتنهد لتفينوف مرتاحًا، وغادر مخبأه، وواصل المشي.

ظل يتجوّل بين الجبال ثلاث ساعات. وكان يبتعد عن الدرب أحيانًا ويثب من صخرة إلى صخرة، منزلقًا بين الحين والحين على الطحلب الناعم، أو يجلس على نتوء من الجبل تحت سنديانة أو زانة، ويسبح في خيالات لذيذة، على خرير الجداول التي حنى عليها نبات السرخس، وحفيف الأوراق اللطيف، وأنغام ضحلة يصدرها شحرور وحيد. وأخذ يتسلل إليه نعاس خفيف لذيذ، وكأنه يقترب منه ملاطفًا، ثم غلبه النوم.. ولكنه ابتسم فجأة ونظر حواليه، فداعبت عينيه ذهب الغابة وخضرتها وأوراق الشجر المتحركة، فأغمضهما ثانية وهو لا يزال يبتسم، وأخيرًا شعر بالرغبة في الإفطار، فقصد إلى القلعة القديمة حيث يستطيع ببضع «كرويتزرات» أن يحصل على كوب من اللبن الجيد والقهوة. ولكنه لم يكد يستقر على إحدى الموائد البيضاء الصغيرة في الشرفة أمام القلعة حتى سمع وقع حوافر جياد، وأقبلت ثلاث عربات مكشوفة، نزلت منها جماعة كبيرة من السيدات والسادة.. وعرف لتفينوف أنهم روس، وإن كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية. وكانت ملابس السيدات تمتاز بأناقة مسرفة، أما السادة فكانوا يلبسون سترات رمادية محبوكة مخصّرة غير مألوفة في هذه الأيام، وسراويل رمادية منقطة، وقبعات مدنية ثقيلة. وكل رباط عنق أسود منخفض يقبض بشدة على عنق كل واحد من هؤلاء السادة، وشيء عسكري يبدو في هيئتهم وتصرفاتهم كلها. والحقيقة أنهم كانوا عسكريين. لقد التقى لتفينوف بصحبة من الجنرالات الشبان ذوي المكانة العالية في المجتمع، والنفوذ البارز في الحكومة. وكانت أهميتهم تتجلّى في كل

شيء. في مرحهم المتحفظ، وتهافتهم الساخر، ونظراتهم الشاردة المتكلّفة واهتزازات أكتافهم الصغيرة المخنّثة، وطريقتهم في تحديب أجسادهم وثني ركبهم. وكانت تتجلى في نبرات أصواتهم نفسها، فكأنهم يشكرون في تلطّف متكلّف جمهورًا ذليلا من الناس. كان هؤلاء المحاربون كلهم ملمَّعين محففين مضمَّخين بعطر النبلاء والحرس الأصيل ـ وهو مزيج من دخان أفخر أنواع السيجار وأجمل عطور الباتشولي. وكلهم كانت لهم أيدي النبلاء أيضًا ـ أيد كبيرة بيضاء ذات أظافر صلبة كالعاج، وكلهم كانت لهم شوارب مصقولة، وأسنان لامعة، وبشرات رقيقة، وردية على الخدود، زرقاوية على الذقون. وكان بعض الجنرالات الشبان ممراحًا، وبعضهم جادًا، ولكن طابع الأدب العالي كان مرتسمًا عليهم جميعًا. كان كل واحد كأنما هو شاعر شعورًا عميقًا بكرامة شخصه، وبأهمية الدور الذي سيلعبه في الحكومة في المستقبل، وكان يمازج هذا الإيمان شيء من النزق والاستهتار اللذين يتعوَّدهما المرء بالضرورة خلال تجواله في بلاد أجنبية. وبعد أن جلسوا بكثير من الضوضاء والأبّهة نادوا النُّدُل الذين بادروا إلى تلبية أوامرهم. وأفرغ لتفينوف كوب لبنه، ودفع ثمنه، ولبس قبعته، وبينما كان مارًا بجماعة الجنرالات سمع صوت امرأة تناديه:

ـ جريجوري ميهالتش... ألا تعرفني؟

فوقف بلا وعي. ذلك الصوت.. ذلك الصوت كثيرًا جدًا ما خفق له قلبه في الأيام الخالية... والتفت حوله ورأى إيرينا. كانت جالسة إلى مائدة معتمدة بيديها على ظهر كرسي قد قرّبته منها، تنظر إليه وهي تبتسم ورأسها مائل إلى ناحيته.. نظرات فيها حنان يكاد يكون يحمل فرحًا بلقائه.

عرفها لتفينوف من أول نظرة، وإن كانت تغيرت منذ رآها للمرة الأخيرة قبل عشر سنين، واستحالت من فتاة إلى امرأة. كان قوامها النحيل قد امتلأ وتفتّح، وكتفاها اللتان كانتا ضيقتين تذكرانك الآن بصور الآلهات على سقوف القصور الإيطالية القديمة. ولكن عينيها بقيتا كسابق عهده بهما..

وخيل إلى لتفينوف أنهما تنظران إليه تمامًا كما كانتا تنظران قديمًا في ذلك المنزل الصغير في موسكو.

قال في تردد:

ـ إيرينا بافلوفنا...

ـ هل عرفتني؟ ما أسعدني! ما أسعدني!...

وصمتت فجأة واحمرّ وجهها قليلا، واعتدلت في جلستها. واستمرت تقول، ولكن بالفرنسية:

ـ إني سعيدة بلقائك. دعني أقدمك إلى زوجي. فاليريان! هذا السيد لتفينوف، صديق من أصدقاء الطفولة. فاليريان فلاديميروفتش راتميروف، زوجي.

ونهض أحد الجنرالات الشبان من مقعده ـ ولعله كان أشدهم تأنقًا ـ وانحنى للتفينوف بأدب بالغ، بينما زوى بقية رفاقه حواجبهم، أو بالأحرى انكمش كل واحد منهم لحظة في نفسه، وكأنه يحتج مقدمًا على أي اتصال بمدني غريب. ورأت السيدات الأخريات المشتركات في النزهة أن يخرزن عيونهن قليلا ويبتسمن ببلاهة، بل يتكلفن مظاهر الحيرة والدهشة.

سأل الجنرال راتميروف وهو يتقصّع بحركات غير روسية مطلقًا، وكان بيّنًا أنه حارَ فيمَ يتحدث مع صديق طفولة زوجته:

ـ آه.. أأنت في بادن من زمن طويل؟

فأجاب لتفينوف:

ـ لا، ليس من زمن طويل.

فاستمر الجنرال المهذب سائلا:

ـ وهل تنوي البقاء طويلا؟

ـ لم أفكر في الأمر بعد.

ـ آه جميل. جميل جدًا...

وسكت الجنرال. ولم يجد لتفينوف هو الآخر ما يقوله. وكان كلاهما ممسكًا قبعته في يده، منحنيًا إلى الأمام بابتسامة، يحدّق في قمة رأس صاحبه.

وبدأ أحد الجنرالات يدندن ـ بنغم مضطرب طبعًا، ولم تر قط نبيلا روسيًا إلا يدندن بنغم مضطرب:

I say Velerien give me some fire

وكان أرمد العينين أصفر الوجه، ينم تعبير وجهه عن حنق دائم، وكأنه لا يستطيع أن يغتفر لنفسه سوء منظره. وكان ممتازًا عن رفاقه جميعا بأن بشرته لا تشبه الوردة.

وأخيرًا قالت إيرينا:

ـ لماذا لا تجلس يا جريجوري ميهالتش؟

فأطاع لتفينوف وجلس.

قال جنرال آخر بالإنجليزية[1] I say Velerien give me some fire وكان هذا الجنرال صغير السن أيضًا، وإن ظهرت عليه سيماء البدانة قبل الأوان، وكانت عيناه ثابتتين كأنهما تحملقان في الهواء، وعارضاه غزيرين ناعمين كالحرير يدسّ فيهما ببطء أصابعه الناصعة البياض.

وأعطاه راتميروف علبة كبريت فضية.

وسألت إحدى السيدات:

---

(1) «بالله يا فاليريان أعطني شعلة» ـ وتلاحظ ركاكة العبارة الإنجليزية.

ـ Avez vous des papiros?

وكانت تلثغ الراء كالنطق الباريسي.

ـ Des vrais papelitos contesse[1]

ودندن الجنرال الأرمد العينين مرة أخرى بغيظ شديد:

ـ Deux gendarmes un beau dimanche[2]

وكانت إيرينا تقول للتفينوف في الوقت نفسه:

ـ يجب أن تأتي لتزورنا، نحن نقيم في فندق أوربا. وأنا في الفندق دائمًا من الساعة الرابعة إلى السادسة. إننا لم نتقابل من زمن طويل.

ونظر لتفينوف إلى إيرينا فلم تغضّ بصرها.

ـ أجل يا إيرينا بافلوفنا. إنه لزمن طويل، مذ كنا في موسكو.

فردت باختصار:

ـ في موسكو. نعم. في موسكو. تعال. سنتكلم ونتذاكر الأيام الخالية، أتدري يا جريجوري ميهالتش أنك لم تتغيّر كثيرًا؟

ـ حقًا؟ ولكنك تغيرت يا إيرينا بافلوفنا.

ـ لقد كبرت.

ـ لا لم أعن هذا.

ـ «إيرين؟» نادتها سيدة ذات قبعة صفراء وشعر أصفر. بعد أن مهّدت لذلك بهمس وضحك مع الضابط الجالس بجانبها. وكان في صوتها نبرة الاستفهام.

---

(1) سوء تفاهم حول اسم نوع الكبريت أو اللفائف لا تمكن ترجمته.

(2) شرطيان يوم أحد جميل.

ـ إيرين؟

ومضت إيرينا تقول بغير أن تجيب السيدة:

ـ إنني أكبر مما كنت، ولكني لم أتغير. لا، إني لم أتغير في شيء.

ـ Deux gendarmes un beau dimanche

سمع اللحن مرة أخرى. وكان الجنرال الضيق الصدر لا يذكر غير السطر الأول من الأغنية المشهورة.

«إنها لا تزال تخز قليلا يا صاحب السعادة». قالها الجنرال السمين ذو العارضين، في نبرات عالية ممطوطة، مستعيدًا ـ على ما يظهر ـ عبارة من قصة مسلية، معروفة في المجتمع الراقي بأسره. ثم ضحك ضحكة قصيرة جافة وعاد يحدِّق في الهواء من جديد. وضحك سائر الجماعة أيضًا. وقال راتميروف هامسًا: «يا لك من جرو حزين يا بوريس!» وكان يتكلم بالإنجليزية، ونطق اسم بوريس نفسه كأنه اسم إنجليزي.

قالت السيدة ذات القبعة الصفراء مستفهمة للمرة الثالثة:

ـ إيرين؟

فالتفتت إليها إيرينا بحدة:

ـ Eh bien? quoi? que me voulez- vous? [1]

فاجأبت السيدة، وهي تعبث بالحروف وتتغامز:

ـ Je vous le dirai plus tard [2]

وكانت تلك السيدة على قبحها لا تزال تتعابث وتتغامز. كانت تغامز الهواء، كما قال عنها أحد الظرفاء.

---

(1) «حسنًا، ماذا تريدون، مني؟».

(2) «سأقول لك فيما بعد».

وقطبت إيرينا جبينها وهزت كتفيها بصبر نافذ. وصاحت إحدى السيدات بتلك النبرة الممطوطة التي اختص بها أهل روسيا الكبرى، والتي لا تكاد تطيقها الأذن الفرنسية.

Mais que fait donc monsieur verdier? Pourquoi ne vientil pas?[1]

فزفرت سيدة أخرى، كان مسقط رأسها أرزاماس:

Ah wooi, ah wooi, Monsieur Verdier Monsieur Verdier [2]

وتدخل راتميروف في حديثهما قائلا:

Tranquillisez-vous, mesdames, Monsieur Verdier ma promis de venir se mettre á vos pieds [3]

ـ هي هي هي!

ولوّحت السيدات بمراوحهن.

وأحضر النادل بضعة أكواب من البيرة، فسأل الجنرال ذو العارضين، مصطنعًا صوتًا أجش:

Baierisch- Bier? guten morgen [4]

وسأل جنرال شاب جنرالا آخر في برود وتراخ:

ـ حسنًا، ألا يزال الكونت بافل هناك؟

فأجابه الآخر بمثل بروده:

---

(1) «ترى ماذا يفعل مسيو فرديه؟ لماذا لا يأتي؟».

(2) «آه نعم، آه نعم، مسيو فرديه مسيو فرديه».

(3) «صبرًا يا سيداتي، لقد وعدني مسيو فرديه بأن يأتي ليرتمي عند أقدامكن».

(4) «بيرة بافارية؟ صباح الخير!». (بالألمانية).

ـ نعم.[1] Mais c'est provisoire. يقولون إن سرج سوف يحل محله.

فنفث الأول من بين أسنانه:

ـ آها!

ونفث الثاني:

ـ آه. نعم..

وبدأ الجنرال الذي كان يدندن بالأغنية يقول:

ـ إني لا أفهم ما الذي جرى لعقل بول، لماذا يحاول تبرئة نفسه، ويحتج بشتى الأسباب؟ صحيح أنه كان قاسيًا على التاجر[2] lui a fait rendre gorge ولكن أي بأس في ذلك؟ لعل له دوافعه الخاصة.

فتمتم واحد منهم:

ـ لقد خاف.. أن تتحدث عنه الصحف.

فاحتد الجنرال الحنق:

ـ لم يبق إلا هذا! الصحف! تتحدث عنه! لو كان الأمر بيدي لما تركت شيئًا يُطبع في هذه الصحف إلا الضرائب على اللحم والخبز، والإعلانات عن بيع الفراء والأحذية.

فأضاف راتميروف:

ـ وممتلكات النبلاء المعروضة في المزاد.

ـ نعم، ربما، في هذه الأوقات.. ولكن هذا ليس موضوعًا نتكلم فيه في بادن au vieux château.

---

(1) «لكن هذا مؤقت».

(2) «وطفحه الدم».

فأجابت السيدة ذات القبعة الصفراء:

Jadore les questions politiques [1] Mais pas du tout politique_

وزاد جنرال آخر ذو وجه طلق أشبه بوجوه الفتيات:

ـ [2] Madame a raison. لماذا نتجنب هذه الموضوعات.. وإن كنا في بادن؟ (ونظر إلى لتفينوف متلطفًا وابتسم في تسامح، إن الرجل الشريف يجب ألا ينكر معتقداته مهما تكن الظروف. ألا ترى ذلك؟

فأجاب الجنرال الحنق، وهو يرمي لتفينوف بنظرة، وكأنه يهاجمه من طريق خفي:

ـ طبعا، ولكني لا أجد ضرورة...

فقاطعه الجنرال المتسامح بتلك الرقة عينها:

ـ لا لا إن صديقك فاليريان فلاديميروفتش قد أشار منذ برهة إلى بيع ضياع النبلاء. أليست هذه حقيقة واقعة.

فصاح الجنرال الحنق:

ـ ولكنها لا تباع في هذه الأيام، فلا أحد حتى يرغب فيها!

ـ ربما... ربما. هذا أدعى إلى أن نقرر الحقيقة المحزنة ـ في كل مناسبة. إننا نفتقر، وتضيع هيبتنا. هذا لا شك فيه. ولكنا، نحن الملاك الكبار، نمثل مبدأ un principe وواجبنا هو أن نحافظ على هذا المبدأ Pardon Madame أظن أن منديلك وقع. عندما تشتبه الأمور على أكبر العقول يجب علينا ـ بوصفنا مواطنين ـ أن نشير في تواضع إلى الهاوية التي ينحدر إليها كل

---

(1) «أبدا أبدا، إني أعبد الموضوعات السياسية».

(2) «السيدة على حق».

شيء (وأشار الجنرال بأصبعه). يجب أن نقول في أدب وحزم: «ارجعوا، ارجعوا...» هذا ما يجب أن نقوله.

فقال لتفينوف ساهمًا:

ـ ولكنك تعلم أن الرجوع مستحيل.

فلم يزد الجنرال المتسامح على أن ابتسم وقال:

الرجوع، الرجوع، mon trés cher [1] وكلما رجعنا وجدناه خيرًا،

ونظر الجنرال مرة أخرى إلى لتفينوف متلطفًا، فنفذ صبر لتفينوف.

ـ أترى سعادتك أن نتراجع حتى البوبار الواسعة؟

ـ لم لا؟ إنني أقول رأيي بصراحة تامة. كل ما عمل يجب، نعم، يجب الغاؤه.

ـ و19 فبراير؟[2]

ـ و19 فبراير ـ كلما أمكن[3] on est patriote ou on ne l'est pas. تسألونني: «والحرية؟» ولكن هل تظنون الشعب يقدر هذه الحرية؟ سلوهم...

فقاطعه لتفينوف:

ـ حاولوا إذن أن تنتزعوا تلك الحرية مرة أخرى!

فهمس الجنرال مخاطبًا راتميروف:

[4] Comment nommez –vous ce monsieur?

وانطلق الجنرال السمين فجأة يقول:

---

(1) «يا عزيزي».

(2) صدر مرسوم تحرير الأرقاء في 19 فبراير سنة 1861.

(3) «إما أن يكون المرء وطنيًا أو لا يكون».

(4) «ما اسم هذا السيد؟».

ـ فيم تتناقشون هنا؟

وكان جليًا أنه يمثل بين أصدقائه دور الطفل المدلل ـ أكل هذا عن الصحف؟ عن الصحفجيّة؟ سأخبركم بحكاية لي مع كاتب صغير ـ لذيذ جدًا. قيل لي أنه كتب يشهر بي. أمرت بشدّه حالا. فشدّوه. قلت له: «لماذا شهّرت بي؟ هل حتمت عليك الوطنية هذا؟ قال «نعم». قلت له: «والنقود يا حضرة الصحفجي؟ هل تحبها؟» قال: «نعم». وعند ذلك يا سادتي الأعزاء وضعت مقبض عصاي تحت أنفه، وقلت له: «هل تحب هذا يا ملاكي؟» قال: «لا، إني لا أحب هذا». قلت له: «شمه جيدًا. إن يديّ نظيفتان». فما قدر إلا أنه كرر: «لا، إني لا أحبه» قلت: «أما أنا فأحبه جدًا يا عزيزي. ولكن لا أحبه لنفسي. أتفهم هذا المثل يا كنزي؟» قال: «نعم». قلت: « إذن فاعمل على أن تكون غلامًا طيبًا في المستقبل. والآن هاك روبلا فضيًا جميلا من أجلك. اذهب وسبّح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار».. وهكذا ذهب الصحفجي.

وانفجر الجنرال ضاحكا. وحذا الباقون حذوه مرة أخرى، إلا إيرينا فإنها لم تبتسم بل نظرت إلى المتكلّم نظرة سوداء.

وضرب الجنرال المتسامح بيده على كتف بوريس:

ـ هذا كله من خيالك يا صديقي العزيز.. أأنت تهدد أي إنسان بعصا؟ بل أنت لا تحمل عصا؟[1] est pour faire rire ces dames إنما تريد أن تروي قصة مسلية. ولكن ليس هذا هو المهم. لقد قلت منذ برهة إننا يجب أن نرجع إلى الوراء تمامًا. إفهمني. إني لست عدوًا لما يسمّى التقدم. ولكن كل هذه الجامعات والمعاهد والمدارس ـ كل هؤلاء الطلاب أبناء القسس والعوام، كل هذا الفقس الصغير se fonddu sac، la petite proprieté pire que la proletariat (نطق الجنرال هذه العبارة بصوت متراخ يكاد يكون

(1) «ومن أجل أن تضحك السيدات».

متهالكًا)[1] Voilá ce qui meffraie. هنا يجب على المرء أن يقف، ويضع حدًا فاصلا (ونظر إلى لتفينوف نظرة لطيفة). نعم، يجب أن نضع الحد الفاصل ـ تذكروا أننا لا نريد شيئًا. ليست لنا أي مطالب. الحكم الذاتي مثلا ـ من يطلبه؟ أتطلبه أنت، أو أنت، أو أنت، أو أنتن يا سيداتي؟ إنكن لا تحكمن أنفسكن فقط، بل تحكمننا جميعًا أيضًا. (وأشرق وجه الجنرال بابتسامة رضا). إذن لماذا نجامل يا أصدقائي الأعزاء؟ إن الديمقراطية ترحّب بكم، إنها تتملّقكم، إنها مستعدة لتحقيق أهدافكم.. ولكنها سلاح ذو حدين. خير من هذا أن نعود إلى طريقنا القديم، طريقنا المجَرَّب.. إنه أكثر أمنًا. لا تتركوا الغوغاء يجترئون عليكم، بل ثقوا بالأرستقراطية، ففيها وحدها القوة.. لا شك أن هذا أفضل. أما التقدم.. فأنا لا أعارضه في الحقيقة بشرط ألا تعطونا محامين ومحلّفين وموظفين منتخبين.. بشرط ألا تمسّوا النظام. النظام قبل كل شيء. تستطيعون أن تبنوا الجسور والأرصفة والمستشفيات، ولا بأس أيضًا بأن تضيئوا الشوارع بالغاز.

فتنحنح الجنرال الحنق:

ـ إنهم يضرمون الحرائق في بطرسبرج من كل ناحية. هذا هو التقدم الذي تتحدث عنه.

وقال الجنرال السمين، وهو يترجّح في كرسيه ببلادة:

ـ أنت شديد المرارة. هذا واضح، يجب أن يجعلوك نائبًا عامًا. ولكني أعتقد أن

Avec (Orphée aux enfers) le progrés a dit son dernier mot [2].

فقالت السيدة التي من أرزاماس ضاحكة:

---

(1) «كل هذه الحثالة: صغار الملاك الذين هم شر من البروليتاريا ـ هذا ما يرعبني».

(2) التقدم قال كلمته الأخيرة عندما ظهرت «أوروفي في الجحيم» (أوبرا للموسيقي الألماني أوفنباخ 1858).

ـ Vous dites toujours des bêtises[1]

فأظهر الجنرال الغضب:

ـ Je ne suis plus serieux, madame, que quand je dis des bêtises[2]

فقالت إيرينا بصوت خفيض:

ـ لقد قال السيد فرديه هذه العبارة نفسها عدة مرات من قبل.

وصاح الجنرال السمين:

ـ De la poigne et des formes de la poigne surtout

أو بالروسية: «كن مؤدبًا لكن استعمل قبضتيك».

فقاطعه الجنرال المتسامح:

ـ آه. أنت شيطان، شيطان خبيث. سيداتي، لا تستمعن إليه. إن الكلب الذي ينبح لا يَعضّ. إنه لا يهتم بشيء سوى الغزل.

وبدأ راتميروف يقول بعد أن تبادل مع زوجته نظرة:

ـ أنت مخطئ يا بوريس. لا بأس بأن تكون ماجنًا، ولكنك تبالغ كثيرًا. إن التقدم ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية، وهذا ما لا يجب أن ننساه. إنه بادرة يجب علينا أن نراقبها.

فأجاب الجنرال السمين مجعّدًا أنفه:

ـ حسنًا، نحن جميعًا نعلم أنك طامع في الوزارة.

ـ كلا، مطلقًا! أتقول الوزارة! ولكن المرء لا يسعه أن يغمض عينيه في الحقيقة.

---

(1) «أنت دائمًا تقول هراء».

(2) «أنا أكثر ما أكون جدًا يا سيدتي عندما أهزل».

ودس بوريس أصابعه في عارضه مرة أخرى وحدق في الهواء.

ـ... الحياة الاجتماعية مهمة جدًا. في تطور الشعب، وفي مصائر البلاد إن صح التعبير..

فقاطعه بوريس مؤنبًا:

ـ Valerien، il y a des dames ici [1] لم أكن أتوقع هذا منك. أم أنت تريد أن تصبح عضوًا في لجنة؟

فعلّق الجنرال الحَنِق على ذلك قائلا:

ـ ولكن هذه اللجان حُلّت كلها والحمد لله.

وأخذ يدندن مرة أخرى:

Deux gendarmes un beau dimanche

ورفع راتميروف منديلا من الكتان الكبري الرقيق إلى أنفه وانسحب من المناقشة. واستمر الجنرال المتسامح يكرر «شيطان! شيطان» ولكن بوريس التفت إلى السيدة التي «تغامز الهواء»، وبغير أن يخفض صوته أو يغير تعبير وجهه أخذ يلح عليها بالسؤال «متى تقدِّر إخلاصه» لأنه يحبها، ويقاسي العذاب من جراء ذلك.

وفي أثناء هذا الحديث كان لتفينوف يزداد ضيقًا في كل لحظة. وثارت كبرياؤه، كبرياؤه الشعبية النظيفة ثورة بالغة. في أي شيء يشارك هو، ابن الموظف البسيط، أولئك الأرستقراطيين العسكريين من بطرسبرج؟ إنه يحب كل ما يكرهون، ويكره كل ما يحبون. وإن شعوره بذلك لقوي حاد، يحسه في كل جزء من كيانه. إنه يجد نكاتهم سمجة، ونبراتهم ممجوجة، وكل إشارة من إشاراتهم كاذبة مصطنعة، وحتى نعومة حديثهم كان يجد

(1) «فاليريان، توجد سيدات هنا».

فيها نبرة احتقار تثير كراهيته. ولكنه كان كالخَجِل أمامهم! أمام هذه المخلوقات، هؤلاء الأعداء! «أف يا للخزي! إن وجودي يضايقهم. إنهم يرونني أضحوكة». كانت هذه هي الفكرة التي ظلت تدور برأسه. لماذا أبقى فلأذهب فلأنج الآن!. وما كان وجود إيرينا ليستبقيه، فإنها هي أيضًا كانت تثير فيه انفعالات سوداوية. فنهض عن مقعده وبدأ يستأذن في الانصراف. فقالت إيرينا:

ـ أذاهب الآن؟

ولكنها بعد قليل من التفكير لم تلحّ عليه بالبقاء بل انتزعت منه وعدًا بأن يزورها، وودّعه الجنرال راتميروف بتلطّف بالغ، وصافحه ورافقه إلى نهاية الشرفة.. ولكن لتفينوف لم يكد يعرج في أول منحنى من منحنيات الطريق حتى سمع ضحكًا صاخبًا خلفه. ولم يكن لهذا الضحك صلة به، بل أثاره مقدم السيد فردييه المُرتَقَب، وقد ظهر فجأة على الشرفة، لابسًا قبعة تيرولية وجلبابًا أزرق وراكبًا حمارًا. ولكن الدم اندفع إلى خدي لتفينوف اندفاعًا وأحس بمرارة فظيعة، وانطبقت شفتاه كأنه تجرّع علقمًا. وتمتم: «مخلوقات سافلة حقيرة» ولم يفكر أن الدقائق القليلة التي أمضاها في صحبتهم غير كافية لأن يصدر عليهم مثل هذا الحكم القاسي. هذه هي الدنيا التي سقطت فيها إيرينا! إيرينا التي كانت له في يوم من الأيام.. في هذه الدنيا كانت تتحرك، وتعيش، وتحكم. لأجلها ضحّت بكرامة نفسها، وأنبل مشاعر قلبها.. هذا بلا ريب ما كان يجب أن يكون. لا شك أنها ما كانت تستحق مصيرًا أفضل! ما أسعده لأنها لم تسأله عما ينتويه! لعله كان يفتح قلبه «أمامهم» في محضرهم.. وتمتم لتفينوف وهو يستنشق أنفاسًا عميقة من الهواء النقي ويهبط في الطريق المنحدر إلى بادن يكاد يعدو: «لا يمكن! أبدا! أبدا!» وفكر في خطيبته.. في تاتيانا الحلوة الطيبة النقية، وفي طهرها ونبلها وصدقها، فبأي جنان صادق تَمْثُلُ ملامحها وكلماتها وعاداتها، وبأي شوق تمنى عودتها!

وهذا المجهود السريع أثار أعصابه، فلما عاد إلى مسكنه جلس إلى منضدته وتناول كتابًا، وفجأة تركه يسقط وقد أصابته رعدة! ماذا جرى له؟ لا شيء. ولكن إيرينا.. إيرينا.. وعلى حين غرة بدا لقائه بها شيئًا مدهشًا غريبًا غير عادي. أهذا ممكن؟ لقد رأى إيرينا نفسها.. لقد تحدث معها.. وكيف لم يجد فيه أثرًا من تلك الدنيوية البغيضة التي كانت تتجلى في كل أولئك الآخرين؟ لماذا خيل إليه أنها كالضجرة أو كالحزينة أو كالساخطة على ما يحيط بها؟ إنها في معسكرهم، ولكنها ليست بعدو. وماذا يجبرها على أن تبشّ له وتدعوه لزيارتها؟

وذعر لتفينوف، وصاح بحرارة: «تانيا، تانيا! أنت وحدك ملاكي الحارس، ملاكي الطاهر، إني أحبك وسأحبك دائمًا. ولن أذهب إليها.. سأنساها نسيانًا..! فلتسلِّ نفسها مع جنرالاتها!».

وعاد لتفينوف إلى كتابه.

- 11 -

تناول لتفينوف كتابه ثانية، ولكنه لم يستطع أن يقرأ فغادر المنزل، وسار قليلا، واستمع إلى الموسيقى، وشاهد القمار، وعاد مرة أخرى إلى غرفته، وحاول أن يقرأ فلم يفلح هذه المرة أيضًا. كان الزمن يمر متثاقلا كئيبا. وجاء بشتشا ـ قاضي التحكيم الطيب ـ وجلس ثلاث ساعات كاملة، وكان يتكلم ويجادل، ويثير مسائل ويحاضر من حين إلى حين، وكانت محاضراته في موضوعات فكرية عالية أول الأمر ثم موضوعات علمية بعد ذلك. وقد نجح في أن يشيع حوله جوًا من الملل الفظيع، حتى إن لتفينوف المسكين كاد يصرخ. كان بشتشا لكن لا يجارى في قدرته على أن يرفع الملل ـ الملل المؤلم المروع الميئس ـ إلى فن جميل، ولم يكن له نظير في ذلك حتى بين ذوي الأخلاق الممتازة أنفسهم، وهم أساتذة ذائعو الصيت في هذا الباب. وكان مرأى رأسه المشذب يبعث في النفس قنوطًا لا فكاك منه، ونبرات صوته الوئيدة الكسلانة كأنها لم تخلق إلا لتقرر في يقين وجلاء حقائق من طراز أن اثنين في اثنين يساوي أربعة لا خمسة أو ثلاثة، وأن الماء سائل، وأن العفو من شيم الكرام، وأن نظام الائتمان ضروري في المعاملات المالية ـ ضروري للدولة كضرورته للأفراد، وضروري للأفراد كضرورته للدولة. وكان على الرغم من هذا كله رجلا من خيار الناس! ولكن هذا هو ما حكمت به الأقدار على روسيا، أن يكون خيار الناس أغبياء.

وأخيرًا ذهب بشتشا لكن جاء بنداسوف وسأل لتفينوف من فوره ـ

بصفاقة غريبة ـ أن يقرضه مائة جلد، واعطاه لتيفنوف ما طلب، مع أنه لم يكن يميل إلى بنداسوف، بل كان يبغضه ويحتقره، وكان واثقًا أنه لن يرى نقوده ثانيةً، وكان هو نفسه في حاجة إليها. وسوف يسأل القارئ فما الذي جعله يعطيه النقود إذن؟ الشيطان وحده يعلم! فهذه ناحية قد برز فيها الروس أيضًا. وليضع القارئ يده على قلبه وليتذكر كم عملا أتاه هو نفسه في حياته لسبب ما. لم يعن بنداسوف حتى بأن يشكر لتفينوف بل طلب كوبًا من الافنتالر (نبيذ بادني أحمر) وانصرف من دون أن يمسح شفتيه، وهو يدق الأرض بقدميه دقًا عاليًا مثيرًا. وما كان أشد سخط لتفينوف على نفسه وهو ينظر إلى قفا البلطجي الغليظ الأحمر وهو خارج!

وقبل المساء تلقى لتفينوف رسالة من تاتيانا تخبره فيها بأن عمتها مريضة، وأنهما لا تستطيعان الحضور إلى بادن إلا بعد خمسة أيام أو ستة. وكان لهذا النبأ أثر شيء في نفس لتفينوف، فزاد غيظه وأوى إلى سريره مبكرًا وهو ضيّق الصدر. ولم يكن اليوم التالي خيرًا من سابقه، بل لعله كان شرًا منه. فقد امتلأت حجرة لتفينوف من الصباح الباكر بأبناء وطنه: بمبايف وفورشيلوف وبشتشالكن والضابطين والطالبين من هيدلبرج، تكاثروا عليه جميعًا دفعة واحدة، ولم ينصرفوا إلا وقت العشاء، مع أنهم كانوا قد أفرغوا سريعًا ما عندهم من حديث وبدا عليهم الملل.

والحقيقة أنهم كانوا لا يعلمون ماذا يصنعون بأنفسهم، فلما وجدوا مسكن لتفينوف «لزقوا» فيه كما يقولون، تكلموا أولا عن عودة جوباريوف إلى هيدلبرج، وضرورة رحيلهم في أثره، ثم تفلسفوا قليلا وذكروا المسألة البولندية، ثم عرجوا على القمار وبنات الهوى، واستطردوا إلى نوادر فاحشة. وأخيرًا هبطوا إلى حكايات «الدباغين» وذوي القوة المفرطة. فتذاكروا أولا ما كان يروى عن لوكيه، وعن ذلك الشماس الذي التهم في رهان أكثر من ثلاث وثلاثين «رنجة»، وعن أزيدينوف المشهور بفرط بدانته، وعن ذلك الضابط الذي كسر عظمة ساق على جبهته. ثم تلا ذلك

كذب صراح. فروى بشتشالكن نفسه وهو يتثاءب أنه عرف امرأة فلاحة في روسيا الصغرى، وجد عند وفاتها أن وزنها أكثر من نصف طن. وتحمس بمبايف فجأة وأعلن أنه يستطيع أن يأكل شاة كاملة ـ بشرط أن تكون «متبَّلة» طبعا. وانفجر فوروشيلوف يروي شيئًا عن رفيق له في المدرسة .. وكانت روايته مختلطة اختلاطًا ألزمهم الصمت، وبعد برهة نظر بعضهم إلى بعض وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا.

وحين فرغ لتفينوف لنفسه حاول أن يعمل، ولكنه أحسّ كأنّ رأسه ملئ بأبخرة متكاثفة، فلم يستطع أن يعمل شيئًا. وضاعت منه الليلة كما ضاع النهار. وفي صبيحة اليوم التالي لم يكد يتأهب لتناول فطوره حتى طُرِق بابه، فقال لتفينوف في نفسه: يالله! إنه واحد من أصدقاء الأمس أيضًا. ونطق بشيء من الوجل:

Herein! [1]

فانفتح الباب ببطء ودخل بوتوجين وسُرَّ لتفينوف برؤيته سرورًا عظيمًا، وراح يشد بحرارة على يد ضيفه غير المنتظر ويقول:

ـ أهلا أهلا! لقد أحسنت صنعًا بمجيئك، كنت أود أن أذهب إليك، ولكنك لم تشأ أن تخبرني أين تسكن، تفضّل بالجلوس. ضع قبعتك جانبًا.

ولم يجب بوتوجين على ترحاب لتفينوف الحار، وظل واقفًا وسط الغرفة وهو يبدل ساقيه، ولم يزد على أن ابتسم وهز رأسه، وكان جليًا أن استقبال لتفينوف الحفي قد مسّ قلبه، ولكن تعبير وجهه نم بشيء من الارتباك.

بدأ يقول بتردُّد:

ـ هناك... سوء تفاهم بسيط.. طبعًا... يسرني دائمًا أن أراك. ولكن الحقيقة أني رسول إليك.

---

(1) «ادخل!» بالألمانية.

ـ أتعني أنك ما كنت لتأتي إلى هنا من تلقاء نفسك؟

ـ بلى! ولكني.. لا أظنني كنت أقدم على أن أتطفَّل عليك اليوم، لولا أني سئلت المجيء إليك. أجل. إنني أحمل رسالة إليك.

ـ أأستطيع أن أعلم مرسلها؟

ـ شخص تعرفه. إنها من إيرينا بافلوفنا راتميروف. لقد وعدتها منذ ثلاثة أيام أن تزورها ولم تفعل.

فحدق لتفينوف في بوتوجين دهشًا:

- أتعرف مدام لتفينوف؟

- كما ترى.

- وتعرفها جيدًا؟

- يمكنني أن أقول إني صديق لها.

وصمت لتفينوف برهة وأخيرًا قال:

- اسمح لي أن أسألك، هل تعلم لماذا تريد إيرينا بافلوفنا أن تراني؟

فمشى بوتوجين إلى النافذة:

ـ إلى حد ما. لقد سُرّت برؤيتك سرورًا عظيمًا على ما يبدو لي. وهي تريد أن تجدد علاقتها القديمة بك.

فردد لتفينوف:

ـ تجدد... معذرة إذا أثقلت عليك. ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالا آخر: أتعلم أنت ماذا كانت طبيعة تلك العلاقة؟

ـ لا.. لا أعلم في الحقيقة.. وأضاف بوتوجين وهو يلتفت إلى لتفينوف فجأة وينظر إليه بعطف: ولكني أظنها كانت علاقة وثيقة. لقد أثنت عليك

إيرينا بافلوفنا ثناء عظيمًا، واضطررت أن أعدها بإحضارك، فهل تأتي؟

ـ متى؟

ـ الآن، حالا.

فرفع لتفينوف يديه دهشا وأضاف بوتوجين:

ـ إن إيرينا بافلوفنا تظن أن الـ... لا أدري ماذا أقول... أن الملابسات التي صادفتها فيها أول أمس ما كانت تسرّ كثيرًا. ولكنها كلفتني أن أقول لك إن الشيطان ليس حالك السواد كما يصوّرونه.

ـ مم.. أهذا القول عن الملابسات ذاتها؟

ـ نعم.. وعلى العموم أيضًا.

ـ مم.. حسنًا، وما رأيك أنت في الشيطان يا سووزونت إيفانتش؟

ـ أظن يا جريجوري ميهالتش أنه ليس كما يصوِّرونه على أية حال.

ـ أهو خير مما يصورونه؟

ـ لا أدري إن كان خيرًا أو شرًا، ولكنه مختلف. حسنًا، هل نذهب؟

ـ أرجو أن تجلس قليلا أولاً. يجب أن أعترف بأن الأمر ما زال يبدو غريبًا.

ـ أي غرابة، إن جاز لي أن أسأل؟

ـ كيف أمكن أن تصبح صديقًا لإيرينا بافلوفنا؟

فأخذ بوتوجين يفحص نفسه بنظرة ثم قال:

ـ حقًا إن الأمر يبدو بعيد التصديق بالنسبة إلى منظري ومنزلتي في المجتمع ولكنك تعلم أن شكسبير قال: إن في السماء والأرض ياهوراشيو... إلخ. ليست الحياة سهلة. وإليك هذا المثل: هذه شجرة قائمة أمامك والريح

ساكنة، فكيف تلتقي ورقة من غصن منخفض مع ورقة من غصن عال؟ هذا محال. ولكن العاصفة تهب، فيتغير كل شيء، وتلتقي الورقتان.

ـ إيه؟ إذن فقد كانت ثمة عواصف؟

ـ كيف لا؟ هل تمر الحياة بغير عواصف؟ ولكن كفانا فلسفة فقد آن أن نذهب.

وكان لتفينوف لا يزال مترددًا، فصاح بوتوجين وقد جعّد وجهه ليثير الضحك:

ـ يالله! ماذا جرى للشبان في هذه الأيام؟ سيدة رائعة الجمال تدعوهم إلى زيارتها وتبعث إليهم بالرسل، وهم يتهيبون ويتردّدون! يجب أن تخجل يا سيدي العزيز، يجب أن تخجل. هذه قبعتك، هيّا خذها و«إلى الأمام» كما يقول أصدقاؤنا الألمان المتحمسون!

وطال تردد لتفينوف برهة أخرى ولكنه تناول قبعته أخيرًا وخرج من الحجرة مع بوتوجين.

- 12 -

ذهبا إلى أحد الفنادق الكبرى في بادن وسأل بوتوجين الخادم عن السيدة راتميروف، وسألهما أولا عن اسميهما، ثم أجاب على الفور إن «الأميرة بالمنزل»، وصعد هو نفسه الدرج معهما، وطرق باب المسكن، وأنبأ بحضورهما، فأذنت الأميرة بدخولهما. وكانت منفردة، فقد سافر زوجها إلى كارلسروهة ليقابل شخصية رسمية كبيرة تمرّ في تلك المدينة.

وكانت إيرينا جالسة إلى منضدة صغيرة تطرِّز حين عبر بوتوجين ولتفينوف عتبة الباب، فألقت بسرعة ما كانت تطرزه، وأزاحت المنضدة الصغيرة ونهضت وقد غمر وجهها سرور صادق. وكانت تلبس رداء صباحيًا مرتفعًا عند العنق، يشف نسيجه الرقيق عند تعاريج كتفيها وذراعيها.. وكان شعرها المعقوص بغير اعتناء قد تهدّل على جيدها النحيل. رمقت إيرينا بوتوجين بنظرة سريعة وتمتمت Merci، ومدت يدها إلى لتفينوف وهي تؤنّبه برقّة على نسيانه.

وأضافت:

- وأنت صديق قديم!

وبدأ لتفينوف يعتذر. فأسرعت تقول C'est bien, c'est bien [1] وأخذت

---

(1) «حسن، حسن».

منه قبعته وألحّت عليه بلطف حتى جلس. وكان بوتوجين قد جلس أيضًا. ولكنه نهض مسرعًا، واستأذن في الذهاب قائلا إنه على موعد لا يستطيع تأجيله وأنه سيعود ثانية بعد الغداء. ورمقته إيرينا مرة أخرى بنظرة سريعة، وأومأت إليه برقة، ولكنها لم تحاول أن تستبقيه. وما كاد يختفي خلف ستر الباب حتى التفتت بتلهّف نحو لتفينوف وقالت بالروسية بصوتها الموسيقي الرقيق:

ـ ها قد أصبحنا وحيدين أخيرًا، وأستطيع أن أقول لك كم أنا مسرورة برؤيتك. لأن رؤيتك.. لأنها تمنحني فرصة... (وثبتت إيرينا عينيها بغير اضطراب) لأن أسألك المغفرة.

وأجفل لتفينوف على الرغم منه. فما كان يتوقع مثل هذا الهجوم السريع، وما كان يتوقع أن تدير هي نفسها الحديث على الأيام الخالية. فتمتم:

- المغفرة.. عمَّ؟

فاحمر وجه إيرينا. وقالت:

ـ عمّ؟ أنت تدري عمّ؟ وأشاحت بوجهها قليلا ـ لقد أسأت إليك يا جريجوري ميهالتش، وإن كان ذلك بمثابة قَدَرٍ كُتِبَ عليّ (وتذكر لتفينوف رسالتها) ولست أسفة على شيء.. وعلى كل حال فقد فات أوان الآسف. ولكني حين التقيت بك ذلك اللقاء المفاجئ، قلت لنفسي إننا يجب أن نصبح صديقين، لا بد من ذلك.. وسوف أتألم كثيرًا إن لم يحصل.. ويبدو لي أن أول المطلوب هو أن نفسِّر ما فات، ولا نؤجل ذلك ولا نترك شيئا لما بعد، حتى لا يكون هناك أي.. géne.. أي ارتباك.. يجب أن نفرغ من ذلك سريعًا يا جريجوري ميهالتش، ويجب أن تقول إنك عفوت عني، وإلا خلتك تحس... Voila de la rancune [1]. لعله غرور مني، ولعلك نسيت كل شيء منذ زمن طويل جدًا، ولكن لا بأس قل لي إنك عفوت عني.

---

(1) شيء من الضغينة!

نطقت إيرينا بهذا الكلام كله من دون أن تتوقف، واستطاع لتفينوف أن يرى دموعًا تلمع في عينيها.. أجل.. دموعًا، فأخذ يقول مسرعًا:

ـ كيف هذا يا إيرينا بافلوفنا؟ كيف تسألينني العفو والغفران؟ إن كل هذا قد مضى وانقضى، وإني لا أملك ألا أن أدهش حين أراك ـ مع كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ ـ ما زلت تذكرين رفاق شبابك الخاملين..

فقالت إيرينا برقّة:

- أيدهشك هذا؟

فأضاف لتفينوف:

- إنه يهزني. لأني ما كنت أظن...

فقاطعته إيرينا:

- ولكنك لم تقل لي إنك عفوت عني..

- إني مسرور بسعادتك سرورًا صادقًا يا إيرينا بافلوفنا. وإني لأتمنى لك من صميم قلبي كل خير..

- ولن تذكرني بشر؟

- لن أذكر شيئًا إلا اللحظات السعيدة التي كنت مدينًا لك بها في وقت من الأوقات.

ومدت إيرينا إليه كلتا يديها، فقبض عليهما بحرارة، وأبقاهما بين يديه زمنًا.. وكأنما تحرّك في قلبه لتلك الملامسة الرقيقة شيء لم يحس به منذ زمن طويل. وكانت إيرينا مثبتة عينيها على وجهه مرة أخرى، ولكنها كانت تبتسم هذه المرة.. ونظر هو إليها للمرة الأولى نظرة طويلة فاحصة.. فعرف ثانية تلك القسمات التي كانت عزيزة عليه زمنًا، العينين العميقتين بأهدابهما الرائعة، الشامة الصغيرة على خدها، منبت شعرها العجيب على جبينها،

عادتها في عقد حاجبيها وليّ شفتيها بطريقة فاتنة بديعة.. كل ذلك عرفه، ولكن أي جمال! أي سحر أنثوي وأي حميا شباب في جسمها الفتي! ولا طلاء ولا مساحيق على الوجه النَّضِر النقي.. نعم، إن هذه امرأة جميلة، وغمرت لتفينوف موجة من التفكير.. ظل ينظر إليها، ولكن أفكاره كانت بعيدة.. ولاحظت إيرينا ذلك، فقالت بصوت مرتفع:

- حسنًا، هذا جميل جدًا. الآن استراح ضميري، وأرضى تطلعي.

فرد لتفينوف شبه حائر:

ـ تطلّعك.

ـ أجل، إني أود قبل كل شيء أن أعرف ماذا كنت تعمل كل هذا الوقت، وماذا تريد أن تعمل في المستقبل، أريد أن أعرف كل شيء، كيف وماذا ومتى.. كل شيء.. وحذار أن تخفي عني الحقيقة، فإن أخبارك لم تنقطع عني.. بقدر استطاعتي.

- أخباري لم تنقطع عنك.. أنت.. هناك.. في بطرسبرج؟

ـ بين مظاهر البذخ التي تحيط بي، كما قلت منذ برهة أجل، إنها لم تنقطع عني في الحقيقة. أما ذلك البذخ فسوف نتحدث عنه في ما بعد، ولكنك يجب أن تخبرني الآن بكل ما عندك، وأن تطيل، ولا تختصر، فلن يقطع أحد علينا حديثنا.

ثم أضافت إيرينا وهي تجلس فرحة مستروحة فوق كرسي كبير:

- ما أحلى هذا الحديث! هات ما عندك!

فبدأ لتفينوف قائلا:

- قبل أن أروي قصتي يجب أن أشكرك.

- علام؟

على باقة الزهر التي وجدتها في غرفتي.

- أية باقة؟ إنني لا أعرف شيئًا عنها.

- ماذا؟

- أقول لك: إني لا أعرف شيئًا عنها.. ولكني منتظرة.. منتظرة سماع قصتك.. ما أكرم بوتوجين إذ جاء بك إلى هنا!

وأرهف لتفينوف أذنيه وسأل:

- هل عرفت هذا السيد، بوتوجين، منذ وقت طويل؟

- أجل منذ وقت طويل.. ولكن أخبرني بقصتك.

- وهل تعرفينه جيدًا؟

فتنهدت إيرينا وقالت:

ـ أجل! لأسباب خاصة.. لقد سمعت بالطبع عن اليزا بيلسكي التي ماتت منذ عامين تلك الميتة المروعة؟ آه، كلا، لقد نسيت أنك لست عالمًا بكل فضائحنا.. وهذه نعمة! أوه! quelle chance [1] أخيرًا، أخيرًا التقي بإنسان حقيقي لا يعلم شيئًا عنّا! وأتكلم معه بالروسية.. ولو أنها روسية رديئة، بدلا من هذه الفرنسية البطِرة الكريهة الباهتة المملة.

ـ تقولين: إن بوتوجين كان على اتصال بـ...

فقاطعته إيرينا قائلة:

ـ إن مجرد الإشارة إلى هذه القصة يؤلمني. لقد كانت إليزا صديقتي الحميمة في المدرسة، وكنا نتزاور دائمًا بعد ذلك في بطرسبرج، وكانت تفضي إليّ بكل أسرارها، فقد كانت شقية معذَّبة. وبوتوجين كان شهمًا

---

(1) «يا له من حظ سعيد!».

حقًا في مسلكه نحو المسألة كلها. لقد ضحى بنفسه، ولم أقدره إلا منذ ذلك الحين. ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا مرة أخرى، إني منتظرة قصتك يا جريجوري ميهالتش.

- ولكن قصتي لا تشوقك البتة يا إيرينا بافلوفنا.

- هذا لا يعنيك.

- تذكري يا إيرينا بافلوفنا أننا لم نتقابل منذ عشر سنوات. عشر سنوات كاملة ما أكثر ما فعل الزمن في هذه السنوات العشر!

- ولهذا أريد أن أسمع حديثك.

- ثم إني لا أدري من أين أبدأ.

- من البداية، منذ.. منذ رحلت إلى بطرسبرج. لقدغادرت أنت موسكو بعدئذ أتدري أني لم أعد قط إلى موسكو منذ ذلك الحين؟

- حقًا؟

- كان ذلك مستحيلا في أول الأمر. ثم لما تزوجت...

- هل تزوجت منذ زمن طويل؟

- منذ أربع سنوات؟

- أليس لك أبناء؟

فأجابت بخشونة:

- لا.

وصمت لتفينوف برهة.

ـ وهل مكثت عند ذلك.. الكونت ريزنباخ حتى تزوجت؟

فنظرت إليه إيرينا نظرة ثابتة، كأنها تريد أن تعلم لماذا سأل هذا السؤال. وأخيرًا أجابت:

ـ لا.

ـ أظن أن أبويك.. معذرة أني لم أسأل عنهما.. أهما...

ـ إنهما بخير.

ـ ويعيشان في موسكو كما مضى؟

ـ ويعيشان في موسكو كما مضى.

ـ وأخوتك وأخواتك؟

ـ كلهم بخير. وأنا أرعاهم جميعًا.

فقال لتفينوف وهو يرمق إيرينا من طرف خفي:

ـ آه؟ لست أنا من يجب أن أروي قصتي، بل أنت، لو... وارتبك فجأة وصمت.

ورفعت إيرينا كفيها إلى وجهها وأخذت تدير خاتم الزواج في أصبعها وأخيرًا قالت:

ـ حسنًا لن أرفض ذلك. ربما.. في يوم من الأيام.. ولكن أبدأ أنت، فإني لا أكاد أعلم شيئًا عنك، مع أني حاولت أن أتتبع أخبارك. أما أنا فقد سمعت عني كثيرًا. أليس كذلك؟ ألم تسمع عني؟

ـ إنك يا إيرينا بافلوفنا قد شغلت مكانًا ظاهرًا في المجتمع، فهل كان يمكن ألا يتحدث الناس عنك؟ خصوصًا في الريف، حيث كنت أعيش، وحيث كل شائعة تصدَّق.

ـ وهل تصدِّق الشائعات؟ وما نوع هذه الشائعات؟

ـ إن أردت الحقيقة يا إيرينا بافلوفنا فإن هذه الشائعات كانت نادرًا ما تصلني. لقد كنت أحيا في عزلة تامة.

ـ كيف هذا؟ ألم تكن في القرم؟ وفي الجيش؟

ـ أتعلمين هذا أيضًا؟

ـ كما ترى. لقد قلت أنك كنت مراقبًا.

فأحس لتفينوف بالحيرة مرة أخرى وقال هامسًا:

ـ ولماذا أخبرك بما تعرفينه من قبل؟

ـ لماذا؟ لأني أسألك، ألا ترى أني أسألك أن أسمع هذا منك يا جريجوري ميهالتش؟

فحنى لتفينوف رأسه وبدأ.. بدأ يقص على إيرينا بأسلوب مضطرب مجمل مغامراته التي لا تشوِّق، بل إنه كان كثيرًا ما يقف وينظر إلى إيرينا مستفهمًا، كأنه يسأل هل اكتفت بما روى، ولكنها ألحّت عليه ليتم قصته، وبدت وهي تنحّي شعرها خلف أذنيها، وتعتمد بمرفقيها على ذراع كرسيها، كأنما هي تلتقط كل كلمة في انتباه شديد. ولعلك لو نظرت إليها من جانب وتابعت تعبير وجهها لخيّل إليك أنها لا تسمع شيئًا مما يقوله لتفينوف، ولكنها غارقة في تأملها. بيد أنها لم تكن تتأمل لتفينوف، وإن أطالت إليه النظر حتى اضطرب واحمرّ وجهه. لقد كانت تتمثل أمامها حياة بأسرها، حياة مخالفة جد المخالفة لما كانت تسمع، حياتها هي لا حياته.

لم يتم لتفينوف قصته، بل قطعها وقد خامره إحساس بالضيق، ولم تقل له إيرينا شيئًا في هذه المرة، ولم تحثّه على المضي في قصته، بل ضغطت راحتها على عينيها كأنما هي متعبة، واضطجعت على الكرسي ببطء، وظلت بغير حراك. وانتظر لتفينوف قليلا، ثم تذكر أن زيارته قد دامت أكثر من ساعتين، فمد يديه يريد قبعته، وإذا بصوت حذاء من جلد الماعز ينبعث من الحجرة المجاورة، وفاليريان فلاديميروفتش راتيمروف يدخل مسبوقًا بعطره الأرستقراطي البديع.

ونهض لتفينوف، وتبادل الانحناء مع الجنرال الوسيم، بينما رفعت إيرينا يدها عن وجهها في غير عجلة. وقالت بالفرنسية وهي تنظر إلى زوجها نظرة باردة:

ـ آه، لقد عدت! ولكن كم الساعة الآن؟

فأجابها الجنرال:

ـ نحو الرابعة يا عزيزتي، وأنت لم تلبسي بعد. إن الأميرة تنتظرنا.

وحنى قوامه المحبوك نحو لتفينوف انحناءة رشيقة وقال بنبرته العابثة المتهالكة التي تكاد تكون أنثوية:

الظاهر أن ضيفك العزيز أنساك الوقت.

وليسمح لنا القارئ عند هذه النقطة أن نحدّثه بشيء عن الجنرال راتميروف. لقد كان أبوة ابنًا غير شرعي لشخصية ممتازة من عصر ألكسندر الأول، من ممثلة فرنسية صغيرة حلوة، وقد مهّد ذلك الشخص الممتاز لابنه طريقًا في الحياة، ولكنه لم يترك له مالا، ولم يتسع الوقت للابن (والد بطلنا) حتى يجمع ثروة، بل مات قبل أن يجاوز مرتبة كولونيل في البوليس، وكان قد تزوج قبل وفاته بعام من أرملة شابة حسناء اتفق أن استظلت برعايته، وأدخلت «الواسطة» ابنهما فاليريان ألكسندروفتش المدرسة الثانوية العسكرية، وهناك لم يجتذب انتباه الرؤساء بنجاحه في العلوم، بقدر ما اجتذبه بهندامه وآدابه وحسن سلوكه (وإن تعرّض لكل ما لم ينج منه تلاميذ المدارس الحربية في تلك الأيام). ثم عُيّن في الحرس، ووصل فيه إلى مركز ممتاز بفضل تودده المؤدب ومهارته في الرقص، وحُسن جلسته على ظهر الجواد في الاستعراضات (وكان غالبًا ما يستعير الجواد الذي يركبه) وقبل هذا كله كانت له براعة خاصة في رفع الكلفة مع الرؤساء من دون غضّ من قدرِهم، ونوع من الملق اللطيف المهذب تمازجه مسحة من التحرر باهتة خفية كالهواء.. إلا أن هذا التحرر لم يمنعه من أن يجلد خمسين فلاحا في

قرية من روسيا البيضاء بُعث إليها ليخمد ثورة، وكان جذَّاب المظهر، زاهر الشباب، مورّد الخدين، ناعمًا خفيفًا، فوفّق أعظم التوفيق مع النساء، وجنت به السيدات الأرستقراطيات الناضجات. وكان الحذر له عادة، والصمت ذريعة، فراح ينتقل بين أرقى الأوساط كنحلة نشيطة تجمع العسل حتى من أتفه الأزهار، وكان بلا خلق ولا علم، ولكن كانت له شهرة رجل عملي، وحماسة في معرفة الناس، ومقدرة على فهم الظروف، وكان له قبل ذلك كله عزم لا يتزعزع على منفعة نفسه، فتفتحت له الأبواب كلها في آخر الأمر.

ابتسم لتفينوف ابتسامة مغتصبة، بينما لم تزد إيرينا على أن هزت كتفيها، وقالت من دون أن يزايلها برودها:

ـ حسنًا هل رأيت الكونت؟

ـ نعم رأيته. وقد أمرني أن أبلغك تحيته.

ـ آه! ألا يزال نصيرك هذا غبيًا كما كان؟

فلم يجب الجنرال راتميروف، ولكنه ضحك ضحكة صغيرة من أنفه، كأنه يتجاوز عما في حكم المرأة من تسرّع، كانت ضحكته هي تلك التي يجيب بها الكبار الطيبون على نزوات الأطفال. واستمرت إيرينا تقول:

ـ نعم، إن غباء صديقك الكونت لشيء عجيب، وما أكثر ما رأيت من أعاجيب!

فتمتم الجنرال بين أسنانه:

ـ أنت التي أرسلتني إليه.

التفت إلى لتفينوف وسأله بالروسية إن كان يعالج نفسه بمياه بادن؟

فأجاب لتفينوف:

ـ إني بصحة تامة والحمد لله.

فمضى الجنرال يقول وهو يبتسم ابتسامة تودد:

ـ هذه أعظم نعمة. الحق أن الناس لا يأتون إلى بادن عادة طلبًا للمياه، ولكن المياه هنا طيبة الأثر je veu dire efficace وكل من يعاني سعالا عصبيًا مثلي..

فنهضت إيرينا مسرعة وقطعت بازدراء حديث زوجها قائلة بالفرنسية:

ـ نتقابل مرة أخرى يا جريجوري مهالتش، وأرجو أن يكون ذلك قريبًا ولكني يجب أن استعد للخروج الآن. إن تلك الأميرة لا تطاق بحفلاتها الدائمة التي لا تبعث إلا الملل.

فتمتم زوجها وهو يدلف إلى الحجرة المجاورة:

ـ أنت قاسية على كل إنسان اليوم.

وكان لتفينوف متجهًا إلى الباب فاستوقفته إيرينا قائلة:

– لقد أفضيت إليّ بكل شيء، ولكنك أخفيت عني أهم شيء.

– وما ذاك؟

– ألست خاطبًا؟ لقد سمعت ذلك.

فاحمر لتفينوف حتى أذنيه.. والحق أنه تعمد ألا يشير إلى تاتيانا، ولكنه أحسَّ بغيظ شديد لأن إيرينا كانت عالمة بزواجه، ثم لأنها اتهمته بالرغبة في إخفاء الأمر عنها. وحار في ما يقول، بينما لم ترفع إيرينا عينيها عنه. وأخيرًا قال:

ـ نعم، إني خاطب.

وانصرف على الفور.

وعاد راتميروف إلى الحجرة وسأل:

- حسنًا، لماذا لم تلبسي بعد؟

- اذهب وحدك، إني أحس صداعًا.

- ولكن الأميرة...

فقاست إيرينا زوجها من رأسه إلى قدمه بنظرة واحدة، وأولته ظهرها وذهبت إلى مخدعها.

-13-

سخط لتفينوف على نفسه سخطًا شديدًا، كأنه خسر في الروليت أو أخلف وعدًا. قال له صوت في باطنه إنه ما كان يجوز له، وهو على عتبة الزواج، وهو رجل رزين لا صبيّ حَدَث، أن يخضع لنوازع التطلع أو إغراء الذكريات. قال في نفسه: «ما كان أغناني عن الذهاب! الأمر من جانبها لا يعدو أن يكون نزوة طارئة، إنها مَلول إنها ضجرة بكل شيء. لقد اشتاقت إليّ كمن أتخمته أطايب الطعام فهو يتوق فجأة إلى الخبز الأسود.. حسنًا! إن هذا طبيعي جدًا.. ولكن لماذا ذهبت إليها؟ إنني لا أستطيع أن أحسّ نحوها شيئًا.. سوى الاحتقار! لم يستطع أن يفوه بهذه العبارة ـ حتى في خياله ـ إلا بجهد... وتابع أفكاره: ليس هناك أدنى خطورة بالطبع، ولا يمكن أن تكون. إنني أعرف من أواجه، غير أن المرء يجب ألا يلعب بالنار.. لن أضع قدمي في منزلها ثانية. ولم يجرؤ لتفينوف، أو لم يستطع حتى ذاك الحين، أن يعترف لنفسه كم بدت له إيرينا جميلة، وكم أحسّ أنه منجذب إليها.

ومضى اليوم مرة أخرى ثقيلا كئيبًا، واتفق أن جلس لتفينوف على الغداء بجانب رجل أنيق مصبوغ الشاربين، لم ينبس بكلمة، بل ظل يلهث ويدير عينيه في محجريهما. ثم أخذه الفواق فإذا هو روسي مثل لتفينوف، فقد صاح بالروسية في حرارة: «آه! ما كان يجب لي أن آكل الشمام!» ولم يحدث في المساء أيضًا ما يعوّض اليوم المفقود. وربح بنداسوف، أمام عيني لتفينوف،

أربعة أضعاف ما اقترضه منه، لكنه ـ بدلا من أن يرد له دينه ـ حدق في وجهه تحديقًا فيه شيء من الوعيد، كأنه مستعد لأن يقترض منه أكثر مما اقترض، لا لشيء إلا لأنه رأه يربح. وفي اليوم التالي غزاه مرة أخرى جحفل من مواطنيه. وتخلص لتفينوف منهم بصعوبة، وانطلق إلى الجبال.

التقى أولا بإيرينا فتجاهلها ومر بها مسرعًا، ثم التقى ببوتوجين. وكان موشكًا أن يبدأه بالحديث لولا أن بوتوجين لم يبدِ حماسة لإجابته، وكان ممسكًا بيد طفلة أنيقة الملبس، ذات خصل خفيفة ناعمة تكاد تكون بيضاء اللون، وعينين سوداوين واسعتين، ووجه صغير مدنف، عليه طابع الإصرار ونفاذ الصبر الذي يتّسم به الأطفال المدَلّلون. وأمضى لتفينوف ساعتين في الجبال، ثم سار في طريق لختتالر عائدًا إلى مسكنه.. وإذا هو بسيدة جالسة على مقعد، وعلى وجهها نقاب أزرق، تنهض مسرعة وتقبل نحوه، وعرف فيها إيرينا.

قالت بذلك الصوت المضطرب الذي يدل على انفعال كظيم:

– لماذا تتجنبني يا جريجوري ميهالتش؟

فأجفل لتفينوف:

– أنا أتجنبك يا إيرينا بافلوفنا؟

– أجل. أنت.. أنت..

وكانت إيرينا تبدو ثائرة إلى حد الغضب.

– أؤكد لك أنك مخطئة.

– لا. لست مخطئة. أتظنني لم أعرف هذا الصباح ـ حين ألتقينا – أنك عرفتني، أم تريد أن تقول أنك لم تعرفني؟ أخبرني!

– حقًا.. يا إيرينا بافلوفنا..

– جريجوري ميهالتش؟ أنت رجل صريح لقد كنت صادقًا معي دائمًا. أخبرني. أخبرني. ألم تعرفني؟ ألم تدر وجهك عامدًا؟

ونظر لتفينوف إلى إيرينا. كانت عيناها تلمعان ببريق غريب، بينما كان على خداها وشفتاها شحوب الموت تحت قناعها الكثيف. وكان في تعبير وجهها وفي همسها المتقطع شيء حزين ضارع لا سبيل إلى مقاومته.. فلم يستطع لتفينوف أن يمضي في إدعائه. قال بجهد:

– نعم.. عرفتك.

ارتجفت إيرينا رجفة خفيفة وأرخت ذراعيها وهمست:

– لماذا لم تأت إليّ؟

– لماذا؟ لماذا؟

ومال لتفينوف إلى جانب الطريق، وتبعته إيرينا صامتة. وردد مرة أخرى «لماذا!» واتّقد وجهه فجأة، وشدّ على قلبه وحلقه غضب مرير.

أتسألين بعد كل ما حدث بيننا! لا أعني الآن بالطبع، لا أعني الآن، بل هناك.. هناك.. في موسكو.

وبدأت إيرينا تقول:

ـ ولكنك وعدتني.. لقد وعدتني.

– لم أعدك بشيء! معذرة إذا تكلمت بخشونة، فإنك تريدين الحقيقة. احكمي أنت نفسك: كيف أفسّر.. لست أدري ماذا أسميه! كيف أفسّر إلحاحك ألا أن يكون لعبًا لا أفهمه، رغبة في أن تختبري مقدار سلطانك الباقي علي؟ لقد سار كل منا في طريق. لقد نسيتُ كل شيء، لقد قاسيتُ هذه المحنة منذ عهد بعيد. لقد أصبحتُ رجلا آخر، وأنت متزوجة، وسعيدة في الظاهر على الأقل، تشغلين مكانًا مرموقًا في المجتمع، فما الغاية وما الفائدة من لقائنا؟ ما أنا عندك؟ وما أنت عندي؟ إننا لا نستطيع حتى أن

نتفاهم الآن. لا شيء مشترك بيننا الآن، لا من الماضي ولا من الحاضر! وخصوصًا.. وخصوصًا الماضي.

قال لتفينوف هذا كله سريعًا متقطعًا، لم يلتفت أثناء كلامه، ولم تبد إيرينا حراكًا إلا أنها مدّت يديها نحوه بضعف. كأنها كانت تضرع إليه أن يسكت ويستمع إليها، ولكنها عضت شفتها السفلى عضًا خفيفًا عندما سمعت كلماته الأخيرة، وكأنها تريد أن تصمد لألم جرح حاد سريع.

وأخيرًا بدأت تقول في صوت أهدأ، وهي تزداد ابتعادًا عن الجادة، حيث كان المارة يعبرون من حين إلى حين:

- جريجوري ميهالتش!

وتبعها لتفينوف بدوره:

- جوريجوري ميهالتش! صدقني! إنني لو كنت أتوهّم أن لي ذرة من السلطان عليك، لكنت أول من يتجنّبك. فإن كنت لم أصنع ذلك، إن كنت قد جرؤت على أن أجدّد معرفتي بك، رغم... رغم الإساءة التي وجّهتها إليك في الماضي، فما ذلك إلا لأن... لأن...

فسأل لتفينوف بشيء من الفظاظة:

ـ لأن ماذا؟

فمضت إيرينا تقول بحدة مفاجئة:

ـ لأني لم أعد أحتمل، لأني أختنق في هذا «المجتمع» في هذه المكانة المرموقة التي تتحدث عنها، لأني إذ ألقاك أجد رجلا حيًا بعد كل هؤلاء الدمى ـ لقد رأيت نماذج منهم منذ ثلاثة أيام في القلعة القديمة ـ فأسعد بك كأنك واحة في الصحراء، بينما أنت تظنني أغازل، وتحتقرني وتصدّني محتجًا بأني أسأت إليك، لقد أسأت إليك حقًا، ولكني أسأت إلى نفسي أكثر مما أسأت إليك!

فقال لتفينوف مرة أخرى وبغير أن يلتفت أيضًا:

- لقد اخترت مصيرك بنفسك يا إيرينا بافلوفنا.

فقالت إيرينا مسرعة وكأنها تجد عزاءً خفيفًا في خشونة لتفينوف:

ـ أجل، لقد اخترته بنفسي، وأنا لا أشكو، ولا يحق لي أن أشكو. أنا أعلم أنك لا بد أن تظن بي السوء، ولن أبرئ نفسي. إني لا أريد لا أن أوضح لك إحساسي. أريد أن أقنعك أني لست أغازل الآن... أنا أغازلك! كيف! إن هذا غير معقول! عندما رأيتك انبعث كل ما كان شابًا ونبيلا فيّ... ذلك الزمن حين لم أكن بعد قد اخترت مصيري، كل ما في تلك الفترة المشرقة التي اختفت وراء هذه الأعوام العشرة...

ـ مهلا يا إيرينا بافلوفنا! إن مبلغ علمي أن إشراق حياتك يبدأ بالضبط منذ افترقنا...

وضعت إيرينا منديلها على شفتيها:

ـ إن ما تقوله شديد القسوة يا جريجوري ميهالتش، ولكني لا أستطيع أن أحس بحنقٍ عليك. كلا. لم يكن ذلك العهد مشرقًا. إنني لم أرحل عن موسكو لأغدو سعيدة، بل لم أعرف لحظة واحدة من السعادة.. صدّقني، مهما قيل لك. لو كنت سعيدة لما حدثتك كما أحدثك الآن.. أؤكد لك أنك لا تدري حقيقة هؤلاء الناس.. إنهم لا يفهمون شيئًا ولا يعطفون على شيء. حتى الذكاء[1] ni esprit ni intelligence ليس عندهم لا شيء إلا الـ faire savoit[2]. والخبث. وفي باطنهم لا يبالون بموسيقى ولا برسم ولا بشعر... سوف تقول لي إني أنا أيضًا لم أكن أبالي بشيء من ذلك. ولكن ليس إلى هذه الدرجة يا جريجوري ميهالتش.. ليس إلى هذه الدرجة! إن هذه التي

---

(1) «لا روح ولا عقل».

(2) «المكر».

تقف أمامك الآن ليست سيدة صالون، ما عليك إلا أن تنظر لترى ـ ليست «نجمة مجتمع» ـ أظنهم يلقبوننا بهذا الاسم ـ لكن مخلوقة مسكينة مسكينة، تستحق الرثاء حقا. لا تَعْجَب لكلماتي.. فكبريائي لا تعنيني الآن! إني أمد يدي إليك كشحاذة.. إني أسألك الصدقة..

وأضافت باندفاع وقد عجزت عن كبح نفسها:

ـ إني أسألك الصدقة، وأنت...

وتهدج صوتها ورفع لتفينوف رأسه ونظر إلى إيرينا، كانت أنفاسها تتلاحق وشفتاها ترتعشان. ودقّ قلبه سريعًا وسكت عنه الغضب.

ومضت إيرينا تقول:

ـ تقول إن كلا منا سار في طريق. وأعلم أنك على وشك الزواج عن حبّ، وأنك رسمت خطة حياتك. هذا كله صحيح، ولكننا لم نصبح غريبين كلّ منّا عن الآخر يا جريجوري ميهالتش. ما زلنا نستطيع أن نتفاهم، أم تظن أني سقطت تمامًا، أني غرقت في الوحل إلى أذني؟ كلا! أرجوك ألا تظن هذا! أرحني قليلا من هذه الحياة ـ أضرع إليك بحق الأيام القديمة نفسها، إن كنت تريد أن تنساها، إفعل هذا، حتى لا يمرّ لقاؤنا وكأنه ما كان فهذا مرير، ولن يطول لقاؤنا على كل حال... لست أدري كيف أوضح... ولكنك ستفهمني، لأني أريد شيئًا قليلا، شيئًا قليلا جدًا... لا أريد غير قليل من العطف، أريد ألا تصدّني وأن تَدَعَني أتنفس.

وكفت إيرينا عن الكلام وكان صوتها دامعًا. تنهدت ونظرت إلى لتفينوف نظرة باحثة شبه مختلسة ومدت يدها إليه.. فأخذ لتفينوف اليد وضغط عليها ضغطة خفيفة.

وهمست إيرينا:

– لنكن صديقين.

فردد لتفينوف حالمًا:

ـ صديقين.

ـ نعم صديقين أما إن كان هذا إسرافًا في الطلب، فليكن بيننا على الأقل شيء من الود.. لنكن كأن لم يحدث بيننا شيء من قبل.

فردد لتفينوف مرة أخرى:

ـ كأن لم يحدث بيننا شيء من قبل.. لقد قلت يا إيرينا بافلوفنا منذ برهة إني لا أريد أن أنسى الأيام الماضية.. فما قولك إن كنت لا أستطيع أن أنساها؟

فعبرت وجه إيرينا بسمة سعادة اختفت على الفور، وتلاها تعبير من الألم يوشك أن يكون رعبًا.

ـ كن مثلي يا جريجوري ميهالتش، تذكر الطيّب منها، وعدني قبل كل شيء.. عدني بشرفك..

ـ ماذا؟

ـ ألا تتجنبني، ألا تؤذيني من غير داع، أتعد؟ هيّا قل!

ـ نعم.

ـ وستبعد من عقلك كل فكرة سيئة عني؟

ـ نعم.. أما فهمك، فلن أحاوله.

ـ لا ضرورة لذلك.. على أنك بعد قليل ستفهم. أتعد؟

ـ لقد وعدتك فعلا.

ـ شكرًا لقد اعتدت أن أصدّقك، سأنتظرك اليوم وغدا. لن أخرج من المنزل. والآن يجب أن أتركك. إن عظمة الدوقة مقبلة على الطريق.. لقد لمحتني، ولابد أن أذهب لأكلمها.. وداعًا حتى نلتقي.. هات يدك! vite,

vite![1]. إلى اللقاء.

وبعد أن ضغطت إيرينا على يد لتفينوف بحرارة، سارت نحو سيدة وقور في منتصف العمر تتهادى على الممر المغطى بالحصباء، وفي صحبتها سيدتان أخريتان، وخادم جليل المنظر في بزة رسمية.

قالت السيدة عندما انحنت إيرينا باحترام:

- Eh bonjour, chére Madame, Comment allez-vous aujourd hui? Venez un peu avec moi[2].

فسمع صوت إيرينا يجيبها متملقًا:

[3] Votre altesse a trop de bonte

---

(1) «أسرع، أسرع!».

(2) «صباح الخير يا سيدتي العزيزة، كيف أنت اليوم؟ تعالي معي قليلا».

(3) «هذا عطف كبير من عظمتك».

-14-

انتظر لتفينوف حتى غابت الدوقة وحاشيتها عن نظره، ثم سار منحدراً في الطريق هو أيضًا، ولم يستطع أن يتبين مشاعره، فقد كان خجلا بل خائفا، وكان يحس مع ذلك بزهو... لقد أخذه حديث إيرينا على حين غرّة، وغرق من كلماتها السريعة المندفعة في سيل عاصف، وقال لنفسه: ما أعجب نساء المجتمع هؤلاء! متقلبات...ما أشد ما تفسد عن البيئة التي يعشن فيها، والتي يشعرن هنّ أنفسهن بفظاعتها!...وكان في الحقيقة لا يفكر في شيء من ذلك، ولكنه كان يكرر هذه العبارات المحفوظة تكرارًا آليا، وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه أفكارًا أخرى أشد إيلاما! أحس أنه يجب ألا يفكر الآن بجد فيندم، فجعل يمشي بخطى متثاقلة، يكاد يضطر نفسه إلى الانتباه لكل ما يصادفه... وفجأة رأى نفسه أمام مقعد، ولمح أمامه قدمين، فصعد بصره فوجدهما لرجل جالس على المقعد يقرأ صحيفة. وكان ذلك الرجل بوتوجين. وبدرت من لتفينوف نبرة تعجّب خافتة. فألقى بوتوجين. الصحيفة على ركبتيه ونظر إلى لتفينوف بانتباه وبغير أن يبتسم، ونظر لتفينوف إليه أيضًا بانتباه وبغير أن يبتسم.

وسأل أخيرًا:

- أتسمح لي أن أجلس بجانبك؟

- بكل سرور. ولكني أرجو ألا تغضب مني إذا حدثتني، فإني اليوم منقبض المزاج، ساخط على البشرية، يبدو لي كل شيء في أسوأ صورة.

فاجاب لتفينوف وهو يهبط على مقعده:

– هذا حسن يا سوزونت إيفاتش. الواقع أن هذا المزاج يناسبني جدًا. ولكن ما الذي أوصلك إليه؟

فأخذ بوتوجين يقول:

ـ في الحقيقة يجب ألا أسخط، فقد قرأت في الصحيفة منذ برهة مشروعًا لإصلاح المحاكم في روسيا. وقد سررت جدًا لأن قادتنا سلكوا السبيل الصحيح أخيرًا، فأبوا أن يضيفوا إلى المنطق الأوربي الواضح المستقيم ذيلاً من عنديانتا، متعللين بالأصالة أو الوطنية، بل أخذوا شيئًا طيبا بكل حذافيره، وإن كان أجنبيا. يكفي أننا تسامحنا في موضوع الأراضي الزراعية، فليس من السهل أن تلغي الملكية المشاعية! أجل، أجل، لا يحق لي أن أسخط، ولكني وقعت لسوء حظي على أحد «ذوي المواهب، الفطرية» وتحدثت معه، ويا ويلي من ذوي المواهب الفطرية، هؤلاء الذين علموا أنفسهم! أنهم سيجعلونني أتململ في قبري!

فسأل لتفينوف:

ـ من تعني؟

ـ أوه! هنا رجل يتسكّع ويتوهم أنه موسيقي عبقري. يقول لك: طبعا أنا لست شيئًا، أنا صفر، لأني لم أتعلّم، ولكن في رأسي أنغامًا وأفكارًا أكثر مما عند مايربير. وأنا أقول: أولًا، إذا لم تتعلم؟ وثانيًا: دعنا من مايربير، إن أحقر نافخ ناي ألماني، يؤدي دوره في أحقر أوركسترا ألمانية، لديه من الأفكار أكثر عشرين مرة مما لدى «ذوي المواهب الفطرية» مجتمعين. إلا أن عازف الناي يحتفظ بأفكاره لنفسه، ولا يهلل لها في بلاد مليئة بأمثال موزار وهايدن، أما صاحبنا: الموهبة الفطرية، فما أن يعزف فالسا أو أغنية عزفا مخلخلا حتى يضع يديه في جيبي بنطلونه وبسمة ازدراء على شفتيه، إنه عبقري! وهكذا الحال في الرسم وفي كل شيء آخر. آه من هذه المواهب

الفطرية! كم أبغضهم! كأن الناس جميعًا لا يعلمون أن هذه الهوشة الفنية والعلمية لا توجد إلا حيث لا فن حقيقي أصيل ولا علم حقيقي عميق الجذور. لقد حان الوقت لنطرح هذا التهويش، بل هذا الهراء السخيف، مع تلك العبارات الممجوجة من مثل قولهم: لا أحد يموت جوعا في روسيا... السفر البحري في روسيا أسرع منه في أي بلد آخر...نحن الروس لا أحد يستطيع أن يغلبنا... إنني أسمع دائمًا عن غنى الفطرة الروسية، وعن غريزة الروس التي لا تخطئ، وعن كوليبين... ولكن ما هذه الفطرة الفنية يا سادة؟ إنها ككلام النائم، أو كحكمة الحيوان. الغريزة! أي فخر! خذ نحلة في الغابة وضعها على مسافة ميل من بيتها، فستهتدي إليه. إن الإنسان لا يستطيع أن يصنع شيئًا كهذا، ولكن هل تقول إنه أحقر من النحلة؟ الغريزة لا تليق بالإنسان، ولو أصابت دائمًا. العقل، العقل السليم البسيط المستقيم هذا هو تراثنا وفخارنا. إن العقل لا يأتي بمثل هذه الغرائب، ولكنه عماد كل شيء. أما كوليبين الذي توصّل إلى صنع ساعات بالغة الرداءة من دون أن يعلم شيئًا عن الميكانيكا، فأعتقد أن ساعاته يجب أن تعرض على الملأ مع هذه العبارة: انظروا! هكذا يجب ألا تصنع الساعات. ليس لأحد أن يلوم كوليبين نفسه، ولكن عمله لا خير فيه. ولا بأس بأن تعجب بجرأة تياوشكين، وبراعته برجّ وزارة البحرية، ولكن لا حاجة بنا أن نصيح بأنه أظهر جهل المهندسين الألمان، وأن كل ما يعملونه هو سرقة أموالنا... فإنه لم يُظْهِر جهلهم مطلقًا، لأن البرج احتاج إلى إصلاح فلم يكن بد من رفع سقالة حوله وترميمه بالطريقة المعروفة. بالله لا تشجعوا قولهم في روسيا إن كل شيء يمكن عمله بلا تعلّم! كلا. قد يكون لك عقل سليم، ولكنك يجب أن تدرس، وأن تبدأ من ألف باء. وإلا فالجم لسانك واصمت وتواضع! أف! إن هذا يجعلني أغلي! ونزع بوتوجين قبعته وجعل يروِّح عن نفسه بمنديله. ثم عاد يقول:

الفن الروسي! الفن الروسي حقًا!.. إنني أعرف الغرور الروسي، والعجز

الروسي، أما الفن الروسي فأسمح لي أن أقول لك إني لم أعثر عليه قط. لقد مكثوا عشرين سنة يمجّدون ذلك النكرة الهزيل بريولوف، ويتوهمون أننا أنشأنا مدرسة في التصوير خاصة بنا، بل إن هذه المدرسة لا تقاس بها جميع المدارس الأخرى... الفن الروسي! ها ها ها! هو هو هو!

فعقب لتفينوف:

ـ معذرة يا سوزونت ايفانتش. أتأبى الاعتراف بفضل جلنكا أيضًا؟

ـ إن الشاذ كما تعلم يثبت القاعدة. على أننا لا نستغني عن التنفج حتى في أمر جلنكا. ولو قلنا مثلًا إن جلنكا موسيقار ممتاز حقًا، وأنه لولا ظروف خارجة عنه وأخرى خاصة به لكان منشئ الأوبرا الروسية، لو قلنا ذلك لما جادلنا فيه أحد ولكن لا! إننا لا يمكن أن نكتفي بهذا. بل يجب أن نرفعه فورًا إلى رتبة القائد الأعلى في الموسيقى. يجب أن نلزم الشعوب الأخرى حدها، فليس عندهم من يضارعه. وسيؤيدنا في ذلك عبقري وطني عجيب، لا تعدو ألحانه الكبرى أن تكون تقليدًا للموسيقيين الأجانب من الطبقة الثانية لأن تقليدهم أسهل. ليس عندهم من يضارعه! حقًا! يا لكم من برابرة بلهاء مساكين لا يقدّرون الفن، بل يرون الفنانين أشبه شيء ببطلنا رابو! فهم يقولون إن العملاق الأجنبي يستطيع أن يرفع مائة رطل بيد واحدة، أما رجلنا فيستطيع أن يرفع أربعمائة! ليس عندهم من يضارعه! إني أخبرك بشيء أذكره ولا أستطيع نسيانه: في الربيع الماضي زرت قصر البلّور قرب لندن، وفي القصر كما تعلم شبه معرض لكل ما ابتكرته عبقرية الإنسان، أو إن شئت دائرة معارف للإنسانية. جعلت أسير ذهابًا وجيئة بين الماكينات والآلات وتماثيل عظماء الرجال، وقلت لنفسي: لو حكم بأن الأمة التي تختفي عن وجه الأرض يختفي معها كل ما لها في قصر البلور لكان لأمّنا روسيا المقدسة أن تختبئ في أعماق الأرض بغير أن ينقل مسمار واحد من المكان. كل شيء يمكنه أن يستقر حيث هو. حتى السماور وأحذية الليف والشكيمة والسوط ـ منتجاتنا الشهيرة ـ لسنا نحن مخترعيها. ولكنك لا تستطيع أن

تجري هذه التجربة حتى مع سكان جزر ساندوتش، فهؤلاء الجُزُريون قد صنعوا قوارب ومزاريق خاصة بهم، فسوف يلاحظ زوار المعرض غيابهم. إنها معرة! لعلك تقول إن هذه قسوة. ولكني أجيبك أولاً أني لا أستطيع أن أهدل مثل الحمام وأنا أنظر إلى هذه العيوب، وثانيا أن الشيطان ليس هو وحده الذي يخاف المرء أن ينظر إلى وجهه، فما من أحد يجرؤ أن ينظر إلى نفسه، ولا الأطفال وحدهم هم الذين يهدهَدون حتى يناموا. لقد جاءتنا مخترعاتنا القديمة من الشرق، واستعرنا مخترعاتنا الحديثة من الغرب، وكدنا نفسدها بينما نصر على الحديث عن استغلال الفن الروسي، بل لقد اكتشف بعضهم علما روسيا أصيلا، وأن اثنين مضروبة باثنين تساوي أربعة عندنا كما هي عند سوانا، لكن يظهر أننا وصلنا إلى هذه النتيجة ببراعة أعظم!

فصاح لتفينوف:

ـ ولكن مهلا يا سوزونت ايفانتش! أرجو أن تنظر دقيقة! فأنت تعلم أننا نرسل بعض الأشياء إلى المعارض العالمية، كما أن أوربا تستورد منا أشياء.

ـ نعم. الخامات، ولا تنس يا سيدي العزيز أن خاماتنا الجيدة يرجع الفضل في جودتها إلى أشياء أخرى رديئة. فالشعر الذي نصدره مثلا كبير وقوي لأن خنازيرنا هزيلة، والجلود قوية وسميكة لأن أبقارنا نحيلة، والشحم دسم لأنه أغلى مع نصف اللحم.. ولكن لماذا أطيل عليك في هذا الكلام؟ لقد درست التكنولوجيا ولا ريب أنك تعرف هذا كله خيراً مني. إنهم يحدثونني عن قدرتنا على الابتكار! قدرة الروس على الابتكار! هؤلاء فلاحونا يشكون مُرّ الشكوى ويعانون الخسائر الفادحة لأنهم لا يجدون آلة صالحة لتجفيف القمح، تغنيهم عن وضع حزمهم في حجرة الفرن كما كانوا يفعلون أيام روريك. إن هذه الأفران عظيمة الضرر ـ مثلها في ذلك مثل أحذية الليف والحصر الروسية ـ وكثيرًا ما تسبب الحرائق، والفلاحون يشتكون، وليس هناك ما يبشر بآلة تجفيف لم لا تظهر آلات التجفيف؟ لأن الفلاح الألماني لا يحتاج إليها. لأنه يستطيع أن يدرس

قمحه كما هو، فلا حاجة به إلى اختراع مثل هذه الآلة. ونحن... نحن لا نستطيع أن نخترعها مهما نحاول. سأقول منذ اليوم كلما قابلت أحد هذه المواهب الفطرية، هؤلاء العباقرة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم: «مهلا يا صديقي الفاضل! أين آلة التجفيف، نريد أن نراها!» ولكن أنّى لهم هذا! إننا قادرون أن نلتقط حذاء أطرحه سان سيمون أوفورييه[1] منذ أجيال، فنضعه فوق رءوسنا ونعده أثرًا مقدسًا، وقادرون على أن نلفق مقالا عن الدور الذي لعبته البروليتاريا في مدن فرنسا الكبرى قديمًا وحديثًا، ولكني سألت مرة كاتبًا وعالمًا اقتصاديًا من هذا النوع ـ أشبه بصديقك السيد فوروشيلوف ـ أن يسمّي عشرين مدينة في فرنسا، فماذا تظنه فعل؟ لقد ألجأه اليأس إلى ذكر مونت فرمى على أنها مدينة فرنسية، ولعله تذكرها من قصة لبول دي كوك. وهذا يذكرني بقصة حدثت لي. كنت أجوس ذات يوم خلال غابة ومعي كلب وبندقية...

فسأل لتفينوف:

ـ أأنت من هواة الصيد؟

ـ إنني أخرج للصيد أحيانًا. فذات يوم كنت أبحث عن مستنقع ـ أطنب لي هواة الصيد في وصفه ـ لاصطياد الشناقب ـ وبينما كنت مارًا في فرجة من الغابة رأيت شابًا ظريفًا جالسًا أمام كوخ أحد تجار الخشب ـ ولابد أنه كان كاتب حساباته ـ وكان يبتسم لسبب لم أعلمه. فسألته: أين المستنقع، وهل فيه كثير من الشناقب؟ فانطلق مرحِّبا وقد بدا عليه السرور كأني منحته روبلا: «أي خدمة. المستنقع من الطراز الأول، أما الطيور البرية بأنواعها. يا سلام! إنها كما تريد وكثيرة». فانطلقت، غير أني لم أجد شيئًا من الطيور البرية. وكان المستنقع نفسه جافا منذ زمن طويل. خبِّرني الآن بربك: لماذا كان الروسي كذابا؟ لماذا يكذب عالم الاقتصاد، ولماذا الكذب عن الطيور البرية أيضًا؟

---

(1) فيلسوفان اشتراكيان فرنسيان، من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

فلم يجب لتفينوف، بل تنهد موافقًا، واستمر بوتوجين في حديثه:

ـ أما إذا حدثت هذا الاقتصادي نفسه عن أدق مشاكل علم الاجتماع، من دون أن تتجاوز حدود النظرية، أو تتناول الحقائق، فإنه يحلق كالطائر بل كالنسر. على أني نجحت مرة في اقتناص أحد هذه الطيور. وكان الفخ الذي استعملته فخًا بديعًا، وإن يكن ظاهرًا، كما سترى. كنت أتحدث مع واحد من شبابنا المتحرر في مختلف «المشاكل» كما يقولون، فتحمس، كعادتهم دائمًا، وانطلق يهاجم بحرارة صبيانية حقة، وكان من بين ما هاجمه نظام الزواج. وأوردت عليه الحجة بعد الحجة...فكأني أحدث جدارًا. ورأيت أني لن أغلبه بهذه الوسيلة، فخطرت لي فكرة موفقة! قلت له: «اسمح لي بملاحظة يا سيدي ـ ولابد أن تكون رسميا دائمًا حين تكلم هؤلاء الشباب المتحررين ـ إني لأعجب منك حقًا، فأنت تدرس العلوم الطبيعية، ومع ذلك غاب عنك أن جميع الحيوانات الجارحة وآكلة اللحوم، سواء أكانت وحوشًا أم طيورًا، لا بد لها أن تخرج باحثة عن الفريسة وأن تجتهد في الحصول على طعام حيواني لها ولأولادها... أظنك تعدّ الإنسان من جنس هذه الحيوانات؟» فقال «الشاب المتحرر»: «أجل إني أعد الإنسان من جنسها، ليس الإنسان إلا آكل لحم.» فزدت: «وجارحاً؟» فصرح: «وجارحاً.» قلت: «حسنا. فكيف إذن لم تلاحظ أن هذه الحيوانات تعيش أزواجاً؟» فانتفض «الشاب المتحرر»: «كيف هذا؟» قلت: «هو هذا. انظر إلى الأسد، والذئب، والثعلب، والنسر، والصقر... الواقع أنها لا يمكن أن تكون غير ذلك. فبالكاد يستطيع الأبوان أن يعولا صغارهما.» ففكر الشاب؟، ثم قال: «حسنا. يجب إذن إلا نقيس الإنسان على الحيوان.» وهنا قلت له إنه مثالي، ففزع وكاد يبكي واضطررت أن أطمئنه، بأن وعدته ألا أخبر أصدقاءه، فليس من الهيّن أن يستحق المرء أن يدعى مثاليًا! ولكن أهم نقطة يضل عندها شبابنا هي أنهم يتوهمون أن العمل السري المتواضع القديم قد مضى أوانه، وأن آباءهم الشيوخ لم

يكن أمامهم إلا أن يحفروا في باطن الأرض كالخلد، أما هم فلا يليق بهم مثل هذا العمل، فهم يقولون: سنعمل في وضح النهار! سننزل الميدان! يا أصدقائي المساكين حتى أبناؤكم لن ينزلوا إلى الميدان، فلماذا لا ترجعون إلى الحَفْرِ في بطن الأرض لتواصلوا عمل الأسلاف؟

وساد صمت قصير، ثم عاد بوتوجين يقول:

ـ أعتقد يا سيدي العزيز أننا لسنا مدينين للمدنية بالعلم والفن والقانون فحسب، بل إن الإحساس بالجمال والشعر يتطور أيضًا ويقوى بتأثير تلك المَدَنية نفسها، وأن ما يسمى بالخلق الفطري الشعبي إن هو إلا سخف وهذيان. حتى هوميروس نجد فيه آثار مدنية رافهة منوعة، حتى الحب يزداد بالمدنية غنى وعمقًا. لو لم يكن السلافوفيل أناسا طيبي القلوب لشنقوني على هذا الكفر، ولكني لن أغير رأيي، ومهما يقدموا لي من مدام كوهانوفسكي و«عش النحل» فإني لا أستطيع أن أحتمل رائحة ما يسمونه الـ Triple extrait de moujik Russe [1]، لأني لست من الطبقة الراقية التي تحتاج أن تطمئن نفسها من حين إلى حين إلى أنها لم تعد فرنسية خالصة، والتي لم يصنع ذلك الأدب En cuir de Russie [2] إلا لفائدتها. حاول أن تقرأ أمتع وأذيع القطع من «العش» على فلاح حقيقي، فسيظن أنك تقرأ عليه تعويذة تدفع شرّ الحُمّى وتُذْهِبُ داء السكر، أعود فأقول: إنه بغير المدنية لا يوجد شيء، حتى ولا الشعر، وإذا أردت أن تظفر بفكرة واضحة عن المثل الأعلى الشعري للروسي غير المتمدن فارجع إلى أغانينا وأساطيرنا. لن أطيل القول في أن الحب يصوَّر كأنه نتيجة للأشربة السحرية والتعاويذ، وأنه يسمى كهانة و«عملاً»، ولا في أن ما يسمى بأدب الملاحم عندنا هو الأدب الوحيد في الشرق والغرب ـ الأدب الوحيد ـ الذي لم يصور قط حبيبين

---

(1) «روح الفلاح الروسي».

(2) «ذو الجلد الروسي».

نموذجيين، إلا إذا كنت تصد فانكا وتانكا[1] من هذا الطراز، ولا في أن فارس روسيا المقدسة إنما يبدأ معرفته بعروسه المقبلة بأن يضربها على جسمها الأبيض «بسوطه المجدول»، «لأنه يجعل جنس النساء لينات كالحرير». سأترك هذا كله، لأنبّهك إلى الصورة الفنية للبطل الشاب، «للجان بروميه» كما رسمه خيال الصقلبي الساذج غير المتمدن. انظر إليه. ها هو «الجان بروميه» مقبلا، «عليه معطف من السنجاب صنعه لنفسه، وأتقن خياطته، وألحم غرزه، وحزام من سبعة أدرج من الحرير عقده بأناقة على صدره، وأصابعه مختفية في كمية الطويلين الجميلين، وياقته مرفوعة فوق رأسه تحجب وجهه المشرَّب بحمرة، وكذلك رقبته الطويلة البيضاء وقد أمال قبعته الصغيرة على جنب، ولبس في قدميه حذاء من الجلد البديع، له طرفان مدببان مقوَّسان وكعبان عاليان، بحيث يمكنك أن تدير بيضة حول الطرفين ويمكن أن يطير عصفور بين الكعب والنعل» وهذا الشاب الجميل يمشي بخطوات قصيرة سريعة مثل الكيبيادنا[2] ـ تشوريلو بلنكوفتش ـ الذي كان لمشيته المتصنّعة تأثير عجيب أشبه بالدواء في قلوب العجائز والفتيات. وما زال نُدُل الفنادق عندنا يمشون هذه المشية، فيخيل إليك حين يثبون بخطا صغيرة أن كل مفاصلهم محلولة. وهذه المشية هي زبدة الغندرة الروسية وزهرتها، غاية ما يتمناه الذوق الروسي. أنا لا أهزل. جمال الزكائب هذا مثل فني. ما رأيك في هذا النموذج؟ أتراه نموذجًا طيبًا؟ أتراه يقدم مادة جيدة للرسم والنحت؟ وتلك الحسناء التي تخلب لب البطل الشاب، ذات «الوجه الأحمر كدم الأرنب»؟ أظنك غير مصغ إليَّ.

وانتبه لتفينوف، إلى أنه لم يسمع في الحقيقة ما قاله بوتوجين. لقد كان يفكر تفكيرًا مستمرًا ملحًا في إيرينا، وفي لقائه الأخير بها.

---

(1) «إشارة إلى أغنية شعبية»

(2) الكيبادس قائد أثيني (450 ـ 404ق.م) اشتهر بجماله وثرائه وذكائه المفرط، وقدرته الحربية النادرة، ولكنه لم يكن يثبت على مبدأ، وكان شديد المهارة مع هواه، فلم يطمئن إليه الايكتيون وانتهت حياته بالقتل.

وبدأ يقول:

- معذرة يا سوزونت إيفانتش، ولكني سأتطفل عليك مرة أخرى بسؤالي السابق عن...عن مدام راتميروف.

فطوى بوتوجين صحيفته ووضعها في جيبه.

- أتريد أن تعلم مرة أخرى كيف عرفتها؟

- لا. ليس هذا ما أعنيه بالضبط. إني أود أن أسمع رأيك..في الدور الذي كانت تلعبه في بطرسبرج. ماذا كان ذلك الدور في الحقيقة؟

- لا أدري ماذا أقول لك يا جريجوري ميهالتش. لقد اتصلت بمدام راتميروف اتصالًا وثيقًا...غير أن ذلك الاتصال كان مصادفة محضة، ولم يدم طويلًا. ولم أطّلع قط على عالمها، بل ظل ما يحدث فيه مجهولًا لدي. وقد سمعت شيئًا من القيل والقال، ولكن الغيبة عندنا ـ كما تعلم ـ لا تسود الأوساط الديمقراطية وحدها. ثم إني لم أكن أسأل. وأضاف بعد صمت قصير:

- ولكني أراك مهتما بها.

- نعم. لقد تحدثت معها مرتين بكثير من الصراحة، إلا أني لا أزال أتساءل: أهي صادقة؟

فخفض بوتوجين بصره وقال:

- إنها ككل امرأة عاطفية، تَصْدُقُ حين يغلبها وجدانها. ثم إن الكبرياء كثيرًا ما تمنعها من الكذب.

- أهي متكبرة؟ أغلب ظني أنها عنيدة.

- بل متكبرة كالشيطان. ولكن هذا لا يعيبها.

- يخيل إليَّ أنها تبالغ أحيانًا...

- ليس هذا بسيئ أيضًا. إنها صادقة مع ذلك. وبعد فأين تجد الحرص على الحقيقة؟ إن خير نساء المجتمع هؤلاء عفنات حتى نخاع عظامهن.

- ألا تذكر يا سوزونت إيفانش أنك سميت نفسك صديقها؟ ألم تجبرني إجبارًا على زيارتها!

- وماذا في ذلك؟ لقد سألتني أن أجيء بك. فلم أر بأساً بذلك. ثم إني صديقها حقًا. إنها لا تخلو من خير، فهي كريمة، أعني أنها تسخو على غيرهما بما لا تحتاج هي إليه. ولكنك بلا ريب تعرفها قدر ما أعرفها على الأقل.

- كنت أعرف إيرينا بافلوفنا منذ عشر سنين، ولكن منذ ذلك الحين...

ـ آه! ماذا تقول يا جريجوري ميهالتش، أتظن أن أخلاق الإنسان تتغير؟ كما يكون المرء في المهد يكون في اللحد، أم لعلك (وهنا بالغ لتفينوف في خفض رأسه)... أم لعلك خائف أن تقع في شباكها؟ لا شك أن هذا... ولكن المرء لا بد له بطبيعة الحال أن يقع في شباك امرأة ما.

فضحك لتفينوف ضحكة مغتصبة:

- أتظن ذلك؟

- لا مفر من هذا. الرجل ضعيف، والمرأة قوية، والمصادفة قادرة على كل شيء، واحتمال حياة لا مسرة بها أمر عسير، ونسيان المرء نفسه جد مستحيل... وفي أحد الجانبين، الجمال والعطف والدفء والنور، فكيف يستطيع المرء أن يقاوم؟ إن المرء ليسرع إليها كما يسرع الطفل إلى حاضنته، حقا إنه يجيء بعد ذلك البرد والظلام والفراغ... في دورها الطبيعي. وينتهي الأمر بأن تصبح غريبًا عن كل شيء. في أول الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تحب، وفي أخر الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تعيش.

نظر لتفينوف إلى بوتوجين، وراعه أنه لم ير من قبل رجلا يشبهه في

وحدته ووحشته...وشقائه. في هذه المرة لم يكن خجولا ولا جامدًا، بل كان يجلس مطأطئ الرأس شاحبًا، ورأسه على صدره، ويداه على ركبتيه، وهو لا يتحرك بل يبتسم ابتسامته الحزينة. وأحس لتفينوف بالأسى لذلك الرجل السوادوي الغريب.

بدأ لتفينوف يقول بصوت خفيض:

- لقد ذكرت إيرينا بافلوفنا في أثناء حديثها صديقة حميمة لها، أظنها - إن لم تخني الذاكرة - تسمى بيلسكي.. أو دولسكي.

فرفع بوتوجين عينيه الصغيرتين الحزينتين ونظر إلى لتفينوف ثم عقب متثاقلًا:

- آه! لقد ذكرت...حسنا، وماذا عنها؟

ثم أضاف وهو يتصنع التثاؤب:

- آن أن أعود إلى مسكني للعشاء. في أمان الله.

وترك المقعد فجأة، ومضى قبل أن يستطيع لتفينوف النطق بكلمة. فاستحال عطفه سخطا، سخطا على نفسه طبعًا، فما كان التطفّل من أخلاقه، ولكنه أراد أن يعبّر عن عطفه نحو بوتوجين، فإذا به يلمزه لمزا غير رقيق. فعاد إلى فندقه معذّب الضمير.

وبعد قليل كان يقول لنفسه: «عفنة حتى نخاع عظامها...ولكنها كالشيطان! هي - تلك المرأة التي تكاد تركع أمامي - متكبرة وليست عنيدة؟»

وحاول أن يطرد من رأسه صورة إيرينا فلم يفلح. ولهذا السبب نفسه تعمّد ألا يفكر في خطيبته. فقد شعر أن تلك الصورة التي سكنت مخيلته لن تزول منها اليوم. فعزم على أن ينتظر انجلاء هذا «الأمر الغريب» من دون أن يزيد نفسه قلقًا.

لم يكن هذا الجلاء ليتأخر طويلًا، ولم يخامر لتفينوف أدنى شك في أنه

سيأتي بلا عناء ولا عسف. هكذا كان يحدّث نفسه، بينما ظلت صورة إيرينا ماثلة أمامه، وكل كلمة قالتها تعود ـ بدورها ـ إلى ذاكرته.

وأحضر إليه خادم الفندق بطاقة، وكانت أيضًا من إيرينا: «إن لم يكن لديك ما تعمله هذا المساء، فأرجو أن تأتي. لن أكون وحيدة. سيكون لديّ ضيوف. وستنظر عن قرب إلى أصحابنا، إلى مجتمعنا. إني شديدة الرغبة في أن تطلع عليهم، وأتوقع أنهم سيظهرون بكامل روعتهم. يجب أن تعلم أي جو ذلك الذي أتنفس فيه. تعال. ستسعدني رؤيتك، أما أنت فلن تشعر بالضجر (أخطأت إيرينا في كتابة هذه الكلمة الروسية الأخيرة). أثبت لي أن حديثنا اليوم قد جعل كل خصام بيننا مستحيلًا إلى الأبد. المخلصة .أ.».

لبس لتفينوف سترة سهرة ورباط عنق أبيض، وانطلق إلى مسكن إيرينا. وكان يردد في نفسه وهو ذاهب: «لا ضرر...النظر إليهم... لماذا لا أنظر إليهم مرة؟ إنه مشهد مسلٍّ». مع أن هؤلاء الناس أنفسهم أثاروا فيه منذ أيام قلائل شعورًا آخر، لقد أثاروا فيه السخط والكراهية.

سار بخطا حثيثة وقد أنزل قبعته على عينيه، واغتصب ابتسامة على شفتيه، بينما كان بمبايف جالسًا أمام ندى فيبر يشير إليه من بعيد ليراه فوروشيلوف وبشتشالكن، ويصيح بحماسة: «أترون هذا الرجل؟ إنه حجر! إنه صخر! إنه صوّان!».

-15-

وجد لتفينوف عند إيريتا ضيوفا غير قليلين. فكان ثلاثة من الجنرالات الذين رأهم يوم النزهة، وهم الجنرال السمين، والجنرال الحَنِق، والجنرال المتسامح جالسين إلى منضدة للعب الورق في أحد الأركان، يلعبون «البشكة»، وليس في لغة الإنسان كلمات تعبّر عن وقارهم وهم يرمون الورق ويدبّرون الخطط، ويؤلفون بين البسطوني والكوبي.. لا شك الآن في كونهم من رجال الدولة! فهم يتركون للعوام ـ للبورجوا ـ تلك العبارات والإشارات الصغيرة التي تتردد عادة في أثناء اللعب، ولا ينطقون إلا بما لا غنى عنه من المقاطع، وإن أباح الجنرال السمين لنفسه أن يقول بحرارة بين رميتين ce satané a de pique [1] وعرف لتفينوف من بين الزوار سيدات كنّ في النزهة، ولكن كان هناك أيضًا سيدات أخريات لم يرهنّ من قبل. وكانت إحداهن عريقة في القدم حتى لتبدو كل لحظة وكأنها توشك أن تتداعى. وكانت تهزّ كتفيها العاريتين السمراوين القاتمتين المخيفتين، وتحجب فمها بمروحتها، وترمق راتميروف بعينيها اللتين تماثلان عيون الموتى. وعني بها راتميروف عناية كبيرة، فقد كانت ذات مكانة عظيمة في المجتمع الراقي، لأنها آخر من بقي من وصيفات الشرف للإمبراطورة كاترين. وكانت الكونتس «س» ملكة الضبابير تجلس عند النافذة متنكرة في

---

(1) «هذا الشيطان معه الاسباتي!».

زي راعية وقد أحاط بها الشبان، وكان المليونير الشهير فينيكوف الجميل ظاهرًا بينهم بمسلكه المترفّع وجمجمته المسطحة، وتعبير وجهه الوحشي الذي لا يرحم، كأنه وجه خان من بخارى أو هليوجابال من روما[1]. وكانت سيدة أخرى ـ هي أيضًا كونتة، وتُعْرَف تدليلا باسم «ليز» ـ تتحدث إلى محضر أرواح شاحب أشقر الشعر مرسله، وقد وقف بجانبهما سيد شاحب مرسَلُ الشعر أيضًا، لا يزال يضحك ضحك من يعني شيئًا ما. وكان هذا السيد أيضًا يؤمن بمخاطبة الأرواح، ولكنه جمع إلى ذلك هواية التنبؤ، فكان يستخرج من التلمود ورسائل القديس يوحنا نبوءات شتى عن أحداث عجيبة. ولم يتحقق حدث واحد من هذه الأحداث، ولكن هذه الحقيقة ما كانت لتزعجه قط، بل ظل مثابرًا على تنبؤاته، وكان الموسيقي العبقري صاحب المواهب الفطرية، الذي أثار في بوتوجين ذلك الحنق الشديد، جالسًا إلى البيانو يضرب على أوتاره بغير اعتناء d'une main distraite [2] وهو يديم التحديق في ما حوله تحديقًا زائغًا مبهمًا. وكانت إيرينا جالسة على أريكة بين الأمير كوكو ومدام س، وهي سيدة اشتهرت قديمًا بجمالها البارع وفكاهتها الحاضرة، واستحالت منذ أزمان إلى كمأة ذابلة تفوح منها رائحة زيت الصيام وبخار السم، وحين وقع نظر إيرينا على لتفينوف احمرّ وجهها ونهضت من مقعدها، وأقبل عليها فصافحته بحرارة، وكانت تلبس ثوبًا من الحرير الرقيق الأسود يزينه وشي ذهبي لا يكاد يُلحظ، وكانت كتفاها بيضاوين كاللؤلؤ، أما وجهها الذي بدا شاحبًا تحت فيض حمرته الوقتية فكان يتألق بزهو الجمال، بل بأكثر من الجمال. كان سرور خفي ـ يكاد يكون ساخرًا ـ يلمع في عينيها المسبلتين ويرتعش حول شفتيها.

تقدم راتميروف من لتفينوف، وبعد أن تبادل وإياه التحيات المألوفة، من دون أن يصحبها بتدلله المألوف، قدمه إلى سيدتين أو ثلاث: الطلل البالي،

---

(1) إمبراطور روماني حكم من 218 إلى 222 كان مشهورًا بجماله وقسوته وعمره.

(2) «بيد ذاهلة».

وملكة الضبابير، والكونتس ليز.. وقد رحبن به ترحيبًا جميلا، فقد كان لتفينوف ـ وإن لم ينتم إلى مجتمعهن، على حظ كبير من الوسامة، واجتذبهن وجه الشاب المعبّر، إلا أنه لم يعرف كيف يستبقي هذا الاهتمام، فقد كان قليل الخبرة بالمجتمعات، وكان يشعر بشيء من الخجل، وزاده اضطرابًا أن الجنرال السمين ظل يحدق فيه تحديقًا ملحًا، وكأنما كانت نظرته الثقيلة الثابتة تقول: «آها! أهذا أنت أيها الثائر؟ أيها المفكر الحر؟ إذن فقد جئت وقبعتك في يدك لتقدم فروض الولاء!» وأنقذت إيرينا لتفينوف فسهّلت له أن ينتقل إلى ركن قرب الباب، خلفها بقليل، فكانت تضطر كلما خاطبته أن تلتفت إليه، فيسحره انثناء جيدها الرائع، ويعب من شذا شعرها الخفي. ولم يفارق وجهها قط تعبير من الشكر رقيق وعميق: إنه الشكر ولا شيء غيره ما كانت تنم به تلك البسمات والنظرات. اضطر لتفينوف أن يعترف بذلك، فتوهّج فيه مثل هذا الشعور، وامتلأ قلبه بالندم والسرور والخوف.

وكانت تبدو في الوقت نفسه وكأنها تريد أن تسأله: «حسنًا ما رأيك فيهم؟» وكان هذا السؤال غير المنطوق يزداد وضوحًا في سمع لتفينوف كلما لفظ واحد من الضيوف كلمة سخيفة أو أتى عملا مزريًا. وقد حدث ذلك غير مرة في أثناء المساء. وذات مرة لم تستطع إيرينا إخفاء شعورها، فضحك ضحكًا عاليًا.

وكانت الكونتس ليز تؤمن بالخرافات، وتميل إلى الغرائب، فبعد أن شبعت من الحديث مع محضر الأرواح عن الموائد التي تدور، والأكورديون الذي يعزف بلا عازف، وما إلى ذلك، انتهت إلى سؤاله: هل ثم حيوانات يؤثر فيها التنويم المغناطيسي؟

فقال الأمير كوكو من بعد:

ـ هناك على كل حال حيوان واحد بهذا الوصف. أتعرفين ملفانوفسكي؟ لقد نوّموه أمامي وشد ما كان يشخر!

ـ أنت خبيث جدًا يا أميري. إني أتحدث عن الحيوانات الحقيقية.

[1] Je parle des bêtes

[2] Mais moi aussi, madame, je parle d'une bête...

قال الروحاني:

ـ بعض الحيوانات الحقيقية يتفق له ذلك، جراد البحر مثلا، أعصابه شديدة الحساسية، ومن السهل جعله في حالة هموذ تام.

فدهشت الكونتس دهشة عظيمة:

ـ ماذا؟ جراد البحر حقا! أوه! هذا ظريف جدًا! أود أن أراه! وأردفت تخاطب شابًا ذا وجه حجري كوجه دمية جديدة، وعليه ياقة حجرية أيضًا (وكان يفخر بأنه قد ندَى الوجه السالف الذكر برذاذ شلاّل نياجرا والنيل النوبي، وإن كان لا يذكر شيئا من أسفاره، ولا يعنى بغير النكات الروسية..).

قالت الكونتس تخاطب هذا الشاب:

ـ مسيو لوزهين. هل تسمح بأن تحضر جراد بحر سريعًا؟

فابتسم المسيو لوزهين ابتسامة مصطنعة وسأل:

ـ أيجب أن يكون جراد البحر سريعًا أم أحضره سريّعا؟

فلم تفهم الكونتة ما قاله وكررت:

ـ Mais oui جراد بحر.

فقاطعتهما الكونتس «س» بخشونة:

ـ آه؟ ماذا جراد بحر؟ جراد بحر؟

---

(1) «إني أتحدث عن الحيوانات».

(2) «وأنا أيضًا يا سيدتي أتحدث عن حيوان».

وكانت ضجرة لغياب السيد فرديه وأنكرت أن تغفل إيرينا دعوة هذا الفرنسي الذي لا نظير له في الظرف والخلابة. أما «الطلل البالي» فقد استبهم عليها كل شيء منذ زمن طويل، ثم إنها كانت صماء، فاكتفت بهز رأسها.

ـ oui, oui, vous allez voir [1] أرجوك يا مستر لوزهين.. فانحنى الرحّالة الشاب وذهب ثم عاد مسرعًا وكان يسير خلفه نادل يبتسم ابتسامة عريضة ويحمل طبقًا عليه جراد بحر أسود كبير.

صاح لوزهين:

ـ voici madame [2] الآن نستطيع أن نبدأ عملية جراد البحر! ها ها ها! (الروس هم دائمًا أول من يضحك لنكاتهم).

ـ هي هي هي!

بهذه الضحكة أدى الكونت كوكو واجبه متواضعًا كوطني مخلص يشجِّع كل المنتجات الوطنية (ونرجو القارئ ألا يدهش ويغضب. فمن ذا الذي يستطيع أن يزعم أنه لم يصفق لنكات أبرد من هذه، وهو جالس على مقعد بمسرح ألكسندر وقد أصابه الجو المحيط به بالعدوى؟).

قالت الكونتس: Merci, merci, Allons, allons, monsieur Fox, montreznous ça [3] ووضع النادل الطبق على منضدة مستديرة، وجرت حركة خفيفة بين الضيوف، وأشرأبت بعض العناق، إلا أن الجنرالات الجالسين إلى منضدة اللعب ظلوا محافظين على وقار جلستهم. ونفش الروحاني شعره، وعبس وبسر، ثم اقترب من المنضدة وأخذ يحرك يديه في

---

(1) «نعم ـ نعم، سترون».

(2) «إليك يا سيدتي».

(3) «شكرًا، شكرًا، هيا يا مسيو فوكس، أرنا».

الهواء، فتمطى جراد البحر، ورقد على ظهره، ورفع مخالبه، وكرر الروحاني حركاته وأسرع فيها، وجراد البحر لا يزال يتمطى.

فسألت الكونتس:

ـ mais que doit- elle donc faire?[1]

فأجابها المستر فوكس بفرنسية تغلب عليها نبرة أمريكية بينة:

ـ يجب أن يبقى ساكنًا ويقف على ذيله.

وحرك أصابعه فوق الطبق بجهد تشنجي، ولكن التنويم لم يفلح، وظل جراد البحر يتحرك، وأعلن الروحاني أنه ليس في حال من التهيؤ النفسي تساعده على العمل، وابتعد عن المنضدة في سخط ظاهر، وأخذت الكونتة تعزيه مؤكدة أن مثل هذا الفشل يتفق أحيانًا للمستر هوم نفسه.. وأمن الأمير كوكو على ما ذكرته. وتسلل أستاذ التلمود ورسائل القديس يوحنا إلى المنضدة، وأخذ يحرك أصابعه حركات سريعة عنيفة صوب جراد البحر، مجرِّبًا حظه هو أيضًا، ولكن من دون فائدة، إذ لم يظهر على جراد البحر أية علامة من علامات الهمود، عندئذ نودي النادل، وأُمر أن يأخذ جراد البحر، ففعل ذلك وهو يبتسم ابتسامته العريضة. وسُمع ينفجر ضاحكًا خارج الباب.. وتلا ذلك ضحك كثير في المطبخ uber diese Russen[2]. وكان العبقري الذي علّم نفسه قد بدأ يعزف أثناء التجارب على جراد البحر، ملتزمًا نغمات حزينة، زعمًا بأن للموسيقى تأثيرًا لا يمكن معرفته أو التكهن به. فلما انتهت هذه التجارب عزف فالسه الذي لا يتغير، وقوبل باستحسان عظيم طبعًا، ولذعت الغيرة الكونت هـ. الهاوي الذي لا يبارى (انظر الفصل الأول). فغنى أغنية صغيرة من تلحينه، سرقها جملة من أوفنباخ. وكانت كل السيدات تقريبًا يحركن رءوسهن يمنة ويسرة مع جوابها المرح (quell

---

(1) «ولكن ماذا يجب أن يعمل؟».

(2) «من هؤلاء الروس».

(oeuf, quell boeuf [1]). ويبلغ الطرب إحداهن أنها تنهدت برقة. وكانت الكلمة التي لا بد منها charmant! charman!.. تتردد على كل شفة وتبادلت إيرينا نظرة مع لتفينوف، واختلج على شفتيها مرة أخرى ذلك المعنى الساخر المستتر.. ولكنه لم يلبث أن صرّح بل مازجه شيء من التشفي عندما بدا للأمير كوكو، ممثل مصالح النبلاء وراعيها، أن يبسط أراءه لمحضر الأرواح، فأعاد بالطبع عبارته المشهورة عن تزعزع مبدأ الملكية، وأردفها طعنًا شديدًا في الديمقراطيين. وثار الدم الأمريكي في عروق محضر الأرواح، وأخذ يجادل، فجعل الأمير يصيح كعادته بأعلى صوته، ويستعيض عن كل نقاش بأن يكرر من دون انقطاع C'est absurde! Cela n'as pas le ens commun [2] وبدأ المليونير فينيكوف يقذف بألفاظ السباب، من دون أن يبالي من يصيب، وأصبح صوت التلمودي صغيرًا، وصوت الكونتس «س» صريرًا.. نعم، لقد ثارت ضجة متنافرة لا معنى لها كتلك التي ثارت عند جوباريوف، ولم يكن ثمة فارق إلا انعدام البيرة ودخان التبغ، وأن الناس هنا أحسن ملبسًا ممن عند جوباريوف. وحاول راتميروف أن يعيد السلام (فقد أظهر الجنرالات استياءهم، وصارح بوريس encore cette satanépolittique)[3] لكن جهوده لم تنجح، وضمن لها الفشل أن أحد الحاضرين وكان موظفًا كبيرًا من ذلك الطراز المتسلل المتطفل، أخذ على نفسه أن يعرض le resumé en peu de mots [4] ـ فجعل يطن وينبح، ويبدأ ويعيد عاجزًا عجزاً بيّناً عن سماع الاعتراضات الموجهة إليه أو فهمها، قاصرًا قصورًا واضحًا عن إدراك لبّ «المسألة» la question فانتهت وساطته كما ينبغي أن تنتهي. وزاد الأمر سوءًا أن إيرينا كانت تستثير المتجادلين بخبث، تغري بعضهم ببعض، بينما هي تتبادل النظرات والإشارات السريعة مع لتفينوف.. ولكنه كان جالسًا

---

(1) «أي بيضة؟ أي بقرة؟».

(2) «هذا مضحك! هذا غير معقول».

(3) «هذه السياسية اللعينة مرة أخرى».

(4) «الخلاصة في قليل من اللكمات».

كأنما انعقد لسانه، لا يسمع شيئًا، ولا ينتظر شيئًا، إلا أن تلمع هاتان العينان الرائعتان مرة أخرى، وأن يضيء عليه ذلك الوجه الشاحب الرقيق العابث البديع مرة أخرى.. وانتهى الأمر بأن ضجرت السيدات ورجون أن ينقطع الجدال.. وسأل راتميروف الهاوي أن يعيد أغنيته وعزف العبقري العصامي فالسه مرة ثانية..

بقي لتفينوف حتى جاوز الليل منتصفه، وكان أخر من ودّع، ودار الحديث في أثناء الليل حول عدد من الموضوعات، أخليت بعناية من كل ما يثير الاهتمام. وبعد أن انتهى الجنرالات من لعبتهم البهية، اشتركوا في الحديث ببهاء. وسرعان ما ظهر نفوذ هؤلاء الكبراء، فقد دار الحديث حول بنات الهوى الباريسيات الشهيرات، اللواتي بدا كل امرئ عليمًا بأسمائهن ومواهبهن، وحول مسرحية ساردو الأخيرة، وقصة لآبو، ويأتي في «الترافيانا» واقترح أحد الحاضرين لعبة السكرتيرة ولكن اللعبة لم تنجح، فقد كانت الإجابات فاترة ولم تخل أحيانًا من غلطات نحوية، وروى الجنرال السمين أنه سئل مرة:

Qu'est-ce que l'amour [1] فأجاب:

Une coplique remontée au coeur [2] وانطلق يضحك ضحكته الجافة، فضربته الطلل البالي بمروحتها على يده، فسقطت قطعة من الجص عن جبينها لهذا الاندفاع، وبدأت الحيزبون تذكر الإمارات الصليبية وضرورة نشر الدعاية الارثوذكسية في وادي الدانوب، ولكنها لم تلق جوابًا فصفرت وسكتت. وقد تحدثوا في الحقيقة عن هوم أكثر مما تحدثوا عن أي شيء سواه، ووصفت ملكة الضبابير كيف رأت هي نفسها يدين تزحفان عليها، وكيف وضعت خاتمها في أصبع إحدى اليدين.

لقد انتصرت إيرينا أي انتصار، وحتى لو أعار لتفينوف ما يقال حوله

---

(1) «ما الحب؟».

(2) «إمساك يصعد إلى القلب».

اهتمامًا أكبر لما استطاع أن يلتقط من خلال ثرثرتهم المتقطعة الخامدة جملة واحدة صادقة، ولا فكرة واحدة ناصحة، ولا حقيقة واحدة طريفة. حتى صيحاتهم لم يكن فيها انفعال صادق، وهجومهم لم تكن فيها حدة صادقة. إلا أنك كنت تسمع بين الحين والحين صرخة عداء تفلت من تحت قناع الحمية الوطنية، أو الكبرياء المتألهة، معبرة عن خوفهم من الخسارة المالية، وبضعة أسماء لن تنساها الأجيال القادمة ينطقونها بين صرير الأنياب.. ولا تجد تحت كل هذه الضوضاء وهذا الهراء قطرة واحدة من ماء الحياة، يا للعبث السخيف، يا للتفاهات الممجوجة التي تمتص كل الرءوس والقلوب. لا في ذلك المساء وحده، ولا حين يجتمعون فقط، بل في بيوتهم أيضًا، في كل ساعة وفي كل يوم، في طول وجودهم وعرضه! ويا لجهلهم إذا قالوا كل ما لديهم! ما أعجزهم عن فهم كل ما بنيت عليه الحياة الإنسانية، كل ما فيها الحياة من جمال!

وحين ودعت إيرينا لتفينوف شدّت على يده مرة أخرى وهمست معرضة:

ـ حسنًا أيكفيك ما رأيت؟ إنه بديع أليس كذلك؟

فلم يجبها، ولم يزد على أن انحنى انحناءة كبيرة صامتة.

وبقيت إيرينا وحيدة مع زوجها. وكانت تهم بالذهاب إلى حجرة نومها حين استوقفها قائلا وهو يستند على رف المدفأة ويدخن لفيفة:

Je vous ai beaucoup admirée ce soir, madame, vous vous êtes parfaitement moquée de nous tous[1].

فأجابت دون مبالاة:

Pas plus cette fois que les autres [2]

(1) «لقد أعجبت بك الليلة يا سيدتي ـ إنك سخرت منا جميعًا سخرية بارعة».

(2) «لم أكن هذه المرّة أكثر سخرية من المرات الأخرى».

فسألها راتميروف:

ـ ماذا أفهم مما تقولين؟

ـ لك أن تفهم ما تريد.

ـ مم... C'est clair [1]

ونفض راتميروف رماد اللفيفة بطرف ظفر خنصره الطويل، في عناية أشبه بحركات القط، ومضى يقول:

ـ على فكرة! صديقك الجديد هذا ـ ما اسمه؟ ـ السيد لتفينوف... لعله معروف بذكائه الشديد؟

والتفتت إيرينا إليه مسرعة عندما سمعت اسم لتفينوف:

ـ ما الذي تعنيه؟

فابتسم الجنرال:

ـ إنه يلتزم الصمت.. وواضح أنه يخشى أن يتورط إذا تكلم. فابتسمت إيرينا أيضًا ولكن ابتسامتها لم تكن كابتسامة زوجها.

ـ الصمت خير من الكلام.. كما يتكلم بعض الناس.

فأجاب راتميروف وهو يتظاهر بالاستسلام:

ـ Attrpé! [2] ولكنه ـ من دون مزاح ـ ذو وجه جذاب، وجه يبدو عليه الجد.. وسلوكه عامة.. أجل ـ وأصلح الجنرال رباط عنقه، وألقى برأسه إلى الخلف متأملا شاربيه ـ أخاله جمهوريًا كصديقك الآخر بوتوجين. وهذا أيضًا أحد أصدقائك البكم الأذكياء.

---

(1) «هذا واضح».

(2) «وقعت!»

وارتفع حاجبا إيرينا ببطء فوق عينيها الشاخصتين الصافيتين، وزمّت شفتيها زمة خفيفة، وقالت في عطف ساخر:

ـ ما غرضك من هذا القول يا فاليريان فلاديميروفتش؟ إنك تطيش سهامك.. لسنا في روسيا، ولا أحد هنا يسمعك.

وكأنما لُسِعَ راتميروف. فبدأ يقول وقد انقلب صوته عاليًا خشنًا:

ـ ليس هذا رأيي فحسب يا إيرينا بافلوفنا، غيري يلاحظون أيضًا أن لهذا السيد مظهر المتآمرين.

ـ حقًا؟ ومن هؤلاء؟

ـ حسنًا.. بوريس مثلا..

ـ ماذا؟ أهذا أيضًا له رأي؟

وهزت إيرينا كتفيها كأنما لدغتها نسمة باردة، ومرّرت أصابعها ببطء عليهما.

ـ هذا أيضًا؟ نعم هذا أيضًا. اسمحي لي يا إيرينا بافلوفنا أن ألاحظ أنك غاضبة، وتعلمين أن الغضب...

ـ أنا غاضبة، أوه، لِمَ؟

ـ لا أدري، لعلك أستأت مما قلته عن...

فكررت إيرينا مستفهمة:

ـ عن... دعك من السخرية ولا تطل، فأنا متعبة ونعسانة.

وتناولت شمعة من فوق المائدة:

ـ عن... ؟

ـ حسنًا عن هذا السيد لتفينوف، فلا شك الآن أنك مهتمة به اهتمامًا كبيرًا.

فرفعت إيرينا اليد التي كانت تمسك بها حامل الشمعة حتى وازى اللهب وجه زوجها، ونظرت في عينيه مليًا وكأنها تتعجب، وفجأة انفجرت ضاحكة.

فسأل راتميروف متجهمًا:

ـ ماذا؟

واستمرت إيرينا تضحك. فكرر: «حسنًا، ما الأمر؟» ودق الأرض بقدمه. كان يحس أنه طُعن وأهين. وكان مع ذلك مأخوذًا بجمال هذه المرأة التي تواجهه بهذه الخفة والجسارة.. لقد كانت تعذبه، رآها كلها، كل مفاتنها، حتى ظل أظافرها الوردي على أطراف أناملها المرهفة وهي قابضة على إطار الحامل القاتم، أجل، حتى هذا لم يفته، بينما كانت الإهانة تنفذ في قلبه عميقة عميقة، وإيرينا لا تزال تضحك.

وأخيرًا نطقت بهذه الكلمات:

ـ ماذا؟ أنت؟ أنت تغار؟

وأولت الزوج ظهرها وخرجت من الحجرة، وسمع صوتها من وراء الباب «إنه يغار!» وأتاه مرة أخرى رنين ضحكتها.

لقد أتبعها راتميروف عينيه في شرود، ومرة أخرى لم يستطع ألا أن يرى فتنة قوامها وحركاتها، فحطم لفيفته على رخامة المدفأة بضربة عنيفة وألقاها بعيدًا، وشحب خداه فجأة، ومرت على أسفل وجهه رعدة متشنجة، وجالت عيناه حول أرض الحجرة تحملقان في غباء حيواني وكأنهما تبحثان عن شيء.. لقد اختفت من وجهه كل مظاهر الرقّة، ولابد أن هذا كان منظره حين جلد فلاحي روسيا البيضاء.

وكان لتفينوف قد عاد إلى مسكنه وظل جالسًا إلى المنضدة بلا حراك ورأسه بين كفيه، وأخيرًا نهض وفتح صندوقًا وأخرج منه حافظة استلّ من

أحد جيوبها الداخلية صورة شمسية لتاتيانا، وشخص إليه وجهها بحزن، وقد بدا قبيحًا هرمًا كما تبدو الصورة الشمسية عادة. كانت خطيبة لتفينوف فتاة روسية صميمة شقراء أقرب إلى الامتلاء، في ملامح وجهها بعض الغلظ، ولكن لها عينين عسليتين صافيتين تفيضان طيبة وحنوا، وجبينًا أبيض نقيًا كأنما استقر عليه شعاع من الشمس، ولبث لتفينوف برهة طويلة لا يحوّل نظره عن الصورة، ثم أزاحها برفق وأمسك رأسه بين يديه مرة أخرى، وأخيرًا همس:

ـ كل شيء انتهى يا إيرينا! إيرينا!

وفي هذه اللحظة وحدها أدرك أنه كان يحبها حبًا لا يعرف معنى العقل، وأنه أحبها منذ ذلك اليوم الذي لقيها فيه للمرة الأولى عند القلعة القديمة، وأنه لم ينسَ حبها قط. ومع هذا فكم كان يدهش ويستنكر لو قيل له ذلك قبل ساعات قليلة!

«ولكن تانيا، تانيا! رباه! تانيا! تانيا!» هكذا راح يردد في ندم، بينما تمثَّل له شبح إيرينا في ردائها الأسود الذي يشبه ثوب الحداد، وقد تألق على وجهها المرمري هدوء النصر.

- 16 -

لم ينم لتفينوف ليلته، ولم يخلع ثيابه، وكان شديد الهم، فقد كان أمينًا صريحًا، يعرف سلطان العهود، وقداسة الواجب، ويخجل أن يغالط نفسه فينكر ضعفه وسقوطه. واستحوذ عليه أول الأمر نوع من البلادة، فاستسلم لشعور مبهم لم يكد يستوضحه. ثم تملكه الفزع حين فكر أن مستقبله الذي كاد ينقاد له قد عاد فانزلق إلى الظلام، وأن بيته الركين الذي لم يكد يرفعه قد أخذ يتداعى من حوله.. وراح يلوم نفسه لومًا عنيفًا، ولكنه ما لبث أن تماسك، وقال: «هذا ضعف مني، ليس هذا وقت اللوم والندم بل وقت العمل. تانيا هي خطيبتي، وهي واثقة بحبي وشرفي، وقد ارتبطنا مدى الحياة، ولا يمكن أن ننفصل، بل يجب ألا ننفصل..». وتمثّل كل فضائل تانيا، وأطنب فيها، وأحصاها بعقله، وهو يحاول أن يوقظ في نفسه الرقة والحنان. وفكر مرة أخرى: «لم يبق لي إلا شيء واحد: أن أرحل من فوري ولا أنتظر عودتها، أن أسرع إلى لقائها. وقد أتألم، وقد أكون شقيًا مع تانيا ـ وإن كنت أستبعد هذا ـ ولكنني على كل حال يجب ألا أفكر فيه. يجب أن أؤدي واجبي ولو مت في سبيله!» فهمس صوت آخر في أعماق نفسه: «ولكن لا يجمل بك أن تخذعها، ليس من حقك أن تخفي عنها اختلاف مشاعرك، ألا يجوز أن تأبى الزواج منك حين تعلم أنك تحب امرأة أخرى؟» فيجيب: «كلام فارغ! كلام فارغ! ما هذه إلا سفسطة، مغالطة مخجلة، فضيلة كاذبة، لا يحق لي أن أحنث في كلمتي، هذا ما لا شك فيه، حسنًا، إذن لأرحل من هنا من دون أن أرى الأخرى...».

ولكن قلبه خفق خفقًا أليمًا حين قال ذلك، واعتراه برد، وأخذته رعدة، واصطكت أسنانه بضعف، وتمدد وتثاءب كأنه في حُمّى. ولم يصرّ على فكرته الأخيرة بل كبتها وراغ منها. إنما راح يتعجب ويتساءل كيف استطاع مرة أخرى أن يحب تلك المخلوقة الدنيوية المنحلة، التي كان يجد كل ما حولها بغيضًا منفِّرًا. وحاول أن يواجه نفسه بهذا السؤال: «ولكن حدثني: أتحبها حقًا؟» فما استطاع إلا أن يطرد السؤال على الفور بإشارة من يده. وكان لا يزال يتعجب ويتساءل بينما تصعد أمامه مما يشبه الضباب الناعم العبق صورة ساحرة، وترتفع أهداب طويلة حريرية، فتضرب العينان الرائعتان في قلبه بنعومة نافذة، ويرن الصوت رنينه الحلو، وتموج الكتفان المتألقتان، ككتفي ملكة، بأنفاس الفتوة والشهوة الناعسة.

* * *

حينما اقترب الصباح، كان قد انعقد في عقل لتفينوف عزم. لقد قرر أن يرحل في ذلك اليوم ليقابل تاتيانا، وأن يرى إيرينا للمرة الأخيرة ويخبرها بالحقيقة كلها، إذا لم يكن من ذلك بد، ثم يفارقها فراق الأبد.

فرتب أمتعته وحزم حقائبه، وانتظر حتى الساعة الثانية عشرة، ثم ذهب إليها. ولكن حين رأى نوافذها بستائرها المسبلة خانه قلبه... ولم يستطع أن يستجمع شجاعته ليدخل الفندق. فذرع شارع لختنتالر مرة أو مرتين ذهابًا وجيئة، وفجأة سمع صوتًا ساخرًا ينادي من فوق عربة خفيفة مسرعة: «أهلا وسهلا بالسيد لتفينوف!» ورفع لتفينوف عينيه ورأى الجنرال راتميروف جالسًا بجانب الأمير م. وهو رياضي شهير مشغوف بالعربات والجياد الإنجليزية. وكان الأمير يقود العربة، والجنرال منحنيًا إلى الأمام وقد مال إلى ناحية، وهو يبدي نواجذه مبتسمًا، ويرفع قبعته عاليًا فوق رأسه. وانحنى له لتفينوف، وهرع من فوره إلى مسكن إيرينا وكأنه يطيع أمرًا خفيًا.

كانت هناك، وبعث باسمه، فأُدخل على الفور، ووجدها واقفة وسط الغرفة في رداء صباحي واسع الكمين، ووجهها الشاحب، في غير نضرة البارحة، يبدو عليه التعب والإعياء، واستقبلت إيرينا زائرها ببسمة وانية زادت ذلك التعبير وضوحًا، ومدت إليه يدها في ود مازجه شرود.

بدأت تقول بصوت شاك وهي تغوص في كرسي منخفض:

ـ أشكرك على مجيئك، لست بخير هذا الصباح، فقد قضيت ليلة سيئة. حسنًا، ما قولك في ما رأيته البارحة، ألم أكن على صواب.

فجلس لتفينوف وبدأ حديثه قائلا:

ـ لقد جئت إليك يا إيرينا بافلوفنا...

فاعتدلت في جلستها فجأة، والتفتت إليه، وأثبتت فيه عيناها، ثم قالت في دهشة:

– ما بك؟ إنك شاحب كالأموات. إنك مريض؟ ماذا بك؟

فاضطرب لتفينوف:

ـ ماذا بي؟

ـ هل بلغك خبر سيء؟ هل حدث مكروه؟ أخبرني.. أخبرني.

ونظر لتفينوف بدوره إلى إيرينا. وأخيرًا قال في جهد:

– لم تبلغني أخبار سيئة، ولكن مكروهًا حدث، مكروه فظيع.. وهو ما جاء بي إليك.

– مكروه؟ ما هو؟

– هو.. أن...

وحاول لتفينوف أن يستمر في حديثه.. فلم يستطع. ولم يزد على أن

عقد يديه حتى طقطقت أصابعه. وكانت إيرينا منحنية إلى الأمام وكأنها استحالت حجرًا.

وأخيرًا ندت من صدر لتفينوف أنة خافتة:

- أوه! إني أحبك!

والتفت كأنه يريد أن يخفي وجهه.

- ماذا؟ أنا يا جريجوري ميهالتش...

ولم تستطع إيرينا أن تتم جملتها أيضًا، ووضعت كلتا يديها على عينيها.

- أنت.. تحبني؟

فردد في مرارة وهو يشيح بوجهه قليلا قليلا:

- أجل... أجل... أجل..

كان كل شيء في الغرفة ساكنًا، وثمة فراشة شاردة ترفرف بجناحيها، وتجاهد بين الستارة والنافذة.

واستأنف لتفينوف الحديث:

ـ هذا يا إيرينا بافلوفنا.. هذا هو المكروه الذي.. حلَّ بي، والذي كان يجب أن أتوقعه وأحاذره، لولا أنه دهمني فجأة كما حدث في أيام موسكو. كأن القدر يحلو له أن يضطرني مرة أخرى إلى معاناة العذاب بسببك. عذاب ما كنت أظن أنه يتكرر.. كان العقل يدعوني إلى المقاومة.. وحاولت أن أقاوم. ولكن لا مفر من القدر، وأنا أخبرك بكل هذا لأقطع فورًا هذه.. وأضاف بمزيد من الغضب والخجل ـ هذه المهزلة الأليمة.

ثم عاد لتفينوف إلى الصمت، وكانت الفراشة لا تزال تجاهد وترفرف. ولم ترفع إيرينا يديها عن وجهها، وجاء همسها من تحت هاتين اليدين البيضاويتين كأنما خلتا من الدم:

- أواثق أنت أنك لست مخطئًا؟

فأجاب لتفينوف بصوت باهت:

ـ لست مخطئًا، أنا أحبك، ومثل هذا الحب لم أحسّ به نحو غيرك قط، لا أريد أن ألومك، هذه حماقة، ولا أن أكرر أنك لو كنت عاملتني معاملة أخرى لما جرى من هذا شيء.. حقا، إنني أنا وحدي الملوم، جنت عليّ ثقتي بنفسي، هذا هو الجزاء الذي أستحقه. وما كان لك أن تقدّري ما سيكون.. لم يخطر ببالك طبعًا أنه كان أسلم لي لو لم تشعري أنك أسأت إلي ـ كما تتخيلين ـ ولو لم تحاولي الإصلاح.. ولكن ما كان كان. إنني لم أرد إلا أن أوضح لك موقفي، ولا حاجة بنا أن نزيد الأمر قسوة. على أنه لن يكون بيننا شيء من سوء التفاهم كما تسمينه، وسوف تخفف صراحة اعترافي مما لا بد أن تحسيه من أذى.

وكان لتفينوف يتكلم من دون أن يرفع عينيه. على أنه لو نظر إلى إيرينا لما رأى شيئًا مما يمر على وجهها، فقد أبقت يديها على عينيها كما كانتا. ولكن ما مرَّ على وجهها ربما كان خليقًا أن يذهل لتفينوف، لقد ارتسم عليه الخوف والسرور ونوع من البهر اللذيذ، ولمعت عيناها لمعانًا خفيفًا تحت أجفانها المسبلة، وكانت أنفاسها البطيئة المضطربة بردًا على شفتيها المنفرجتين الملسوعتين.

صمت لتفينوف ينتظر جوابًا أو نأمة.. ولا شيء. فبدأ يقول مرة أخرى:

- لم يبق إلا حل واحد، وهو أن أرحل، وقد جئت لأودعك.

فألقت إيرينا يديها ببطء على ركبتيها وبدأت تقول:

ـ ولكني أذكر يا جريجوري ميهالتش أن.. الشخص الذي حدثتني عنه سيأتي إلى هنا؟ ألست تنتظرها؟

ـ أجل، ولكني سأكتب إليها.. لتنتظر في بعض الطريق.. في هيدلبرج مثلا.

ـ آه هيدلبرج.. أجل.. بلدة جميلة، ولكن هذا كله ينقض خططك بلا شك. أأنت على ثقة من أنك لا تبالغ التقدير يا جريجوري ميهالتش.. et que ce n,est pas une fausse alarme?[1]

كانت إيرينا تتكلم بهدوء يوشك أن يكون برودًا، وهي تتوقف وقفات قصيرة، وتنظر نحو النافذة، ولم يجب لتفينوف على سؤالها الأخير. فاستمرت تقول:

- ولكن لماذا تتحدث عن الأذى؟ إني لست متأذية.. كلا! وإذا كان أحدنا ملومًا فلست أنت الملوم على كل حال، لست الملوم وحدك.. تذكر محاوراتنا الأخيرة، وسوف تتأكد أنك لست الملوم.

وتمتم لتفينوف من بين أسنانه:

- إني لم أشك قط في كرمك، ولكن أود أن أعلم هل تقرينني على عزمي؟

ـ على الرحيل؟

- أجل.

واستمرت إيرينا تنظر بعيدًا.

- لقد بدا لي أولا أن في قرارك شيئًا من العجلة، ولكني فكرت الآن في ما قلته... وإذا لم تكن مخطئًا فأظن أنه ينبغي أن ترحل. هذا خير.. لكلينا.

وكان صوت إيرينا قد أخذ ينخفض وينخفض، وكلماتها تبطئ وتبطئ، وبدأ لتفينوف يقول:

- حقا.. قد يلاحظ الجنرال راتميروف..

---

(1) أليست هذه صيحة كاذبة؟

ونكست إيرينا بصرها مرة أخرى، وارتعش على شفتيها بريق غريب.. لحظة واختفى. وقاطعته قائلة:

- لا. إنك لم تفهمني، لم أكن أفكر في زوجي. لم أفكر فيه؟ ليس هناك شيء يلاحظه. ولكن أفكر أن الفراق ضروري لكلينا.

والتقط لتفينوف قبعته التي سقطت على الأرض وفكّر: «لقد انتهى كل شيء. يجب أن أذهب..» ثم قال بصوت مرتفع:

- إذن لم يبق لي إلا أن أقول وداعًا يا إيرينا بافلوفنا.

وفجأة أحسّ بوخزة وكأنه يتأهب لينطق بحكم الإعدام على نفسه، وأكمل: - لم يبق لي إلا أن أمل ألا تذكريني بشر، و... وأننا لو...

فقاطعته إيرينا مرة أخرى:

- صبرًا يا جريجوري ميالهتش. لا تودعني الآن. هذه مفاجأة غير مستحبة.

وبدا أن شيئًا في لتفينوف يوشك أن يضعف، ولكن الألم المحرق انفجر في قلبه مرة أخرى بعنف مضاعف صاح:

- ولكني لا أستطيع البقاء! لِمَ أطيل هذا العذاب؟

فرددت إيرينا:

ـ لا تودّعني الآن.. يجب أن أراك ثانية. فراق أخرس كفراقنا في موسكو؟ كلا. إني لا أريد ذلك. تستطيع أن تذهب الآن، ولكن يجب أن تعدني ـ تعدني بشرفك أنك لن تذهب إلا بعد أن تزورني مرة أخرى.

ـ أتريدين هذا؟

- إني مصرة عليه، إذا ذهبت من دون أن تودعني فلن أسامحك. أتسمع، لن أسامحك أبدًا!

ثم أردفت وكأنها تخاطب نفسها:

- غريب، لا أستطيع أن أقنع نفسي أني في بادن.. لا أحس إلا أنني في موسكو.. اذهب الآن!

فنهض لتفينوف قائلا:

- إيرينا بافلوفنا! هاتي يدك!

فهزت إيرينا رأسها:

- قلت لك لا أريد أن أودعك..

- لا أريدها لوداع..

وكادت إيرينا تمدّ يدها، ولكنها نظرت إلى لتفينوف للمرة الأولى منذ اعترافه، فسحبتها وهي تهمس:

- لا لا، لن أعطيك يدي. لا لا، يجب أن تذهب..

فانحنى لتفينوف وخرج، ولم يستطع أن يعرف لم أبت عليه إيرينا هذه المصافحة الأخيرة.. لم يستطع أن يعرف ما إذا كانت تخاف.

ذهب وغاصت إيرينا في كرسيها، وغطت وجهها ثانية.

- 17 -

لم يعد لتفينوف إلى مسكنه، بل ذهب إلى الجبال، وانثنى إلى خميلة، فانبطح على الأرض، وبقي هناك ساعة. لم يكن يخاصم نفسه، ولم يكن يبكي، بل كان كمن يغيب عن وعيه في بطء مؤلم. لم يعرف قط مثل هذا الشعور. لقد كان فراغا مرهقا يأكل نفسه أكلا: فراغ في نفسه وخارج نفسه، في كل ما يحيط به. فلم يفكر في إيرينا ولا في تاتيانا، إنما أحسّ بشيء واحد: أحس أن الضربة وقعت فانقطعت الحياة كالحبل، وحملته قوة باردة غريبة، كان يخيل إليه أحيانًا أن إعصارًا انقضّ عليه، وكان يحسّ عَصْفَه، وخفق أجنحته السوداء. ولكن عزمه لم يتزعزع. البقاء في بادن... هذا ما لا يمكن التفكير فيه. لقد رحل بالخاطر فعلا، وإنه لجالس في عربة صاخبة دخنة، يسرع ويسرع في البعد الأخرس الميت ونهض أخيرًا، واعتمد برأسه على شجيرة، ولبث دون حراك، إلا أنه مد يده بلا وعي إلى العقدة العلية من شجرة سرخس، وراح يهزها هزات متناغمة.

ونبهه من همومه وقع أقدام مقتربة: كان حطابان ينحدران في شعب الجبل على ظهريهما زكيبتان كبيرتان. فهمس لتفينوف: «حان الوقت!» وتبع الحطابين إلى المدينة، ومال إلى المحطة، فأرسل برقية إلى كابيتولينا ماركوفنا عمة تاتيانا. وفي هذه البرقية أخبرها أنه راحل من فوره، وعيّن الملتقى في فندق شرادر بهيرلبرج.

كان يقول لنفسه: «أسرع. أسرع بإنهاء الأمر. لا فائدة من تأجيله إلى

الغد.» ودخل بهو القمار، وحدق بتطلع بليد في وجوه بعض المقامرين، ورأى عن بعد منظرا خلفيا لرأس بنداسوف الكريه، ورأى وجه بشتشالكن الواضح وبعد أن انتظر قليلًا في بهو الأعمدة، ذهب إلى إيرينا وقد استجمع عزمه. لم يدفعه إليها دافع فجائي قاهر، ولكنه حين قرر أن يرحل قرر أيضا أن يبرّ بوعده، وأن يذهب ليراها مرة أخرى. ولم يلحظه البواب حين دخل، ولم يصادفه أحد على السلم، ولم يطرق الباب بل دفعه بحرية إليه ودخل.

كانت إيرينا جالسة على نفس الكرسي، بنفس الثوب، في نفس الوضع كما تركها منذ ثلاث ساعات.. وكان جليا إنها لم تغادر مكانها، ولم تأت بحركة طوال ذلك الوقت. رفعت رأسها ببطء، فلما رأت لتفينوف ارتعد جسمها كله، وقبضت على ذراع الكرسي، وهمست:

- أفزعتني.

ونظر إليها لتفينوف بدهشة صامتة، فقد راعه تعبير وجهها وانطفاء عينيها.

وابتسمت إيرينا ابتسامة مغتصبة، وسوّت شعرها المشعث:

- لا ترع... أنا لا أدري في الحقيقة... لا بد أني نمت هنا.

فقال لتفينوف:

- عفوا يا إيرينا بافلوفنا، لقد دخلت من دون استئذان... أردت أن أعمل ما بدا لك أن تطلبيه مني، وبما أني راحل اليوم...

- اليوم؟ ولكني أظنك قلت أنك ستكتب خطابًا...

- لقد أرسلت برقية.

- آه! رأيت أن تسرع. ومتى تذهب؟ أعني في أية ساعة؟

الساعة السابعة مساء.

- آه! الساعة السابعة! وقد جئت تودعني؟

- نعم يا إيرينا بافلوفنا. جئت أودعك.

وصمتت إيرينا برهة:

- يجب عليَّ أن أشكرك يا جريجوري ميهالتش. لعل قدومك إلى هنا لم يكن هيّناً عليك.

- نعم إيرينا بافلوفنا. إنه لم يكن هيّنا.

- الحياة كلها غير هينة يا جريجوري ميهالتش. ألا ترى ذلك؟

- هذا يتوقف على أمور كثيرة يا إيرينا بافلوفنا.

وصمتت مرة أخرى، وكأنها غرقت في التفكير، وأخيرا قالت:

- أنت أثبتّ صدق عاطفتك نحوي بقدومك. شكرا لك. إنني أوافقك تمامًا على قرارك بإنهاء الأمر كله في أقرب وقت... لأن كل تأجيل... لأني أنا... حتى أنا التي اتهمتني بأني ملاعبة، وسميتني ممثلة... أظن هذه هي الكلمة التي قلتها، فعلت ذلك...

ونهضت إيرينا مسرعة، وجلست على كرسي آخر، وانحنت إلى الأمام وضغطت وجهها وذراعيها على حافة المنضدة. وهمست بين أصابعها المطبقة:

- لأني أحبك...

وترنح لتفينوف كأن أحدًا يضغط على صدره. وحولت إيرينا رأسها عنه بحزن، كأنها تريد بدورها أن تخفي وجهها عنه، ووضعته على المنضدة.

- أجل. أني أحبك... إني أحبك... وأنت تعلم ذلك.

قال لتفينوف أخيرًا:

- أنا؟ أنا أعلم؟ أنا؟

فمضت إيرينا تقول:

- حسنا. الآن ترى أنك يجب أن تذهب حقًا، وأن التأجيل محال. لا أنا ولا أنت نستطيع ذلك. إنه خطر، إنه مروِّع... وداعا!

وأضافت باندفاع وهي تنهض عن كرسيها: وداعا!

وسارت بضع خطوات نحو باب مخدعها، ووضعت يدها وراء ظهرها، وحرّكتها حركة سريعة في الهواء وكأنها تريد أن تلاقي يد لتفينوف وتضغط عليها، ولكنه وقف عن بعد كعمود من الحجر فقالت مرة أخرى:

- وداعا. انسني.

وذهبت مسرعة من دون أن تلتفت.

بقي لتفينوف وحيدا، ولكنه لم يستطع أن يثوب إلى نفسه. وأخيرًا جمع حواسه وذهب إلى باب المخدع، ونطق باسم إيرينا مرة ومرة ومرة... وكانت يده على القفل... وارتفع من درج الفندق صوت راتميروف الأغن...فجذب لتفينوف قبعته على عينيه. وخرج إلى الدرج. كان الجنرال الأنيق واقفا أمام مدخل البواب السويسري، يبين له بألمانية ركيكة أنه يريد استئجار عربة طوال اليوم. فلما وقع نظره على لتفينوف عاد فرفع قبعته عالية فوق رأسه و«رحّب» به ترحيبا شديدًا. وكان جليا أنه يهزأ به، ولكن لتفينوف ما كان ليهتم. فلم يكد يرد تحيته، ومضى إلى مسكنه حيث وقف أمام حقيبته المعدة المغلقة، ورأسه يدور، وقلبه يتذبذب كوتر قيثارة. ماذا يعمل الآن؟ وهل كان يستطيع أن يتوقع ذلك؟

أجل، إنه كان يتوقع ذلك وإن لم يستطع تصديقه. لقد فأجاه كالصاعقة، ولكنه كان يتوقعه، ولم يجسر على الاعتراف به لنفسه. ومع ذلك فإنه الآن غير واثق من شيء. كان كل شيء فيه يغلي ويضطرب. وانقطع حبل أفكاره. وتذكر موسكو، وتذكر كيف فاجأه «ذلك» من قبل تفاجأ العاصفة السفينة.

وانبهرت أنفاسه، وعربدت في قلبه نشوة يائسة مضنية كادت تخنقه. لا شيء في العالم كان يساوي عنده تلك الكلمات التي نطقت بها إيرينا... ولكن ماذا بعدها؟ إن تلك الكلمات ما كانت برغم كل هذا لتغير عزمه، بل ظل ثابتا كما كان راسخا كأنه المرساة. لقد انقطع خيط أفكاره.. نعم، ولكن بقيت له إرادته واقتاد نفسه كما لو كانت نفس رجلٍ آخر يعتمد عليه. فطلب خادم الفندق، وسأله عن حسابه، وحجز مكانا في عربة المساء. لقد تعمد أن يقطع على نفسه كل طريق للهرب، وصاح: «ولو مت في سبيله!» كما صاح في الليلة السابقة المسهدة، وكأنما أعجبته تلك العبارة.. وراح يردد وهو يقبل ويدبر في غرفته: «ولو متّ في سبيله!» ولكن كلمات إيرينا كانت تعود مرة بعد مرة فتغزو قلبه وتحرقه بمثل النار، فيغمض عينيه بلا إرادة، ويحبس أنفاسه، ويقول لنفسه: «لا أحسبك تحب مرتين. حياة أخرى تأتي إليك، وتدعها تمتزج بحياتك، فلا تخلص أبدًا من ذلك السم، ولا تحطم أبدًا تلك القيود! أجل، ولكن ما معنى هذا؟

السعادة؟.. أهي ممكنة؟ أنت تحبها، فلنسلم بذلك... وهي... هي تحبك..»

ولكنه هنا يعود فيستجمع قوته. وكما يرى المدلج في الليل البهيم ضوءًا أمامه فلا يحول عينيه عنه لحظة واحدة حتى لا يضل الطريق، كذلك وجه لتفينوف قوة انتباهه كلها نحو نقطة واحدة، نحو غرض واحد: أن يصل إلى خطيبته، وليس إلى خطيبته بالدقة (فقد كان يحاول ألا يفكر فيها) بل إلى غرفة في فندق هيدلبرج. ذلك ما كان له النور الهادي. أما ما يكون من بعد فلم يكن يعلمه، ولا يريد أن يعلمه...كان هناك شيء واحد لا يرتقى إليه الشك: إنه لن يعود. وردد للمرة العاشرة: «ولو مت!» ونظر إلى ساعته. السادسة والربع! ما أطول الانتظار! وذرع الغرفة مرة أخرى مقبلا ومدبرا. كانت الشمس على وشك المغيب، والسماء حمراء قانية فوق الأشجار، والشفق الوردي يسيل من النوافذ الضيقة إلى حجرته. وفجأة خيّل للتفينوف

أن الباب قد فتح وراءه في هدوء وسرعة، وأغلق في هدوء وسرعة كذلك... فالتفت، وإذا بامرأة في شملة سوداء تقف عند الباب.

- إيرينا!

فرفعت رأسها، وهوت على صدره.

وبعد ساعتين كان جالسا على أريكة في غرفته، وقد انزوى صندوقه في ركن، مفتوحاً فارغاً، وعلى المائدة بين ما نُثِرَ عليها من الأشياء رسالة من تاتيانا تلقاها منذ برهة، تقول فيها إنها عزمت على أن تعجل بالرحيل عن درسدن، إذ إن عمتها عوفيت تمامًا: فإن لم يَعُقْها شيء فسوف يكونان في بادن في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي. ورجت أن يقابلهما على المحطة. وكان لتفينوف قد استأجر لهما حجرة في فندقه.

وفي نفس المساء بعث بكلمة إلى إيرينا، فتلقى منها هذا الجواب في الصباح التالي:

«كان لا بد أن يحدث ذلك إن عاجلاً أو آجلاً. أكرر لك ما قلته البارحة: إن حياتي بين يديك، فأفعل بي ما تشاء. أنا لا أريد أن أحد حريتك، ولكني أقول لك إني سأرمي كل شيء وأتبعك إلى آخر الدنيا إذا اقتضى الأمر. سنلتقي غدًا بالطبع... حبيبتك إيرينا».

وكانت الكلمتان الأخيرتان مكتوبتين بخط كبير ثابت قوي.

-18-

كان لتفينوف بين المجتمعين على رصيف محطة السكة الحديدية في الثامن عشر من أغسطس عند الساعة الثانية عشرة. وكان قد رأى إيرينا منذ برهة... رآها جالسة في عربة مكشوفة ومعها زوجها وسيد آخر متقدم في السن. ووقع نظرها على لتفينوف، فلاحظ أن انفعالا غامضا لمع في عينيها، ولكنها سرعان ما تورات منه خلف مظلتها.

كان قد حل به انقلاب غريب منذ اليوم السابق ـ انقلاب شامل في مظهره وتعبير وجهه، وكان يحس حقيقة أنه رجل غير الذي كان. لقد تلاشت ثقته بنفسه، كما تلاشى هدوء ذهنه، واحترامه لذاته. لم يبق من حالته النفسية السابقة شيء، وإذ طغت تجارب حديثة لا تنسى على كل ما عداها، واستولى عليه إحساس قوي حلو خبيث لم يعهده قط من قبل، ونفذ ضيف غامض إلى محرابه الأقدس فاستحوذ عليه، ورقد فيه صامتا إلا أنه يتصرّف كالمالك في بيت جديد. لم يعد لتفينوف يشعر بالخجل، ولكنه كان خائفا، وكانت تتملكه مع ذلك شجاعة يائسة. الأسرى والمهزومون يعرفون مثل هذا الخليط من إحساسات متناقضة، كما يعرفه اللص بعد سرقته الأولى. وقد هزم لتفينوف فجأة... أين أمانته؟

تأخر القطار خمس دقائق فاستحال قلق لتفينوف إلى عذاب أليم، ولم يستطع أن يقر في مكان، بل ظل يتحرك في الزحام حركة ثقيلة وهو يحدث نفسه: «رباه! لو كان أمامي أربع وعشرون ساعة أخرى!»... أول نظرة إلى

تانيا، وأول نظرة من تانيا. هذا ما ملأه خوفا... هذا ما أراد أن يخلص منه سريعا.. ثم ماذا؟ ثم... ليكن ما يكون!.. لقد كفّ الآن عن التقرير والتدبير، لأن نفسه لم تعد ملكا له. وومضت في نفسه صيحة الأمس وميضا مؤلما... هكذا يلقى تانيا!..

وأخيرًا سمع صفير ممطوط، وكركرة ثقيلة تشتد كل لحظة، ولاح القطار ينثني في بطء عند منحنى من منحنيات الطريق. وأسرع الجمهور لاستقباله، وتبعهم لتفينوف يجر قدميه كرجل حُكم عليه بالموت. وأخذت تظهر من العربات وجوه وقبعات سيدات، ورفرف من إحدى النوافذ منديل أبيض... كانت كابيتولينا ماركوفنا تلوِّح له... انتهى الأمر. لقد رأته وعرفها. ووقف القطار، وأسرع لتفينوف إلى باب العربة وفتحه. كانت تاتيانا واقفة قرب عمتها، تبتسم بسمة مشرقة، وتمد إليه يدها.

وأعانهما كليهما على النزول، ورحّب بهما بكلمات تافهة مختلطة ثم جعل يضطرب هنا وهناك: يتناول تذكرتيهما وحقائب سفرهما وملاحفهما، ينطلق ليبحث عن حمال، ينادي ليستأجر مركبة. وكان سائر الناس من حوله في هرج، وكان مسرورًا بوجودهم وضجيجهم وصياحهم. وابتعدت تاتيانا قليلا، وانتظرت حتى يفرغ من تدابيره السريعة وهي لا تزال تبتسم. أما كابيتولينا ماركوفنا فكانت لا تستطيع قرارًا وكأنها لا تصدق أنها أصبحت أخيرًا في بادن.

صاحت فجأة:

- المظلتان! تانيا! أين المظلتان؟ ـ ولم تلاحظ أنها كانت قابضة عليهما بشدة تحت إبطها. ثم أخذت تودع سيدة صادفتها في الطريق من هيدلبرج إلى بادن وداعا صاخبا طويلا.

ولم تكن هذه السيدة إلا صاحبتنا مدام زوهانتشيكوف، وقد ذهبت إلى هيدلبرج لتقدم ولاءها إلى جوباريوف وعادت تحمل «توجيهاته». وكانت

كابيتولينا ماركوفنا تلبس شملة مخططة غريبة الشكل، وقبعة سفر يشبه شكلها شكل الكمأة، وينفر من تحتها شعرها الأبيض الخفيف. وكانت قصيرة نحيلة، يعلو وجهها احمرار السفر، وتتكلم الروسية بصوت منغَّم يخرق الأذن... فسرعان ما أخذ الناس ينظرون إليها.

وأخيرًا أجلسها لتفينوف مع تاتيانا في عربة، وجلس ازاءهما. وانطلقت الجياد، وأعقبها الاستفسار والمصافحة وتبادل البسمات والتحيات... وتنفس لتفينوف الصعداء. لقد مرت اللحظة الأولى بسلام، ولم يرع تاتيانا منه شيء ولا ارتابت بشيء، فقد كانت تبتسم بسمتها الوضيئة الواثقة، وتحمرّ احمرارها الفاتن، وتضحك ضحكها السمح وأخيرا فرض على نفسه أن ينظر إليها نظرة صريحة مباشرة لا سارقة عابرة ـ وكانت عيناه لا تطاوعانه على نظر إليها ـ فخفق قلبه بانفعال لا إرادي: لقد بعث فيه ذلك السلام الذي كان يلوح على وجهها الصريح الأمين لذعة تأنيب مرير، فقال في نفسه: «إذن فقد جئتِ يا بنيتي المسكينة، يا من كنت أستعجلها وأتشوّق إليها، وأريد أن أقضي معها العمر كله! لقد جئتِ. لقد وثقتِ بي.. وأنا.. وأنا..» وأطرق لتفينوف، ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تمنحه وقتا للتأمل، بل أخذت تمطره بالأسئلة:

– ما هذا البناء ذو الأعمدة؟ أين يلعبون القمار؟ من هذه المقبلة؟ تانيا! أنظري يا تانيا! ما أعجب هذه الرافعات! وهذه من عساها تكون؟ أظن أكثر هذه المخلوقات من باريس؟ يالله! أي قبعة هذه! اتجدون كل شيء في الحوانيت هنا كما في باريس؟ ولكن لا بد أن الأشياء باهظة الثمن! هه؟ يا لها من سيدة ذكية نادرة هذه التي تعرفت بها في القطار! أنت تعرفها يا جريجوري ميهالتش. وقد وعدت أن تزورنا. ما أروعها حين تنتقد هؤلاء الأرستقراطيين! من هذا السيد ذو الشاربين الأشيبين؟ أهو ملك بروسيا؟ تانيا، تانيا، انظري! ملك بروسيا! لا؟ ليس ملك بروسيا! سفير هولندا؟ أنا لا أسمع! العجلات تكركر كركرة! آه! ما أجمل الأشجار!

فوافقتها تاتيانا قائلة:

– نعم جميلة يا عمتي، وما أبهج كل شيء هنا وما أنضره! أليس كذلك يا جريجوري ميهالتش؟

فأجاب من بين أسنانه:

– نعم، بهيجة جدا.

ووقفت العربة أخيرا أمام الفندق، وقاد لتفينوف المسافرتين إلى الحجرة التي أعدّت لهما. ووعد أن يعود قبل ساعة، وذهب إلى حجرته. وما كاد يدخلها حتى استولى عليه من جديد ذلك السحر الذي نام لحظة. هنا في هذه الحجرة كان عرش إيرينا وتاجها منذ يوم، كان كل شيء يحدِّث عنها بلسان فصيح، والهواء نفسه كأنما علق به آثارا خفية منها... وأحس لتفينوف مرة أخرى أنه عبدها. أبرز منديلها الذي أخفاه في صدره، وضمه إلى شفتيه ففاضت في عروقه الذكريات اللاهبة كالسم. وعرف أن لا نكوص ولا خيار له الآن. لقد ذاب من نفسه العطف الحزين الذي أثارته تاتيانا كما يذوب الثلج في النار، وخبا الندم...خبا حتى اطمأن قلقه، ولم تعد فكرة الخديعة تثير اشمئزازه...الحب، حب إيرينا.. ذلك هو حقيقته الآن، هو قانونه، هو ضميره.. ولم يتمهل لتفينوف العاقل الحريص ليفكر في النجاة من موقف كان شعوره بفظاعته وشناعته لا يتجاوز الفكرة العابرة، وكأنه أمر لا يعنيه.

وما كادت الساعة تمر حتى جاءه خادم الفندق رسولا من النزيلتين الجديدتين. كانتا تسألان أن يلحق بهما بهو في الفندق. فتبع الرسول ووجدهما في ملابس الخروج وقبعاتهما على رأسيهما. وأبدت كلتاهما الرغبة في الخروج على الفور لتريا بادن، لأن الطقس كان جميلا، وكانت كابيتولينا ماركوفنا على الخصوص لا تطيق صبرا، وحزنت حين علمت أن الساعة المختارة للنزهة أمام بهو السمر لم تحن بعد وأعارها لتفينوف ذراعه، وانطلقوا للفرجة. وكانت تاتيانا تسير بجانب عمتها وهي تنظر

حواليها بتطلع هادئ، وكابيتولينا ماركوفنا ماضية في أسئلتها. وكان مرأى الروليت، والكروبييه ذوي المهابة الذين لو أبصرتهم في أي مكان آخر لحسبتهم وزراء، والعصي السريعة الحركة، وأكوام الذهب والفضة على القماش الأخضر، والعجائز المقامرات، والغواني المتبرّجات ـ كان مرأى ذلك كله باعثا لذهولها الأبكم. فنسيت كل النسيان أنها ينبغي أن تثور على ما تراه من فساد، ولم تستطع إلا أن تحدِّق وتحدِّق، وهي تنتفض دهشة لكل منظر جديد.. وكان أزيز العجلة العاجية في قاعة الروليت يبعث الرعدة في نخاع عظامها، وإنما استعادت قوتها حين خرجت إلى الهواء الطلق، وتنفست نفسا طويلا، فوصفت القمار بأنه أختراع فاسد من مخترعات الأرستقراطية، وارتسمت على شفتي لتفينوف ابتسامة جامدة باردة. وكان يتكلم ببطء واختصار، وكأنه ضجر أو مغيظ...ولكن خجلاً خفياً اعتراه حين التفت إلى تاتيانا. كانت لا تنظر إليه مليا وكأنها تسأل نفسها ماذا ترى فيه بالتحديد. وأومأ إليها مسرعا، فأجابته بمثل إيماءته، وعادت فنظرت إليه متسائلة، في شيء من الجهد، وكأنه واقف في مكان أبعد مما كان فيه بالواقع. وانصرف لتفينوف برفقته من بهو السمر، ومر «بالشجرة الروسية» وقد جلست تحتها سيدتان روسيتان، واتجه إلى شارع لختنتالر. فما كادوا يشرفون على الطريق حتى رأى إيرينا على بعد.

كانت تسير نحوه مع زوجها وبوتوجين. فاستحال لتفينوف أبيض كالقرطاس، على أنه لم يبطئ في مشيته، وانحنى في صمت حين قابلها، وانحنت له بدورها في أدب يمازجه البرود، وانسابت عابرة وهي تشمل تاتيانا بنظرة سريعة...ورفع راتميروف قبعته عالية، وغمغم بوتوجين بشيء.

سألت تاتيانا فجأة، ولعلها لم تكن قد فتحت شفتيها قبل تلك اللحظة:

- من هذه السيدة؟

فردد لتفينوف:

- هذه السيدة؟ إنها تدعى مدام راتميروف.

- هل عرفتها هنا؟

- لا إني أعرفها من زمن طويل.

- ما أجملها!

فقالت كابيتولينا ماركوفنا:

- هل لاحظت ثيابها؟ إن ثمن الوشى وحده يكفي عشر أسر سنة كاملة؟

ثم سألت وهي تلتفت إلى لتفينوف:

- أهذا الذي معها زوجها؟

- نعم.

- أتراه فاحش الثراء؟

- لا أدري في الحقيقة. لا أظن ذلك.

- ما رتبته؟

- إنه جنرال.

ولاحظت تاتيانا:

- ما أجمل عينيها! وما أغرب تعبيرهما! حالمتان نافذتان في وقت واحد...لم أر قط مثل هاتين العينين.

فلم يجب لتفينوف. وخيل إليه أنه أحسّ نظرة تاتيانا المتسائلة مصوّبة إلى وجهه، ولكنه كان مخطئا، فقد كانت تنظر إلى رمل الممر تحت قدميها.

وصاحت كابيتولينا ماركوفنا فجأة:

- يالله! من هذه الغول؟

وأشارت إلى عربة خفيفة، تتمرغ فيها بقحة امرأة حمراء الشعر، فطساء الأنف، نافجة المنخرين، في ملابس فاخرة، وجورب وردي اللون.

- هذه الغول! إنها المدموازيل كورا الشهيرة.

- من؟

- المدموازيل كورا...باريسية...مشهورة.

- ماذا؟ هذا الكلب الصيني؟ كيف؟ إنها فظيعة!

- يظهر أن هذا ليس بعائق.

فلم تستطع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها في دهشة...وأخيرا قالت:

- حسنا. إن هذه البادن تستحق الفرجة! هل يمكننا الجلوس على هذا المقعد؟ إني أحس بعض التعب.

- طبعا يمكنك يا كابيتولينا ماركوفنا. هذا ما وضعت المقاعد من أجله.

- وكيف أعلم؟ يقولون إن باريس فيها مقاعد على طول الطريق أيضا، ولكن لا يليق أن تجلس عليها.

فلم يجب لتفينوف. وفي هذه اللحظة أدرك أن المكان الذي قابل فيه إيرينا مقابلتهما الحاسمة لا يبعد عنه إلا خطوتين. ثم تذكر أنه لاحظ منذ قليل بقعة وردية صغيرة على خدها...

وتهالكت كابيتولينا ماركوفنا على المقعد، وجلست تاتيانا بجانبها، وظل لتفينوف واقفا في الممر. وبدا له ـ أو لعله توهم ـ أن شيئا ما قد حدث بينه وبين تاتيانا... حدث تدريجيا ومن دون أن يحس.

صاحت كابيتولينا ماركوفنا وهي تهز رأسها بحسرة:

- يا للقردة الحمقاء! هذه ثمن ملابسها لا تكفي عشر أسر فقط، بل مائة

هل لاحظت الماسات في شعرها الأحمر تحت قبعتها؟ ياللعجب! ماسات في وضح النهار!

فعلق لتفينوف على ملاحظتها قائلًا:

- شعرها ليس أحمر. إنها تصبغه أحمر، وهذا هو البدع الآن...

فلم يسع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها مرة أخرى وقد عقلت الدهشة لسانها. وأخيرا قالت:

- مثل هذه الفضائح لا توجد عندنا في درسدن، والسبب أنها أبعد عن باريس قليلًا. ألا تظن ذلك يا جريجوري ميهالتش ـ هه؟

فأجاب لتفينوف: «أنا؟ مؤكد. طبعا.» بينما كان يقول لنفسه: «ترى عن أي شيء تتكلم؟»

وفي تلك اللحظة جاء وقع أقدام بطيئة، واقترب بوتوجين من المقعد، وبدأ الكلام وهو يومئ مبتسما:

- كيف أنت يا جريجوري ميهالتش...

فأمسك لتفينوف بيده على الفور وسأل:

- كيف أنت، كيف أنت يا سوزونت إيفانتش؟ ألم أقابلك منذ برهة مع...منذ برهة في الطريق؟

- أجل هو أنا..

وانحنى بوتوجين باحترام للسيدتين الجالستين على المقعد.

- أسمح لي أن أقدمك للسيدتين. صديقتان قديمتان وقريبتان لي، وصلتا إلى بادن منذ قليل. وأضاف: سوزونت إيفانتش بوتوجين، مواطن لنا يزور بادن أيضا.

فنهضت السيدتان عن الكرسي قليلاً، وانحنى بوتوجين ثانية. ثم بدأت كابتولينا ماركوفنا تقول بصوت رفيع، وكانت السيدة العجوز الطيبة شديدة الخجل، ولكنها حاولت أن تصطنع العظمة بأية وسيلة:

- هذا المكان أشبه بـ réunion [1]. كل واحد يرى النزول في بادن واجبا لذيذا. فأجاب بوتوجين وهو يلحظ تاتيانا عن عرض:

- إن بادن مكان طيب بلا ريب. بادن بلدة طيبة جدا.

- نعم. ولكنها في الحقيقة شديدة الفخامة على قدر ما أستطيع أن أحكم. لقد عشنا في درسدن مدة طويلة، وهي بلدة لطيفة جدا. أما هنا فالمدينة في الحقيقة أشبه بـ réunion.

فقال بوتوجين في نفسه: «إنها معجبة بهذه الكلمة»، ثم رفع صوته قائلا:

- هذه ملاحظة صائبة. ولكن المناظر هنا بديعة، والموقع قليل النظير. لا شك أن رفيقتك بخاصة سوف تعجب به.

وأردف موجها الحديث إلى تاتيانا هذه المرة:

- أليس كذلك يا سيدتي؟

فرفعت تاتيانا عينيها الكبيرتين الصافيتين إلى بوتوجين، وبدت كأنها تسأل نفسها ماذا يطلب منا، ولماذا قدمها لتفينوف من أول وصولها إلى ذلك الرجل الغريب، وإن كان وجهه ينمّ عن طيبة وذكاء، ونظراته تعبر عن وِدّ وترحيب، وأخيرا قالت:

- نعم. إن المكان جميل.

وتابع بوتوجين حديثه قائلًا:

- يجب أن تزوري القلعة القديمة. وأوصيك برحلة السيارة إلى ايبرج.

---

(1) «اجتماع، احتفال».

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول:

- سويسرا السكسونية...

وحينئذ رنّت في أرجاء الشارع أصوات آلات النفخ النحاسية، فقد كانت فرقة راشتات الموسيقية العسكرية تبدأ حفلاتها الموسيقية الأسبوعية في كشك المدينة (وفي سنة 1862 كانت راشتات لا تزال قلعة للحلفاء).

فنهضت كابيتولينا ماركوفنا قائلة:

- الموسيقى الموسيقى! á la Conversation [1]. يجب أن نذهب إلى هناك. الساعة بعد الثالثة الآن... أليس كذلك؟ أهي الساعة التي يلتقي فيها المجتمع؟

فأجاب بوتوجين:

- نعم، هذا هو الوقت المفضل عندهم، والموسيقى هناك ممتازة.

- حسنا. إذن فلا نضيعنّ وقتا. تعالي ياتانيا!

فسأل بوتوجين:

- أتسمحون لي بمرافقتكم؟

فدهش لتفينوف جدا، ولم يخطر بباله قط أن بوتوجين كان مبعوثا من إيرينا.

وابتسمت كابيتولينا ماركوفنا بأدب.

- بكل سرور يا مسيو... مسيو...

فأكمل: بوتوجين. وقدم لها ذراعه. وقدم لتفينوف ذراعه لتاتيانا. وقصد الزوجان بهو السمر.

---

(1) «إلى بهو السمر».

واسترسل بوتوجين في حديثه مع كابيتولينا ماركوفنا. أما لتفينوف فسار من دون أن ينبس بكلمة، إلا أنه ابتسم مرة أو مرتين بلا داع، وضغط على ذراع تاتيانا ضغطا خفيفا. ولم تجب تاتيانا على هذه النبضات الكاذبة، وشعر لتفينوف بكذبه، فلم تكن تلك النبضات ـ كما كانت في الأيام الخالية ـ تأكيدا للرباط الوثيق بين قلبين متحابين، بلا بديلا وقتيا لكلمات لم يستطع أن يجدها. إن هذا الشيء الصامت الذي حدث بينهما قد نما وازداد قوة. وعادت تاتيانا تنظر إليه مليا حتى كأنها تتفحّصه.

واستمرت هذه الحال حتى جلس الأربعة حول مائدة صغيرة في بهو السمر مع فارق واحد، وهو أن صمت لتفينوف بدا شبه عادي في ضجة الزحام ورنين الموسيقى. وبلغ نشاط كابيتولينا ماركوفنا قمة حدته بحيث لم يستطع بوتوجين أن يلاحق أسئلتها أو يرضي تطلعها. ثم أسعفه الحظ فجأة بأن ظهر بين الزحام شبح مدام زوهانتشيكوف النحيل بعينيها اللامعتين الوثابتين، فعرفتها كابيتولينا ماركوفنا على الفور، ونادتها وأجلستها على مائدتهم، وهامت في عاصفة من الكلام.

والتفت بوتوجين إلى تاتيانا، وبدأ يحادثها بصوت ناعم خفيض، وهو منحن نحوها قليلًا، وعلى وجهه تعبير لطيف ودود، وكانت هي تجيبه بسهولة وطلاقة دهشت لهما...كانت سعيدة بأن تتحدث إلى ذلك الأجنبي الذي لا تعرفه بينما جلس لتفينوف ساكتا كما كان، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الجامدة الباردة؟

وأخيرا حان وقت العشاء. وانقطعت الموسيقى، وقل الزحام. وودعت كابيتولينا ماركوفنا مدام زوهانتشيكوف وداعا حارا، فقد شعرت نحوها باحترام عظيم، وإن قالت في ما بعد لابنة أخيها: «إن هذه السيدة شديدة التعصب حقا، ولكنها تعرف كل شيء عن كل إنسان. وصحيح أن النساء يجب أن يحصلن على ماكينات الخياطة بعد الزفاف».

وودعهم بوتوجين، ورافق لتفينوف السيدتين في عودتهما. وبينما هم يدخلون الفندق سُلِّمت إليه رقعة، فانتحى ناحية وفض الغلاف مسرعا، فرأى على قصاصة صغيرة من الورق هذه الكلمات بالقلم الرصاص: «تعال إليّ هذا المساء في الساعة السابعة. دقيقة واحدة ـ أرجوك. إيرينا.» فدس لتفينوف الورقة في جيبه، والتفت وقد اصطنع مرة أخرى تلك الابتسامة... لمن؟ لماذا؟ لقد كانت تاتيانا واقفة وظهرها إليه. وتعشّوا على مائدة الفندق العامة، وكان لتفينوف جالسا بين كابيتولينا ماركوفنا وتاتيانا، وفجأة تملكه مرح غريب فانطلق يثرثر ويحكي الحكايات، ويصب النبيذ لنفسه وللسيدتين. وأغرى مرحه ضابطا فرنسيا كان يجلس أمامه، له شاربين ولحية على طريقة نابليون الثالث، وقد قدم من ستراسبورج، فلم يتحرج من الاشتراك في الحديث، بل وصل إلى أن اقترح نخبا[1] á la santé Des belles moscovites ولما انتهى العشاء صحب لتفينوف السيدتين إلى حجرتهما ووقف عند النافذة عابس الوجه بضع دقائق، ثم أعلن فجأة أنه مضطر للخروج فترة قصيرة لبعض الأعمال، ولكنه لا بد سيعود قبل المساء.

ولم تقل تاتيانا شيئًا، ولكنها شحبت ونكست بصرها. وكان من عادة كابيتولينا ماركوفنا أن تنام قليلا بعد العشاء، وكانت تاتيانا تعلم حق العلم أن لتفينوف يعرف هذه العادة من عمتها، وتتوقع أن ينتهز الفرصة ليبقى معها فهو لم ينفرد بها ولا انطلق في الحديث معها منذ مجيئها. ولكنه ذاهب! ما معنى هذا؟ الحق أن سلوكه طوال اليوم...

وانصرف لتفينوف مسرعا قبل أن يسمع اعتراضا، ورقدت كابيتولينا ماركوفنا على الأريكة، وبعد أن زفرت زفرتين، وأنت أنتين، سبحت في نوم هادئ مهيب. بينما انتحت تاتيانا ركنا، وجلست على كرسيّ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها.

---

(1) «في صحة المسكوفيتيين الحسناوين».

-19-

صعد لتفينوف درج «فندق أوروبا» مسرعا، فأوقفته بنت صغيرة في الثالثة عشرة، ذات وجه صغير ماكر وسحنة كلموكية، وقالت له بالروسية: «تفضل من هذا الطريق. إيرينا بافلوفنا ستكون هنا حالا». ونظر إليها في حيرة فابتسمت وكررت: «تفضل. تفضل». وقادته إلى حجرة صغيرة مواجهة لمخدع إيرينا، خاصة بصناديق المتاع وحقائب السفر، ثم اختفت لتوها وهي تغلق الباب بخفة. ولم يكد لتفينوف ينظر حوله حتى فتح الباب ووقفت إيرينا أمامه في ثوب سهرة وردي اللون، وحول جيدها وفي شعرها لآلئ. اندفعت نحوه اندفاعا، وقبضت عليه بكلتا اليدين، وبقيت لحظات لا تستطيع كلاما، وعيناها تلمعان، وصدرها يعلو ويهبط كأنها صعدت جبلا وهي تجري. بدأت تقول في همس معجل:

– لم أستطع أن أستقبلك... هناك. نحن ذاهبان بعد قليل إلى حفلة عشاء ولكني أردت قبل كل شيء أن أراك... أظن تلك التي قابلتها معك اليوم خطيبتك؟

فأجاب لتفينوف:

– أجل، إنها كانت خطيبتي.

وضغط على كلمة «كانت».

– لقد أردت أن أراك دقيقة واحدة لأخبرك أنك يجب أن تعد نفسك مطلق الحرية، وأن ما حدث البارحة يجب ألا يؤثر في خططك.

– إيرينا! لِمَ تقولين هذا؟

لفظ هذه الكلمات بصوت عال، وكانت فيها رنة عاطفة غشوم. فأغمضت إيرينا عينيها دقيقة بحركة لا إرادية، ومضت تقول وقد زاد همسها خفوتا، كما زاد انفعالها جموحا:

– آه يا حبيبي! إنك لا تدري كم أحبك، ولكني لم أزد أمس على أن أديت ديني، ومحوت إثم الماضي... آه! لم أستطع أن أمنحك شبابي كما كنت أتمنى، ولكني لم ألزمك بشيء، ولم أكلفك وعدا أيها الغالي! إفعل ما بدا لك، أنت طليق كالهواء، لا شيء يقيدك، لا شيء مطلقا، أريد أن تعلم ذلك!

فقاطعها لتفينوف هامسا هذه المرة:

– ولكني لا أستطيع أن أحيا بدونك يا إيرينا، أنا لك أبدا، منذ أمس... لا أستطيع أن أتنفس إلا عند قدميك...

وانحنى يقبل يديها وقد شملته رعدة. وحدقت إيرينا في رأسه المنحني. وقالت:

– إذن فاعلم أنني أيضًا على استعداد لكل شيء. إنني أيضا لن أبالي بأحد ولا بشيء. كل ما تراه نافذ. أنا أيضا لك إلى الأبد... لك.

ونُقر على الباب نقرة حذرة. وانحنت إيرينا وهمست مرة أخرى «وداعا!».

وأحس لتفينوف أنفاسها وشفتيها على شعره. وحين وقف كانت قد غادرت الحجرة، إلا أن ثوبها كان يحف في الدهليز، وجاء صوت

راتميروف من بعد: Eh bien, Vous ne venez pas [1] جلس لتفينوف على صندوق مرتفع وغطى وجهه بيديه، واستنشق عطرا أنثويا خفيا نديا... لقد أمسكت إيرينا يده بين يديها. وقال في نفسه: «هذا كثير»، ودخلت البنت الصغيرة الحجرة، وابتسمت مرة أخرى جوابا على نظرته القلقة، وقالت:

- تفضل بالمجيء معي الآن...

فنهض وخرج من الفندق. وكان عبثا أن يفكر في العودة إلى مسكنه وهو في حاجة إلى أن يتماسك أولا، وكان قلبه يدق دقا عنيفا مضطربا، والأرض كأنها تميد تحت قدميه. وعاد لتفينوف يمشي في شارع لختنتالر، وأدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت ولم يعد في مقدوره أن يرجئ الأمور، وأن يروغ من نفسه ويتعامى عن الواقع. كان لا بد من جلاء الأمر مع تاتيانا. وتخيلها جالسة هناك لا تبدر منها نأمة، وهي تنتظر عودته... وتخيل ما سيقوله لها، ولكن كيف يقول، وكيف يستطيع أن يبدأ؟ لقد طرح مستقبله الشريف الرزين المنظّم وراء ظهره، وكان يعلم أنه يلقي بنفسه إلى هاوية يجزع المرء من مجرد النظر إليها... ولكنه لم يكن يبالي بذلك، فقد قرره وانتهى منه، إنما الباقي: كيف يواجه قاضيه؟ ويا ليته كان قاضيا! ليته كان ملاكا بسيف من نار، فذلك أهون على القلب المذنب... ولكن كان عليه هو أن يغمد السكين فيّ... يا للشناعة! هل يرجع ويتخلى عن الثانية، هل يستغل الحرية التي منحتها إياه، واعتبرتها حقه؟.. لا! الموت خير من ذلك! لا، إنه لا يريد هذه الحرية البغيضة... بل يمرغ نفسه في التراب راضيا في سبيل نظرة حب من هاتين العينين وقال صوت حزين:

- جريجوري ميهالتش!

وحطت يد ثقيلة على كتف لتفينوف. فالتفت وراءه بشيء من الفزع، وعرف بوتوجين. وبدأ هذا يقول بحيائه المألوف:

---

(1) «حسنا، ألا تأتين؟».

– معذرة جريجوري ميهالتش، أخشى أن يضايقك، ولكني رأيتك من بعد، ففكرت... أما أن كنت لا تريدني...

فتمتم لتفينوف من بين أسنانه:

– على العكس، أنا سعيد برؤيتك..

فسار بوتوجين بجانبه وبدأ يقول:

– مساء جميل. هذا الدفء! هل سرت طويلًا؟

– لا..

– ما كان أغناني عن السؤال! لقد رأيتك منذ قليل خارجًا من «فندق أوروبا».

– إذن فقد كنت تتبعني؟

– أجل.

– ألديك ما تريد أن تقوله لي؟

فكرر بوتوجين بصوت لا يكاد يبين:

– نعم..

ووقف لتفينوف. ونظر إلى رفيقه الذي جاء بلا دعوة. كان وجهه شاحبًا، وعيناه زائغتين، وملامحه المتقلصة كأنما ران عليها حزن مقيم.

قال لتفينوف ببطء وهو يتقدم:

– ما الذي تريد قوله بالضبط؟

– اسمح لي... سأخبرك بعد لحظة.لنجلس على هذا الكرسي. إن لم يكن عندك مانع. هذا أروح.

فقال لتفينوف وهو يجلس بجانبه:

- هل في الأمر سر؟ إنك تبدو مضطربا يا سوزونت إيفانتش.

- لا، أنا بخير، وليس في الأمر سر أيضًا. إنما أردت أن أخبرك... برأيي في خطيبتك... أظنها مخطوبة لك؟.. على كل حال، أنا أعني الشابة التي قدمتني إليها اليوم. الحق أني لم أر في حياتي إنسانة أجدر منها بالحب. قلب من ذهب. ملاك كريم.

نطق بوتوجين بكل هذه الكلمات من دون أن تفارقه مرارته وحزنه، حتى أن لتفينوف نفسه راعه التناقض الغريب بين سيماه وكلامه.

وبدا لتفينوف يقول:

إنك مصيب في ما قلته عن تاتيانا بتروفنا. ولكن يجب أن أقول لك أني دهش لمعرفتك بالرابطة التي بيني وبينها، ثم لاستطاعتك أن تفهمها بهذه السرعة. حقًا إنها ملاك كريم. ولكن اسمح لي أن أسالك: أهذا ما أردت أن تبحثه معي؟

فمضى بوتوجين يقول وكأنه يتجنب السؤال الأخير:

- كل من رآها لا بد أن يفهمها. حَسْبُ المرء أن ينظر إلى عينيها. إنها جديرة بكل سعادة، وسعيد ذلك الرجل الذي قسم له أن يسعدها! ليته يثبت أنه جدير بمثل هذا الحظ العظيم.

فعبس لتفينوف قليلًا وقال:

- معذرة يا سوزونت إيفانتش. إن محادثتنا تبدو لي غريبة فريدة... أود أن أعلم هل تعنيني بما قلته الآن؟

فلم يجب بوتوجين على الفور، وكان جليا أنه يجاهد نفسه وأخيرا بدأ يقول:

- جريجوري ميهالتش! إما أني مخطئ كل الخطأ في تقديرك، وإما أنك

قادر على أن تسمع الحق من أي إنسان جاء، وفي أي صورة كريهة ظهر. لقد أخبرتك الآن أني رأيت من أين قدمت.

- أجل. من فندق أوروبا. وأي بأس في ذلك؟

- إني أعلم من كنت تزور.

- ماذا؟

- لقد كنت عند مدام راتميروف.

- حسنًا، لقد كنت عندها. ثم ماذا؟

- ثم ماذا؟..أنت خطيب تاتيانا بتروفنا. وقد كنت عند مدام راتميروف، التي تحبها...وتحبك.

فانتفض لتفينوف واقفًا، واندفع الدم إلى رأسه، وأخيرًا قال بصوت كظيم:

- ما هذا؟ مزاح سخيف؟ تجسّس؟ أرجو أن توضح لي أمرك؟

فحول إليه بوتوجين نظرة ضعيفة:

- آه لا تغضب يا جريجوري ميهالتش. أنا لن أغضب مهما تقل. إني لم أبدأك بالحديث من أجل هذا، وليست لي رغبة في المزاح.

- ربما، ربما. أنا مستعد أن أثق بحسن نيتك. ولكني أسألك: بأي حق تقحم نفسك في دخائل رجل آخر، وعلى أي أساس تتقدم واثقا... باختراعك على أنه حقيقة.

- اختراعي! لو كنت اخترعته لما أثار حنقك. أما حقي فأني لم أسمع من قبل أن الرجل ينبغي أن يسائل نفسه عن حقه في أن يمد يده إلى غريق.

فصاح لتفينوف باندفاع:

- أنا شاكر وممتن لعنايتك. ولكني لست بحاجة إليها مطلقًا. وكل ما يقال عن الشباك التي تنصبها نساء المجتمع للشبان الأغرار... وعن انحلال المجتمع الراقي. إلخ ـ كل هذا أراه مجرد كلام، كلام تافه غث، ولهذا أتوسل إليك أن تريح ذراعك المنقذة، وأن تدعني أغرق في سلام.

فرفع بوتوجين عينيه مرة أخرى إلى لتفينوف، وحشرجت أنفاسه، وارتعدت شفتاه، وأخيرًا انفجر صائحًا:

انظر إليَّ أيها الشاب. هل تراني أشبه أخلاقيًا أو واعظا عاديًا راضيًا عن نفسه؟ ألا تفهم أن اهتمامي بك، مهما يكن عظيمًا، ما كان ليدفعني إلى أنطق بكلمة واحدة تجعل لك الحق في أن تتهمني بشر ما أكره: بالتطفل والفضولية؟ ألا ترى أن الأمر مختلف جدًا، وأن أمامك رجلًا حطّمته ـ بل محته محوا ـ تلك العاطفة التي يريد أن ينقذك من عواقبها... نحو المرأة نفسها؟

فتراجع لتفينوف خطوة:

- أهذا ممكن؟ ماذا قلت؟.. أنت... أنت... يا سوزونت إيفانتش؟ ولكن مدام بيلسكي... ذلك الطفل؟

- آه لا تستجوبني!..بل صدقني! إنها قصة سوداء مروعة، ولن أخبرك بها. إني لم أكد أعرف مدام بيلسكي، وهذه الطفلة ليست بنتي، ولكني حملت المسئولية كلها...لأن...لأنها هي أرادت ذلك، لأن ذلك كان ضروريًا لها هي. لماذا أنا هنا في هذه البلدة الكريهة؟ هل تظن ـ هل تستطيع أن تتخيل لحظة أني كنت أجرؤ على إنذارك لمجرد العطف عليك؟ إني آسف لتلك الفتاة الطيبة الحلوة، خطيبتك، ولكن ما شأني بمستقبلكما، ما شأني بكما معًا؟.. إنما أخاف عليها... عليها هي.

- أنت تسدي إليَّ شرفًا عظيمًا يا سيد بوتوجين. ولكن ما دامت حالك من حالي، كما تقول، فلماذا لا توجّه مثل هذا النصح إلى نفسك؟ ألا أنسب مخاوفك إلى شعور آخر؟

- أتعني الغيرة؟ آه أيها الشاب، أيها الشاب، ألا تخجل أن تراوغ وتغالط، ألا تخجل إذ تجهل أي حزن مرير يكلمك الآن من شفتيّ! لا، ليست حالي من حالك! أنا رجل هرم مضحك، شيخ أبله لا يؤبَهُ له ـ أما أنت! ولكن ما حاجتنا إلى الحديث عن ذلك؟ إنك لا تقبل لحظة واحدة أن تشغل المكان الذي أشغله شاكرًا! الغيرة! لا يغار من لم يحظ قط بقطرة من أمل. ولو كنت أغار لما كانت هذه أول أسباب الغيرة. لست خائفًا إلا... إلا عليها. أعلم ذلك. وهل كان بوسعي أن أتوقع ـ حين أرسلتني إليك ـ إن شعورها بالذنب نحوك ـ وقد اعترفت لي به ـ سوف يذهب بها إلى هذا المدى؟

- ولكن معذرة يا سوزونت إيفانتش، يبدو أنك تعلم...

أنا لا أعلم شيئًا، وأعلم كل شيء! وزاد وهو يلتفت: أنا أعلم أين كانت ليلة أمس. إنها لن يكبح لها جماح منذ اليوم. إنها كحجر تدحرج، فلا بد أن يتدحرج حتى القرار. وأني لأحمق إن تخيلت أن كلماتي سوف تردك على الفور...أنت، حين تكون امرأة كهذه...لكن دعنا من هذا. إني لم أملك نفسي، وهذا كل عذري. ولكن من يدري؟ وماذا تضر المحاولة؟ لعلك تفكر في الأمر مرة أخرى. لعل كلمة من كلماتي تنفذ إلى قلبك، فتنثني عن تحطيمها، وتحطيم نفسك، وتحطيم هذه المخلوقة البريئة الحلوة..آه! لا تغضب، ولا تدق الأرض بقدمك! ماذا أخاف؟ ولماذا أحتشم؟ ليست الغيرة هي التي تتكلم فيّ، لا، ولا الغضب... إني على استعداد لأن أركع عند قدميك، لأن أتضرّع إليك. لكن وداعا. لا حاجة بك إلى القلق، فسيبقى هذا كله سرا. ما أردت لك إلا الخير.

وخطا بوتوجين خطوات واسعة على الطريق، واختفى في الظلام المغطش، ولم يستبقه لتفينوف.

«قصة سوداء مروعة»، هكذا قال بوتوجين للتفينوف، ولكنه أبى أن يخبره بالقصة... فلنعرج عليها ببضع كلمات فحسب:

حدث منذ ثماني سنوات أن ندبته مصلحته للعمل مع الكونت ريزنباخ. وكان ذلك في الصيف، واعتاد بوتوجين أن يركب عربة إلى الكرمة الريفية ومعه الأوراق، ويمكث هناك أيامًا كاملة متعاقبة، وكانت إيرينا تعيش إذ ذاك بمنزل الكونت، ولم تكن تترفّع عمن دونها، أو على الأقل لم تكن تزدريهم، وقد آخذتها الكونتة غير مرة على تبسّطها المسكوفي المفرط. فسرعان ما استكشفت إيرينا في الكاتب المتواضع رجلًا ذكيًا مخبأ في السترة المحكمة التي كانت بزته الرسمية. واعتادت أن تجاذبه الحديث بحماسة وانطلاق، وأما هو...فقد أحبها...أحبها حبًا قويًا عميقًا مكتومًا..مكتومًا! هذا ما كان يظنه هو. ومضى الصيف، واستغنى الكونت عن مساعَدَته، وغابت إيرينا عن عيني بوتوجين، ولكنه لم يستطع أن ينساها. وبعد ثلاث سنوات تلقى على غير انتظار دعوة من سيدة من الطبقة الوسطى لم تكن له بها إلا معرفة يسيرة، واضطربت السيدة أول الأمر وهي تشرح له الغرض من دعوتها، ولكنها بعد أن استحلفته ألا يبوح بشيء مما سيسمعه، عرضت عليه... أن يتزوج فتاة، كانت لها في المجتمع مكانة مرموقة، ولم يكن لها بد من الزواج. ولم تكد السيدة تجرؤ على الإشارة إلى الرجل الذي كان محور القصة. ثم وعدت بوتوجين بمال...بمقدار جسيم من المال. ولم يثر بوتوجين، فقد خنقت الدهشة في نفسه كل شعور، ولكنه رفض رفضًا باتًا. وعندئذ ناولته السيدة كلمة مكتوبة ـ من إيرينا. وإذا فيها: «أنت رجل نبيل كريم، وأنا أعلم أنك ترضى بأن تفعل أي شيء من أجلي. إني أسألك هذه التضحية. ستنقذ شخصًا عزيزاً عليَّ جدًا. وبإنقاذك إياها ستنقذني أيضًا...لا تسلني كيف. لم أكن لأتوجه بهذا إلى أحد غيرك، ولكني أمد يدي إليك وأقول أفعل هذا من أجلي» وفكر بوتوجين ثم قال إنه حقًا على استعداد لأن يفعل أشياء كثيرة من أجل إيرينا بافلوفنا، ولكنه يود أن يسمع رغبتها من بين شفتيها. وكان اللقاء في المساء نفسه، ولم يدم طويلًا، ولم يعرف به أحد إلا تلك السيدة نفسها، ولم تكن إيرينا تقيم إذ ذاك في منزل الكونت ريزنباخ.

سألها بوتوجين:

- ما الذي حداك إلى التفكير فيَّ أنا، دون الناس جميعًا؟

فبدأت تفيض في الثناء على صفاته النبيلة، ولكنها توقفت فجأة... وقالت:

- كلا. يجب أن تعلم الحقيقة. أنا أعرف أنك تحبني، هذا ما جعلني أقرر.... ثم أخبرته بكل شيء.

لقد كانت اليزا بيلسكي يتيمة، كان أقاربها يكرهونها، ويطمعون في ميراثها...وكانت في محنة، وبإنقاذها أرادت إيرينا أن تخدم الرجل الذي كان سببًا في محنتها والذي أصبحت له الآن علاقة وثيقة بإيرينا نفسها...ونظر بوتوجين إلى إيرينا نظرة طويلة، ولم يتكلم، ووافق، فبكت، وانطرحت على عنقه ودموعها تنهمر. وبكى هو أيضًا...ولكن دموعها كانت جد مختلفة. وكان كل شيء قد أُعدّ للزواج المكتوم. كانت يد قوية تزيح كل العقبات... ولكن جاء المرض... ثم ولدت طفلة، وإذا بالأم بعد ذلك... تشرب السم. فماذا يكون من أمر الطفلة؟ لقد كفلها بوتوجين، بعد أن تلقاها من اليدين نفسهما، يدي إيرينا.

قصة مروّعة سوداء... فلنعد عنها أيها القراء، فلنعد عنها!

مضى أكثر من ساعة قبل أن يحمل لتفينوف نفسه على العودة إلى فندقه.. ولما قاربه سمع من خلفه وقع خطا، وخيل إليه أنها تتبعه بإلحاح، وتسرع كلما أسرع، فلما مر لتفينوف تحت عمود مصابح التفت وراءه وعرف الجنرال راتميروف.

وكان راتميروف عائدًا وحده من الحفلة، ومعطفه مفتوح، وعلى صدره رباط عنق أبيض وعدد من النجوم، والصلبان في سلسلة ذهبية معلقة بعروة سترته. وثبت عينيه على لتفينوف ببغض واحتقار، وبدا في مظهره كله تحدٍّ

واستفزاز حتى اضطر لتفينوف أن يتقدم ليلقاه ويواجه «الفضيحة» وإن كَرِه. لكن وجه الجنرال تغير فجأة حين حاذاه لتفينوف، وعاودته رقته اللاعبة المألوفة، ولوّحت يده في قفازها ذي اللون الأصفر الخزامي، رافعة قبعته الصغيرة في الهواء. فرفع لتفينوف قبعته صامتًا، ومضى كل في طريقه.

وفكر لتفينوف: «لاشك أنه لاحظ شيئًا!»

وفكر الجنرال: «ليته على الأقل كان...شخصًا آخر!»

وكانت تاتيانا تلعب الورق مع عمتها حين دخل لتفينوف حجرتها، فصاحت كابيتولينا ماركوفنا وهي تلقي بأوراقها:

– والله إنك شاب ظريف! أول يوم، وتغيب طوال المساء! لقد انتظرنا وانتظرنا! وقلنا فيك وأعدنا..

فعقبت تاتيانا:

– أنا لم أقل شيئًا يا عمتي.

– أوه، إنك الطيبة نفسها، كلنا نعلم ذلك! يجب أن تخجل يا سيدي! هل نسيت أن خطيبتك هنا؟

وانتحل لتفينوف ما استطاع من أعذار، وجلس إلى المنضدة.

قال بعد صمت قصير:

– لماذا قطعتما اللعب؟

– سؤال ظريف! كنا نلعب من السأم، ولم يكن لدينا ما نعمله... أما الآن فأنت هنا.

فقال لتفينوف:

– إذا كنتما تحبان الاستماع إلى موسيقى المساء فإنه يسعدني أن أذهب معكما.

فنظرت كابيتولينا ماركوفنا إلى ابنة أخيها. قالت تاتيانا:

- نذهب يا عمتي. أنا مستعدة. لكن... أليس الأفضل أن نبقى هنا؟

- من غير شك! نشرب شاينا المسكوفي، شاي السماور، ونتكلم حتى نشبع، فإننا لم نكد نتحدث.

وطلب لتفينوف شايا. إلا أن الحديث المشبع لم يتيسر، لقد كان لتفينوف معذِّب الضمير، كلما تكلم خيل إليه أنه يكذب، وأن تاتيانا تفضح كذبه. ولكنها لم يبد عليها تغير ما، بل كان سلوكها عاديًا لا تكلّف فيه ولا تحفّظ... ولو أن عينيها لم تثبتا على لتفينوف قط، بل كانتا تنزلقان عنه في تسامح خائف، ووجهها كان يعلوه شحوب غير عادي. فسألتها كابيتولينا ماركوفنا إذا كانت تشعر بصداع؟

وهمت تاتيانا بأن تقول لا، ولكنها قالت بعد تفكير قصير:

- نعم، قليلًا.

فقال لتفينوف: -إنها الرحلة. واحمر وجهه خجلًا.

ورددت تاتيانا:

- نعم الرحلة..وانزلقت عيناها عنه مرة أخرى.

- يجدر بك أن تستريحي يا حبيبتي تانيا.

- نعم. سأنام بعد قليل يا عمتي.

وكان على المنضدة نسخة من Guide des Voyageurs [1] فأخذ لتفينوف يقرأ فيه بصوت مرتفع وصف ضواحي بادن. وقاطعته كابيتولينا ماركوفنا قائلة:

---

(1) «دليل السياح».

- تمامًا. ولكن يجب ألا ننسى شيئًا: لقد سمعت أن نسيج الكتان هنا رخيص جدًا، فيجب أن نشتري شيئًا منه للجهاز.

وغضّت تاتيانا بصرها. وقالت:

- الوقت واسع يا عمتي. إنك لا تفكرين في نفسك أبدًا. يجب أن تشتري لك بعض الملابس. أنت ترين أناقة الناس هنا.

- يا حبيبتي! ما فائدة ذلك؟ الأناقة ليست مطلبي. قد يختلف الحال لو كنت حسناء كصديقتك يا جريجوري ميهالتش. ما اسمها؟

- أية صديقة؟

- التي قابلناها اليوم.

فقال لتفينوف وهو يتصنع عدم الاكتراث:

- أوه، هذه!

وشعر بالتقزز والخجل مرة أخرى، وقال لنفسه «لا، لا يمكن أن تستمر هذه الحال. لقد كان جالسا بجانب خطيبته، وفي جيبه ـ على قيد بوصات منها منديل إيرينا. وغابت كابيتولينا ماركوفنا لحظة في الحجرة الأخرى، فقال لتفينوف بجهد:

- تانيا...

وكانت أول مرة يناديها باسمها في ذلك اليوم، فالتفتت إليه:

- أنا...لدي شيء هام أريد أن أقوله لك.

- أوه! حقًا؟ متى؟ الآن؟

- لا. غدًا.

- غدا. حسن جدًا.

وفاض قلب لتفينوف بحنوّ لا حدّ له. وتناول يد تانيا وقبلها بخشوع كأنه آثم. فانقبض قلبها ولم تفرح بقبلته.

ورفعت كابيتولينا ماركوفنا رأسها فجأة في الساعة الثانية ليلًا، وأنصتت، وكانت تنام مع أبنة أخيها في حجرة واحدة. قالت:

- تانيا! أتبكين؟

فلم تجب تانيا على الفور. ثم ارتفع صوتها اللطيف:

- لا يا عمتي. لقد أصابني برد.

- 20 -

سأل لتفينوف نفسه صباح اليوم التالي، وهو جالس أمام نافذة حجرته: «لماذا قلت لها ذلك؟» وهز كتفيه بحنق. لقد قال ذلك لتاتيانا ليقطع على نفسه كل سبيل للتراجع. وكانت على النافذة ورقة من إيرينا تسأله فيها أن يزورها في الساعة الثانية عشرة، وكانت كلمات بوتوجين لا تزال تساوره، وكأنها تصل إليه بصوت خافت منحوس، كصوت قرقرة تحت الأرض. وكان ساخطا على نفسه، ولم يستطع أن يتخلص من هذه الكلمات. وطرق الباب. فسأل لتفينوف: Wer da? [1]

فسمع صوت بنداسوف الأجش: آه! أنت هنا! افتح!

وصرّت أكرة الباب. وابيضّ لون لتفينوف من الغضب. صاح بحدة:

- لست هنا.

- لست هنا! يا لها من دعابة ظريفة!

- أقول لك إني لست هنا، انصرف!

فزمجر بنداسوف: ما أكرمك! لقد جئت أسألك قرضا صغيرًا.

على أنه مشى يدق الأرض بكعبه كعادته.

---

(1) «من هناك؟».

وكاد لتفينوف يعدو خلفه، فقد تاق توقا إلى أن يخنق ذلك الصعلوك البغيض. كانت حوادث الأيام القليلة الماضية قد أوهنت أعصابه، ولم يكن بينه وبين البكاء إلا القليل. وشرب كوب ماء بارد، وأغلق كل درج في الغرفة دون أن يعلم لم يفعل ذلك، ثم ذهب إلى تاتيانا.

وجدها وحيدة، فقد ذهبت كابيتولينا ماركوفنا إلى السوق. وكانت تاتيانا جالسة على الأريكة، ممسكة بكلتا يديها كتابا، ولم تكن تقرأ فيه، ولا تعرف أي كتاب هو. لم تتحرك، ولكن قلبها دقّ في صدرها سريعًا، وارتعشت الياقة البيضاء حول عنقها ارتعاشا ظاهرا منتظمًا.

واضطرب لتفينوف... ولكنه جلس بجانبها وقال: «صباح الخير»، وابتسم، وابتسمت له أيضا بلا كلام. وكانت قد انحنت له حين دخل، انحنت له في أدب وكأنه غريب، ولم تنظر إليه، ومد إليها يده فأسلمته أصابعها الباردة، ولكنها سحبتها بسرعة، وأمسكت الكتاب ثانية. وشعر لتفينوف أنه إن بدأ الحديث في موضوعات تافهة كان ذلك إهانة لتاتيانا. أما هي فلم تطالبه بشيء كعادتها، ولكن كل ما فيها كان يقول بجلاء: «إني منتظرة، إني منتظرة»... عليه أن ينجز وعده، إلا أنه ـ وإن قضى أكثر الليل يفكر في هذا الأمر دون غيره ـ لم يكن قد أعدَّ ما يقول، حتى ولا الكلمات الممهدة الأولى، فلم يدر كيف يقطع ذلك الصمت القاسي.

وأخيرا بدأ يقول:

– تانيا. لقد أخبرتك أمس بأن لدي شيئًا هامًا أريد أن أقوله لك، وأنا على استعداد لذلك، ولكني أسالك أولًا ألا تغضبي عليَّ، وأن تؤمني بأن مشاعري نحوك..

وتوقف ليلتقط أنفاسه، ظلت تاتيانا ساكنة لا تنظر إليه، ولم تزد على أن شدت قبضتها على الكتاب.

ومضى لتفينوف يقول من دون أن يتم الجملة التي بدأها:

– لقد كانت بيننا دائمًا صراحة تامة. إن إجلالي لك أعمق من أن أستطيع خداعك. أريد أن أبرهن لك على تقديري لنبلك وشجاعتك ومع أنني... مع أنني طبعا...

فبدأت تاتيانا تتكلم بصوت متزن، بينما غشى على وجهها كله شحوب كشحوب الموت:

– هأنذي أساعدك يا جريجوري ميهالتش: إنك لم تعد تحبني، ولا تدري كيف تخبرني بذلك.

فانتفض لتفينوف. ولكنها أكملت:

– ماذا، أليس هذا حقًا؟ـ أخبرني، أخبرني. ودارت تاتيانا إلى لتفينوف حتى واجهته، وكان شعرها مرسلًا إلى الخلف، فكاد وجهها يلامس وجهه، وبدت عيناهاـ اللتان لم تنظرا إليه منذ أمدـ وكأنهما تتسبّران عينيه. وأعادت:

– أليس هذا حقًا؟

فلم يقل شيئًا، ولم ينبس بصوت. ولو علم أنها ستصدقه وأن كذبه سينقذها لما استطاع أن يكذب في تلك اللحظة. بل إنه لم يستطع أن يواجه عينيها المثبتتين عليه. لم يقل لتفينوف شيئًا، ولكنها لم تحتج إلى جواب، لقد قرأت الجواب في صمته، في تلك العينين المذنبتين الذليلتين. وارتدت في كرسيها، وتركت الكتاب يسقط من يدها... لقد كانت تشك إلى هذه اللحظة، وكان لتفينوف يفهم ذلك، كان يفهم أنها غير موقنة ـ ويا لبشاعة ما فعل، يا لبشاعة ما فعل!

انطرح على ركبتيه أمامها مناديا:

– تانيا! ليتك تعلمين مقدار تعاستي وأنا أراك هكذا...مقدار فزعي حين أفكر أنني أنا... الذي فعلت هذا! إن قلبي يتمزق. وأنا لا أعرف نفسي. لقد فقدت نفسي، وفقدتك، فقدت كل شيء... لقد ضاع كل شيء يا تانيا، كل

شيء! هل كنت أظن أني أنا... أني أنا سأسيء إليك هذه الإساءة، يا أعزّ صديق، يا ملاكي الحارس..؟ هل كنت أظن أننا سنلتقي مثل هذا اللقاء، وسنقضي يوماً مثل يوم أمس!...

وهمت تانيا بأن تنهض وتذهب، فأمسك بحاشية ثوبها.

- لا. أصغي إلي دقيقة أخرى. هأنذا راكع على ركبتيّ أمامك، ولكني لم آت لأسألك المغفرة، فإنك لا تستطيعين أن تغفري لي، ولا ينبغي أن تغفري لي. لقد جئت أخبرك أن صديقك ضاع، أنه يسقط في الهاوية ولا يريد أن يجرّك معه... ولا أمل في إنقاذي! حتى أنت لا تستطيعين إنقاذي، ولو حاولتِ لدفعت بك بعيدًا. لقد ضعت يا تانيا لقد ضعت وانتهيت!

نظرت تانيا إلى لتفينوف ورددت وكأنها لم تحسن الفهم:

- ضعت؟ ضعت؟

- أجل ضعت يا تانيا. كل ماضيّ، كل ما أحببته، كل ما عشت من أجله حتى الآن ـ كل ذلك ضاع. كل شيء تحطم وتخرّب، ولا أدري ماذا ينتظرني. لقد قلت الآن إني لم أعد أحبك... لا يا تانيا، أنا ما زلت أحبك، ولكن عاطفة غير هذه، عاطفة قاهرة مخيفة ـ جرفتني كالشلال.. لقد حاربتها جهد استطاعتي...

فنهضت تاتيانا وقد انعقد حاجباها واربدّ وجهها الشاحب. ووقف لتفينوف أيضًا. بدأت تقول:

- أنت تحب امرأة أخرى، وأنا أحدس من هي... لقد قابلناها أمس. أليس كذلك! حسنا، إني أعلم الآن ماذا يمكنني عمله. ما دمت أنت نفسك تقول إن هذه العاطفة لا يمكن أن تتغير (وتوقفت تاتيانا لحظة، ولعلها كانت لا تزال تأمل ألا يدع لتفينوف هذه الكلمة الأخيرة تمر من دون اعتراض، ولكنه لم يقل شيئًا) إذن فليس لي إلا أن أرد إليك... كلمتك.

فحنى لتفينوف رأسه، وكأنه يتلقى في خضوع ضربة يستحقها كل الاستحقاق.

قال: - لك كل الحق أن تغضبي على. لك كل الحق أن تؤنبيني على ضعفي... وخداعي...

فنظرت إليه تاتيانا مرة أخرى.

أنا لم أؤنبك يا لتفينوف، ولست أتهمك. إني أوافقك، فالحقيقة، مهما تكن مرة، أهون مما كان بالأمس. أية حياة كانت تصير حياتنا الآن؟

فارتد الصدى حزينًا في نفس لتفينوف:

- أية حياة تصير حياتي الآن!

وذهبت تاتيانا نحو باب المخدع:

- أسألك أن تتركني وحدي قليلًا يا جريجوري ميهاليتس. سوف نتقابل مرةأخرى. سوف نتحدث مرة أخرى. لقد كان هذا كله غير متوقع. يجب أن أتمالك نفسي... اتركني... أبقِ على كبريائي... سوف نتقابل مرة أخرى.

وتراجعت تاتيانا مسرعة وهي تنطق بهذه الكلمات، وأغلقت الباب خلفها. وخرج لتفينوف إلى الشارع ذاهلًا مشدوها. كان شيء أسود مُرٌّ يكمن في أعمق أعماق فؤاده ـ ولابد أن هذا هو ما يحسه الإنسان الذي ذبح إنسانًا ـ وكان يشعر في الوقت نفسه براحة، وكأنه ألقى عن عاتقه عبئًا فظيعًا. لقد سحقه نبل تاتيانا، وشعر في جلاء بكل ما فقده... ولكن ندمه كان يمازجة سخط. وكان يتوق إلى رؤية إيرينا التي أصبحت ملجأه الوحيد، ولكنه كان في الوقت نفسه غاضبًا عليها. لقد ظلت مشاعر لتفينوف تعنف وتتعقد في هذه الأيام القليلة الأخيرة حتى عذبه هذا التعقد واخنقه وشعر أنه ضائع فيه. كان ظامئا إلى شيء واحد، أن يخرج أخيرًا إلى طريق، أي طريق، حتى لا يدور ويدور في هذه العتمة المستغلقة ـ ومن كان عمليا لتفينوف فلا

ينبغي أن تستحوذ عليه العاطفة، لأنها تحطّم فيه معنى الحياة نفسه.

ولكن الطبيعة لا تبالي بالمنطق ـ منطقنا الإنساني ـ لأن لها منطقها الذي لا نفهمه ولا نعترف به حتى نُسحق تحت عجلته.

حين فارق لتفينوف تاتيانا لم تكن في رأسه إلا فكرة واحدة: أن يرى إيرينا فأنطلق ليراها. ولكن الجنرال كان في البيت، أو على الأقل هذا ما أخبره به البواب ـ فلم يرغب لتفينوف بالدخول، إذ لم يجد في نفسه القدرة على النفاق، واتجه ببطء نحو بهو السمر، فقابل فوروشيلوف وبشتشالكين، وعرف كلاهما كم كان لتفينوف عاجزًا عن النفاق في ذلك اليوم، فقد صارح الأول بأنه فارغ كالبطل، والثاني بأنه ثقيل يزهق الروح. وكان من حسن الحظ أن بنداسوف لم يظهر فتحدث grosser scandal [1] وارتاع كلا الشابين، بل إن فوروشيلوف سأل نفسه، أليس من الواجب أن يدعو لتفينوف إلى المبارزة حرصًا على شرفه العسكري؟ ولكنه كان كالضابط بتروجوف في إحدى روايات جوجول، فهدّأ أعصابه ببضع سندوتشات في قهوة. وأبصر لتفينوف كابيتولينا ماركوفنا على بعد وهي تجري في نشاط من دكان إلى دكان، وعليها شملتها المخططة...فلذعه ضميره لمرأى السيدة العجوز الطيبة المضحكة الكريمة. ثم تذكر بوتوجين وحديثهما بالأمس... وفجأة نبهته نفحة عجيبة: شيء لا يُلمس ولكن لا يخطئه الحِسّ، فلو أن ظلا كان شذى لما كان أرقّ ولا أخفى منه. وشعر لتوه أن إيرينا تقترب. وظهرت حقًا على قيد خطوات منه، وذراعها في ذراع سيدة أخرى. وسرعان ما التقت عيناهما. ولعل إيرينا لاحظت أمرًا شاذًا على سيماء لتفينوف فوقفت أمام دكان عرضت فيه ساعات حائط خشبية صغيرة مما يصنع في الغابة السوداء، وأومأت إليه أن يقترب، فأشارت إلى إحدى هذه الساعات البديعة التي يعلوها ديك ملون، وبينما كانت تدعو إلى تأمل جمالها قالت في غير

---

(1) «فضيحة كبيرة».

همس بل بصوتها الطبيعي وكأنها تتم عبارة بذاتها ـ فذلك أجدر ألا يلفت انتباه الغرباء:

- تعال بعد ساعة، سأكون وحدي.

ولكن زير النساء الشهير المسيو فردييه هجم عليها في تلك اللحظة، وراح يثني على لون ثوبها الأصفر feuille - morte، وعلى قبعتها الأسبانية القصيرة التي تكاد تمسّ حاجبيها..واختفى لتفينوف في الزحام.

- 21 -

بعد ساعتين، كانت إيرينا تقول له، وهي تجلس على الأريكة، وتضع كلتا يديها على كتفيه:

- جريجوري! ما يشغلك؟ أخبرني الآن سريعًا، ونحن وحيدان.

قال لتفينوف:

- ما يشغلني؟ أنا سعيد سعيد. هذا ما يشغلني.

فغضت إيرينا بصرها، وابتسمت، وتنهدت.

- ليس هذا جوابًا على سؤالي أيها الحبيب.

ففكر لتفينوف مليًا:

- حسنًا، فلأخبرك إذن... ما دمت تصرين على ذلك (فتحت إيرينا عينيها وارتعشت رعشة خفيفة) لقد أخبرت خطيبتي أمس بكل شيء.

- ماذا ـ كل شيء؟ أخبرتها بأسمي؟

فرفع لتفينوف يديه مستنكرًا:

- يالله! كيف يمكن أن تخطر لك هذه الفكرة يا إيرينا؟ أنا..

- معذرة...معذرة. ماذا قلت؟

- قلت لها أني لم أعد أحبها.

- وهل سألتك عن السبب؟

- لم أخف عنها أني أحب امرأة أخرى. وإننا يجب أن نفترق.

- آه! وماذا فعلت؟ هل وافقت؟

- أوه يا إيرينا! يا لها من فتاة! إنها عين التضحية والنبل!

- لا أشك في ذلك، لا أشك في ذلك...وإن كانت لا تملك غير هذا.

- ولا كلمة تأنيب، ولا كلمة واحدة مره، مع أني أفسدت حياتها كلها، وخدعتها، ونبذتها بلا رحمة...

وكانت إيرينا تتأمل أظافرها.

- أخبرني يا جريجوري... أكانت تحبك؟

أجل يا إيرينا، كانت تحبني كثيراً.

وصمتت إيرينا دقيقة، وشدت ثوبها. ثم قالت:

- إني لا أفهم لماذا قررت فجأة أن تصارحها بالأمر؟

- لماذا؟ لا أظنك كنت تفضلين أن أكذب عليها وأخدعها، وهي الطيبة البريئة. أم كنت تظنين...

فقاطعته إيرينا:

- لم أكن أظن شيئًا. يجب أن أعترف لك بأني لم أفكر فيها إلا قليلًا. أنا لا أحسن التفكير في شخصين معًا.

- تعنين أن...

فقاطعته إيرينا مرة أخرى:

- حسنًا. ثم ماذا؟ هل ترحل هذه الطيبة البريئة؟

فأجاب لتفينوف:

- لا أعلم. يجب أن أراها ثانية. ولكنها لن تقيم.

- آه مع السلامة!

- إنها لن تقيم. ولكني لا أفكر فيها الآن، بل أفكر في ما قلته لي، في ما وعدتني به.

فرمقته إيرينا من بين أجفانها:

أيها الرجل الجاحد! ألم تقنع بعد!

لا يا إيرينا أنا غير قانع. لقد أذقتني طعم الهناء، ولكني غير قانع. وأنت تعرفين ما أعنيه.

- هذا إنني...

- نعم، أنت تعرفين ما أعنيه. تذكري كلماتك، تذكري ما كتبته إليَّ، أنا لا أستطيع أن أقتسمك مع غيري. لا، لا، لن ألعب هذا الدور الوضيع، دور العشيق المتلصص. أنا لم ألق عند قدميك بحياتي وحدها، بل بحياة أخرى معها، لقد تخليت عن كل شيء، ولكني واثق ـ مؤمن كل الإيمان بأنك إزاء هذا ستبرّين بوعدك، وتوحّدين بين حظي وحظك إلى الأبد.

- أتريد أن أفر معك؟ إني على استعداد... (وراح لتفينوف يقبل يديها في نشوة الفرح) إني على استعداد. لن أرجع في كلمتي. ولكن هل فكرت أنت في كل الصعوبات، هل أعددت كل الوسائل؟

- أنا؟ إني لم أجد وقتًا بعد للتفكير في شيء، أو لإعداد شيء. لكن قولي نعم، ودعيني أعمل، فلا يمر شهر...

- شهر! سنرحل إلى إيطاليا بعد أسبوعين.

- أذن يكفيني أسبوعان. أوه يا إيرينا! إنك تقابلين اقتراحي ببرود، ولعلك تظنينه خياليًا، ولكني لست صبيًا، ولم أتعود أن أتلهى بالأحلام. وأنا أعلم أنها خطوة خطيرة، أنا أعلم أي مسئولية سأتحملها، ولكني لا أرى طريقًا آخر. فكري في الأمر. يجب أن أقطع كل صلة بالماضي، ولو لم يكن لهذا من سبب إلا كراهة أن أبدو كذابا حقيرًا في عيني الفتاة التي ضحيت بها من أجلك!

فانتفضت إيرينا فجأة وقد ومضت عيناها:

- أوه، أما هذا فلا يا جريجوري ميهالتش! إذا قررت هذا ـ إذا قررت حقًا فسأفرّ مع رجل يفعل ذلك من أجلي، من أجلي أنا وحدي، لا كراهة أن يسقط من عيني فتاة راكدة الطبع، يجري في عروقها اللبن والماء بدل الدم! وسأخبرك بشيء آخر: أعترف أن هذه أول مرة أسمع فيها أن الرجل الذي شرّفته بنظراتي جدير بالإشفاق، وأنه يلعب دورًا وضيعًا! أنا أعرف دورًا أوضع منه. دور الرجل الذي لا يدري بما يدور في قلبه!

فانتفض لتفينوف بدوره، قائلاً:

إيرينا...

ولكنها دقت جبينها فجأة بكلتا يديها، وألقت بنفسها على صدره في حركة تشنجية وراحت تعانقه بأشد من قوة الأنثى، وتقول بصوت مرتعش:

- سامحني، سامحني، سامحني يا جريجوري! أرأيت كم أنا فاسدة، غيور، حاقدة، شرسة! أرأيت كم أحتاج إلى عونك وتسامحك! نعم، أنقذني، أخرجني من هذا المستنقع قبل أن أضيع فيه! نعم، تعال نفر، نفر من هؤلاء الناس، من هذا المجتمع، إلى بلاد بعيدة جميلة حرة! لعل حبيبتك إيرينا تكون جديرة آخر الأمر بما تضحي به من أجلها! لا تغضب عليَّ، أعف عني أيها الحبيب، إعلم أني سأفعل كل ما تأمرني به، سأذهب حيث تريد!

واصطخب قلب لتفينوف، وازدادت إيرينا التصاقًا به، بجسمها الفتيّ اللّدِن، فأنحنى على شعرها العبق الذي انسدل، ولم يكد يجرؤ وهو في نشوة السعادة والشكر أن يداعبه بيده، أو يمسّه بشفتيه.

ردد: إيرينا، إيرينا. يا ملاكي...

فرفعت رأسها فجأة، وأنصتت... ثم همست:

إنها خُطى زوجي... لقد دخل حجرته. ثم عبرت الغرفة إلى كرسي آخر. وهم لتفينوف أن يقوم لينصرف، فاستمرت تقول هامسة:

- أين تذهب؟ إبق. إنه يرتاب فيك من الآن. أم أنت تخافه؟ ـ ولم ترفع عينيها عن الباب ـ نعم، إنه هو. سيدخل بعد قليل. قل شيئًا، تحدث إليَّ.

ولم يستطع لتفينوف أن يفكر في شيء، فبقي صامتًا. عندها قالت بصوت عال. «ألست ذاهبًا إلى المسرح غدًا؟ إنهم يمثلون La verre d'eau، رواية قديمة، وبليسي متكلفة إلى درجة فظيعة.» وأضافت وهي تخفض صوتها: «نحن أشبه بمحمومين. لا فائدة، يجب أن نفكر جيدًا. كان يجب أن أنذرك بأن نقودي كلها بين يديه «mais j'ai mes bijoux [1] لنذهب إلى أسبانيا، ما رأيك؟» وعادت فرفعت صوتها: «لماذا تصبح كل الممثلات بدينات؟ مادلين بروهان مثلًا...تكلم، لا تجلس هكذا صامتًا. إن رأسي يدور. ولكن، ولكن يجب ألا تشك فيَّ... سأخبرك أين نلتقي غدًا. إلا أنك أخطأت بإخبار تلك الفتاة... وصاحت فجأة: Ah, mais... c'est charment [2] ـ ومزقت حاشية منديلها وهي تضحك ضحكة عصبية.

سأل راتميروف من الحجرة الأخرى:

- أأدخل؟

---

(1) «ولكن عندي الحلى».

(2) «آه، بديع!».

- نعم... نعم.

فُتح الباب. وظهر الجنرال على عتبته. وحين رأى لتفينوف عبس قليلًا، ولكنه انحنى له، أي ثنى القسم الأعلى من شخصه الكريم.

قال: لم أكن أعلم أن معك ضيفا:ـ je vous demande pardon de mon in diserétion [1] إذن فما زلت تستطيب الإقامة في بادن يا مسيو ـ لتفينوف؟ لتفينوف؟

كان راتميروف ينطق بلقب لتفينوف في شيء من التردد دائمًا، وكأنه ينساه كل مرة، ولا يستطيع أن يتذكره على الفور... وبهذه الطريقة، وكذلك برفع قبعته حين يحييه، كان يحاول أن يجرح كبرياءه.

- أني لا أشعر بالملل هنا: Monsieur le général [2]

- حقًا؟ أما أنا فأجد بادن مملة إلى حد الفظاعة. نحن سنرحل قريبًا، أليس كذلك يا إيرينا بافلوفنا؟ assez de Bade indiscrétion [3] مع أني ربحت لك اليوم خمسمائة فرنك.

فمدت إيرينا يدها بدلال:

- أين هي؟ هاتها من فضلك..لمصروفي..

- سأعطيك إياها، سأعطيك إياها.. أخارج هكذا سريعًا يا مسيو ـ لتفينوف؟

- نعم، كما ترى.

وثنى راتميروف جسمه مرة أخرى.

---

(1) «أطلب المعذرة على تسرعي».

(2) «يا سيدي الجنرال».

(3) «شعبنا من بادن».

- يسرني أن أراك ثانيًا!

قالت إيرينا:

- وداعًا يا جريجوري ميهالتش. سأبرّ بوعدي.

فسأل زوجها:

- أي وعد؟ هل لي أن أتطفل؟

فابتسمت إيرينا:

- لا، إنه شيء كنا نتحدث عنه: c'est a'propos du voyage ou il vous plaira [1] أتعرف كتاب ستايل؟

آه ! آه! بلا شك. صور رائعة.

وبدا راتميروف على أتم وفاق مع زوجته.

(1) «موضوع السفر.. حيث الأماكن المحبة».

- 22 -

ردد لتفينوف وهو ينحدر في الشارع بخطا واسعة، وقد أحسّ أن الضجة الباطنة تثور فيه من جديد: «الأفضل ألا أفكر الآن: لقد تقرر الأمر، ستفي بوعدها، وما علي إلا أن أرتب الخطوات اللازمة... ولكنها تبدو مترددة..» وهز رأسه، ولاحت له مشروعاته، ونفسه، في ضوء غريب: لقد كان فيها شيء مصطنع غير حقيقي.

إن المرء لا يستطيع أن يطيل التأمل في أفكار بعينها إلا إلى حد محدود. فهي تتحرك تدريجا كقطع الزجاج في كاليدوسكوب... وبينما ينظر المرء يجد الأفكار التي أمام عينيه قد تغيرت تغيرًا تامًا. وهكذا هبط على لتفينوف إحساس بالكلال..لو استطاع أن يستريح ساعة واحدة قصيرة! ولكن تانيا! وأيقظ نفسه، وبغير مزيد من التفكير انقلب إلى مسكنه خاضعًا. كان كل ما خطر في ذهنه أنه ظل طوال اليوم يُتقاذف كالكرة بين الواحدة والأخرى... لا بأس، فليضع حدًا للأمر. وعاد إلى فندقه وذهب ليرى تانيا، لم يتردد ولم يسوِّف، وهو على حاله تلك من الخضوع والخدر.

وقابلته كابيتولينا ماركوفنا. فعرف من أول نظرة أنها علمت بكل شيء. كانت عينا العانس المسكينة ورمتين من البكاء، ووجهها المحمرّ الذي أحاطت به خصلها البيض المشعثة يعبر عن جزع وغضب وحزن وذهول. اندفعت إلى لتفينوف، ولكنها تماسكت على الفور، ونظرت إليه وهي تعضّ على شفتيها المرتعدتين، وكأنها تريد أن تضرع إليه، وتريد مع ذلك

أن تقتله، ثم تؤكد لنفسها إن الأمر كله كان جنونا، حلما، محالا... أليس كذلك؟

بدأت تقول:

- إذن فقد جئت، جئت...

وسرعان ما فُتح باب الغرفة المجاورة ودخلت تاتيانا بخطا خفيفة، شاحبة يكاد جلدها يشف، ولكنها على أتم الهدوء. فأحاطت عمتها بذراعها في رقّة وأجلستها بجانبها، وقالت للتفينوف الذي كان واقفا عند الباب كمن لا يجد نفسه:

- أجلس أنت جريجوري ميهاليتش. يسرّني أن أراك مرة أخرى. لقد أخبرت عمتي بعزمك، بل بعزمنا المشترك. وهي تشاطرنا إياه وتقرّنا عليه كل الإقرار... لا سعادة بغير الحب المتبادل، أما الاحترام المتبادل فلا يكفي وحده (وغض لتفينوف بصره بلا إرادة حين سمع كلمة الاحترام). وخير أن نفترق الآن من أن نندم غدًا. أليس كذلك يا عمتي؟

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول:

- نعم، طبعا يا حبيبتي تانيا. الرجل الذي لا يستطيع أن يقدّرك... الذي يبلغ به الأمر...

فقاطعتها تاتيانا:

- عمتي! عمتي! تذكري وعدك لي. لقد كنت تقولين لي دائمًا: الحقيقة يا تانيا، الحقيقة والحرية. حسنا، إن الحقيقة ليست حلوة دائمًا، وكذلك الحرية، وإلا ففيمَ فضيلتهما؟

وقبّلت كابيتولينا ماركوفنا على شعرها الأبيض، والتفتت إلى لتفينوف ومضت تقول:

- إني أفكر أنا وعمتي في الرحيل عن بادن... ولعل هذا أوفق لنا جميعًا.

فقال لتفينوف بصوت باهت:

- ومتى تفكران في الرحيل؟

وتذكر إن إيرينا سألته هذا السؤال نفسه منذ قليل.

وتحركت كابيتولينا ماركوفنا نحوه، ولكن تاتيانا ردتها بلمسة عطوف على كتفها:

- قريبًا، قريبًا جدًا.

وسأل لتفينوف بنفس الصوت:

- وهل تسمحين لي أن أسأل أين تنويان الذهاب؟

- إلى درسدن أولًا، ثم لعلنا نذهب بعد ذلك إلى روسيا.

فصاحت كابيتولينا ماركوفنا:

ولكن ما حاجتك الآن إلى معرفة ذلك يا جريجوري ميهالتش؟

فقاطعتها تاتيانا مرة أخرى:

- عمتي! عمتي!

وساد صمت قصير، ثم بدأ لتفينوف يقول:

تاتيانا بتروفنا، أنت تعلمين ما عسى أن تكون مشاعري في هذه اللحظة الأكثر إيلامًا ومرارة...

فنهضت تاتيانا قائلة:

- جريجوري ميهالتش، لن نتحدث عن ذلك... أرجوك، أرجوك من أجلي، إن لم يكن من أجلك أنت. لقد عرفتك منذ زمن طويل، وإني لقادرة على تصور ما تشعر به الآن. ولكن ما جدوى الكلام؟ ما جدوى مسّ جرح (وأمسكت، وكان جليًا أنها تريد أن تكبح انفعالا مهاجما، وأن تزدرد دموعا

ثائرة. وقد أفلحت) لماذا ننكأ جرحا لا نملك دواءه؟ دع ذلك للزمن. والآن أريد منك شيئًا يا جريجوري ميهالتش: سأعطيك خطابًا، فلعلك تتكرم بوضعه في البريد بنفسك، لأنه هام، وأنا مشغولة الآن مع عمتي... أكون شاكرة... انتظر دقيقة... سأحضره حالًا.

وعند عتبة الباب التفتت تاتيانا بقلق إلى كابيتولينا ماركوفنا، ولكنها كانت جالسة في وقار وكبرياء، وكان على حاجبيها المعقودين وشفتيها المزمومتين تعبير صارم، فاكتفت تاتيانا بأن أومأت إليها إيماءة ذات معنى، وذهبت.

غير أن الباب ما كاد يغلق خلفها حتى تلاشت من وجه كابيتولينا ماركوفنا كل آثار الوقار والصرامة. فنهضت وأسرعت على أطراف أصابعها إلى لتفينوف، وبدأت تقول في همس مرتعش باك، وقد تحدبت وحاولت أن تنظر إلى وجهه:

- بالله يا جريجوري ميهالتش، ما معنى هذا؟ أهو حلم أم ماذا؟ أنت تهجر تانيا، أنت تملّها، أنت ترجع في كلمتك! أنت تفعل هذا يا جريجوري ميهالتش، يا من كنا كلنا نثق فيه ثقة عمياء أنت؟ أنت؟ أنت يا جريشا؟ ـ وتوقفت كابيتولينا ماركوفنا، ثم مضت تقول من دون أن تنتظر جوابًا، ودموعها تجري قطرات رقيقة على خديها: كيف! إنك تقتلها يا جريجوري ميهالتش. لا تحكم عليها بمسلكها الآن، فأنت تعلم أخلاقها! إنها لا تشكو أبدا، إنها لا تشفق على نفسها. فيجب أن يشفق عليها الآخرون! إنها لا تزال تقول لي: «يجب أن نحتفظ بكبريائنا يا عمتي!» ولكن ماذا تكون الكبرياء حين أرى أمامنا الموت... نعم، الموت... (وقرقع كرسي تاتيانا في الغرفة المجاورة، ومضت السيدة العجوز تقول بصوت أشد انخفاضًا): نعم، إني أرى الموت. كيف أمكن أن يحدث شيء كهذا؟ أهو سحر أم ماذا؟ لم يمض زمن طويل منذ كنت تكتب إليها أرق الرسائل. الحق، هل يستطيع رجل شريف أن يسلك هذا المسلك؟

إنني كما تعرفني امرأة متحررة غير جامدة، ésprit fort، وقد ربيت تانيا هذه التربية نفسها، فهي أيضًا حرة الفكر...

وجاء صوت تاتيانا من الغرفة المجاورة:

- عمتي!

- ...ولكن كلمة الشرف واجب يا جريجوري ميهالتش، وخصوصًا عند من يؤمنون بمبادئك ـ بمبادئنا! إن لم نعترف بالواجب فماذا يبقى لنا؟ لا يمكنك أن تحنث في وعدك هكذا، لمجرد نزوة، من دون أن تنظر إلى ما يصيب غيرك! إن هذا مخالف لكل مبدأ... نعم، إنها جريمة... نوع غريب من الحرية!

وسمع مرة أخرى:

- عمتي، أتسمحين بالمجيء هنا؟

- أنا آتية يا حبيبتي، أنا آتية... وأمسكت كابيتولينا ماركوفنا بيد لتفينوف وأكملت: أرى أنك غاضب يا جريجوري ميهالتش... (وأراد أن يقول: أنا! أنا غاضب؟ ولكن لسانه خرس) أنا لا أريد أغضابك بل على العكس! أريد أن أتوسّل إليك... فكر قبل أن يفوت الأوان، لا تحطمها، ولا تحطم سعادتك أنت، أنها ما زالت تريد أن تثق فيك. جريشا! إنها ستصدقك، لم يضع شيء بعد. كيف! إنها تحبك حبًا لن يمنحك أحد مثله! ارحل عن بادن ـ بادن الكريهة هذه، لنرحل جميعًا، ما عليك إلا أن تنفض عن نفسك هذا السحر، والمهم. أشفق، أشفق... ونادت تاتيانا بشيء من الضجر:

- عمتي!

ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تسمعها.

- ما عليك إلا أن تقول نعم، وأنا أرتب كل شيء... ما عليك إلا أن تومئ

لي إيماءة كهذه أيها العزيز... إيماءة واحدة!

وشعر لتفينوف أن الموت حبيب إليه في تلك اللحظة، ولكنه لم ينطق كلمة «نعم»، ولم يومئ.

وعادت تاتيانا بخطاب في يدها. فأسرعت كابيتولينا ماركوفنا مبتعدة عن لتفينوف، وحوّلت وجهها منحنية على المنضدة، وكأنها تنظر فيما عليها من كشوف وأوراق.

وتقدمت تاتيانا إلى لتفينوف. وقالت:

- هاك الخطاب الذي تكلمت عنه...هل تذهب به إلى البريد على الفور؟

فرفع لتفينوف عينيه... حقا لقد كان قاضيه ماثلا أمامه. وبدت له تاتيانا أطول مما هي وأشد نحولا، وكان وجهها، الذي أشرق بجمال غير مألوف، عظيما عظمة تمثال من الحجر، ظل صدرها ساكنا، وكان رداؤها ذو اللون الواحد، المعتدل كشملة إغريقية قديمة، يسقط ثنيات طويلة مستوية كثنيات الرخام على قدميها المختفيتين تحته. وكانت تاتيانا تنظر أمامها نظرة مستقيمة، كانت تنظر إلى لتفينوف وحده، وفي نظرتها برود وهدوء. كأنها أيضًا نظرة تمثال. وقرأ لتفينوف فيها الحكم عليه، فانحنى، وتناول الخطاب من اليد التي امتدت إليه بثبات، وانصرف صامتًا.

وأسرعت كابيتولينا ماركوفنا إلى تاتيانا. ولكن هذه صدّت عناقها وغضت بصرها، وغشى وجهها احمرار، ومضت إلى مخدعها وهي تقول: «يجب أن نسرع الآن» وتبعتها كابيتولينا ماركوفنا مطرقة الرأس.

كانت الرسالة التي عهدت بها تاتيانا إلى لتفينوف موجهة إلى إحدى صديقاتها في درسدن، وهي سيدة ألمانية تؤجّر مساكن مفروشة وألقى لتفينوف الرسالة في صندوق البريد، وخيل إليه أنه يلقي مع هذه القصاصة الصغيرة ماضيه كله، بل حياته كلها ـ إلى المقبرة. فخرج إلى ظاهر المدينة،

وظل يتجول في ممرات ضيقة بين بساتين الكروم، ولم يستطع أن يتخلص من شعور باحتقار النفس كان يلحّ عليه كطنين ذبابة صيف. لقد كان الدور الذي مثله في هذا اللقاء الأخير دورًا لا يحسد عليه...ولما عاد إلى فندقه، وسأل بعد قليل عن السيدتين، قيل له إنهما أمرتا ساعة خروجه بمركبة تقلهما إلى محطة السكة الحديدية، ورحلتا في قطار البريد إلى وجهة غير معلومة. وكانت أمتعتهما معدة منذ الصباح، وتذكراتيهما مدفوعة، وكان جليا أن تاتيانا سألت لتفينوف أن يحمل خطابهما إلى البريد لكي تبعده عن سبيلهما. وتجاسر على سؤال البواب: هل تركت له السيدتان أي خطاب؟ فأجاب بالنفي، وأظهر الدهشة، فقد بدا له هذا الرحيل المفاجئ، بعد استئجار المسكن أسبوعًا، أمرًا غريبًا يدعو إلى الريبة. فأولاه لتفينوف ظهره، واعتكف في حجرته.

ولم يغادرها حتى اليوم التالي. وقضى معظم الليل جالسًا إلى المنضدة يكتب، ويمزق ما كتب... وكان الفجر قد بدا يلوح حين فرغ من عمله ـ كان خطابا إلى إيرينا.

- 23 -

وهذا ما كان في خطابه إلى إيرينا:

«لقد رحلت خطيبتي أمس، ولن نلتقي بعد الآن... بل إني لا أعلم علم اليقين أين تعيش بعد اليوم. لقد أخذت معها كل ما كان عزيزًا لدي حتى الآن. لقد ذهبت معها كل أفكاري وخططي وحياتي السابقة، لقد ضاعت جهودي، وانتهى عمل السنين إلى لا شيء، ولم يعد لكل ما سعيت إليه معنى ولا فائدة. مات كل ذلك. نفسي، ذاتي القديمة، دفنت منذ الأمس. إني أشعر بذلك وأراه وأحسّه في وضوح...ولست آسفًا عليه، ولست أقول لك هذا شاكيا.. وكيف أشكو وأنت تحبينني يا إيرينا! إنما أردت أن أخبرك بأنه لم يبق من كل هذا الماضي الميت، من كل هذه الآمال والجهود التي أصبحت دخانا ورمادا ـ لم يبق حيًا قاهرًا إلا حبي لك. لم يبق لي شيء سوى ذلك الحب: وقليل أن أقول إنه كنزي الوحيد. فإن كياني كله في ذلك الحب. إن ذلك الحب هو كل وجودي. إن فيه مستقبلي. وعملي. وبلادي. وكل مقدس عندي! أنت تعرفينني يا إيرينا. أنت تعرفين أني لا أحسن الكلام المنمق، بل أكرهه. فمهما تكن قوية تلك الكلمات التي أحاول التعبير بها عن شعوري فلا ترتابي في صدقها، ولا تحسبي أن فيها شيئًا من المبالغة. لست صبيًا يتمتم أمامك في فورة النشوة الطارئة بعهود لا يعي معناها، ولكني رجل ناضج السن يخبرك ببساطة ووضوح ـ بل بذعر ـ بما عرف أنه الحقيقة التي لا مناص منها. أجل، إن حبك قد حلّ عندي محل كل شيء ـ

كل شيء، كل شيء! فاحكي أنت: أأستطيع أن أدع كلى هذا بين يدي رجل آخر؟ أنت ستكونين ملكه. كل وجودي ودم قلبي سيكون ملكه. وأنا... أين أنا؟ ما أنا؟ غريب متفرج... أتفرّج على حياتي نفسها! كلا إن هذا محال. محال! أأقتسم في الخفاء ذلك الذي تغدو الحياة بدونه عبثا ومحالا... هذا هو الغش والموت. أنا أعلم عظم التضحية التي أسالك إياها بغير حق، وما الذي يمنح المرء حقًا في التضحية؟ ولكني لست أنانيا حين أفعل ذلك. فالأناني يرى أنه من الأسهل والأسلم ألا يثير هذه المسألة على الإطلاق. أجل. إن مطالبي باهظة، ولن أدهش إذا أخافتك. فأنت تكرهين الناس الذين تعاشرينهم مضطرة، وأنت قد سئمت المجتمع، ولكن هل لديك من القوة ما يمكنك أن تطرحي هذا المجتمع،أن تدوسي تحت قدميك الفوز الذي توَّجك به، أن تثيري عليك الرأي العام ـ رأى هؤلاء القوم الذين تكرهينهم؟ سلي نفسك يا إيرينا. لا تحمّلي نفسك عبئًا أعظم مما تطيقين. أنا لا أريد أن أبكّتك. ولكن تذكري أنك عجزت مرة عن الصمود للإغراء. أنا لا أستطيع أن أقدم إليك إزاء كل ما تفقدينه سوى القليل. اسمعي كلمتي الأخيرة: إن كنت لا تجدين من نفسك القدرة غدا ـ بل اليوم ـ على أن تتركي كل شيء وتتبعيني ـ أنت ترين جسارتي في التعبير، وإصراري في الطلب ـ إن كنت تخشين المستقبل المزعزع، إن كنت تخشين الغربة، والوحشة، واحتقار الناس، إن لم تكوني واثقة من نفسك، فصارحيني بذلك ولا تمهلي صارحيني فأرحل عنك. سأرحل بقلب كسير ولكني سأباركك لصدقك. أما إن كنت يا ميلكتي الجميلة الباهرة تحبين حقًا هذا الرجل الخامل المتواضع، وترغبين حقًا أن تشاركيه حظه، فهاتي يدك إذن، وهيا ننطلق سويًا في رحلتنا الشاقة! ولكن أعلمي أن عزمي لن يتغير. فإما كل شيء وإما لا شيء. إنه جنون.. ولكني لا أستطيع غيره. لا أستطيع يا إيرينا! حبي لك فوق ذاك.

حبيبك «ج. ل»

لم يرض لتفينوف كثيرًا عن هذه الرسالة. فقد اعتبر أنّها لم تصور ما

أراد أن يقوله تصويرا صادقًا كل الصدق، ولا دقيقًا كل الدقة. وكانت فيها عبارات قلقة، أشبه بما في الكتب، أو أقرب إلى المبالغة وكانت ـ بلا شك ـ لا تفضل كثيرًا من الرسائل التي مزقها، ولكنها كانت آخر هذه الرسائل، وكانت النقطة الأساسية مقررة فيها تقريراً واضحًا على كل حال، ولم يشعر لتفينوف وهو في ألمه وإعيائه بمقدرة على اقتلاع شيء آخر من رأسه، ثم إنه لم يكن يملك القدرة على وضع أفكاره في صورة أدبية، وكان ـ ككل من لا يمارسون الكتابة ـ يحتفل كثيرًا للأسلوب. ولعل رسالته الأولى كانت أحسن رسائله، إذ كانت صادرة من قلبه وعلى كل حال فقد بعث لتفينوف برسالته إلى إيرينا.

وأجابت بكلمة قصيرة:

«تعال إليّ اليوم. إنه سيغيب طول النهار. لقد أزعجني خطابك جدًا. إني أفكر وأفكر...ورأسي يدور من التفكير. إني في هم شديد ولكنك تحبني. وأنا سعيدة...تعال.»

حبيبتك «إ»

كانت جالسة في مخدعها حين دخل لتفينوف. قادته إليها البنت الصغيرة ذات الثلاثة عشر عامًا، تلك التي ترقبته في اليوم السابق على الدرج. وكان على المنضدة المواجهة لإيرينا صندوق من الورق المقوى شبه دائري فيه وشى. وكانت تلف الوشى بإحدى يديها في غير عناية، وتمسك بالأخرى خطاب لتفينوف. وكانت قد كفت عن البكاء ولما تكد، فأهدابها مخضلة، وأجفانها وَرِمة، وعلى خديها آثار الدموع لم تكفكف. ووقف لتفينوف ساكنا بالباب فلم تلحظ دخوله.

قال متعجبا: - أتبكين؟

انتفضت، ومرّرت يدها على شعرها. وابتسمت.

وأعاد لتفينوف:

- لماذا تبكين؟

فأشارت إلى الرسالة في صمت. فنطق متلعثما:

- إذن فقد كنت... لتلك...

قالت:

تعال. اجلس. هات يدك. أجل. لقد كنت أبكي. مم تعجب؟ أهذا قليل؟

وأشارت إلى الرسالة ثانية.

وجلست لتفينوف:

- أعلم أن الأمر غير يسير يا إيرينا. وأنا أقول هذا في رسالتي... إني أفهم موقفك. ولكن إن كنت تعرفين ما يعنيه حبك لي، إن كانت كلماتي قد أقنعتك، فلا بد أنك تفهمين أيضًا ما أشعر به الآن لمرأى دموعك. لقد جئت إلى هنا كرجل يُساق إلى المحكمة، وإني لأنتظر قضائي: الموت أم الحياة؟ إن جوابك يقرر كل شيء. لكن لا تنظري إليّ بهاتين العينين... إنهما تذكراني بالعينين اللتين رأيتهما قديمًا في موسكو.

فأحمر وجه إيرينا فجأة، والتفت، وكأنها شعرت هي نفسها بنذير شؤم في نظرتها.

- لماذا تقول ذلك يا جريجوري؟ واخجلتاه! تريد أن تعلم جوابي... أتعني أنك تستطيع أن ترتاب فيه؟ تزعجك دموعي...ولكنك لا تفهمها. إن رسالتك ـ يا أعز عزيز ـ جعلتني أفكر. ها أنت تقول إن حبي شغل كل مكان عندك، حتى دراساتك السابقة لن تكون لها فائدة بعد الآن، ولكني أسائل نفسي: أيستطيع الرجل أن يعيش للحب وحده؟ ألا يمل الحب آخر الأمر، ألا يتوق إلى العمل، ويلوم ذلك الذي انتزعه منه؟ هذه هي الفكرة التي تفزعني، هذا هو ما أخافه، لا ذلك الذي كنت تتخيله.

وأطال لتفينوف النظر إلى إيرينا، وأطالت النظر إليه، كأن كلا منهما يريد أن ينفذ إلى أغوار نفس صاحبه، إلى أغوار لا تصل إليها الكلمات، ولا يعبَّر عنها بالكلام.

ثم بدأ لتفينوف يقول:

- أنت مخطئة إذ تخافين ذلك. لا بد أني أسأت التعبير، الملال؟ الخمول؟ مع القوة الجديدة التي يبعثها في حبك؟ أوه يا إيرينا، إني أجد حبك عالما بأسره، ولا أستطيع أنا نفسي أن أتنبأ بما يكمن فيه.

وفكرت إيرينا، ثم همست:

- أين نذهب؟

- أين؟ سنتحدث عن ذلك. ولكنك إذن...إذن توافقين؟ أتوافقين يا إيرينا؟

فنظرت إليه:

- وتكون سعيدًا؟

- أوه يا إيرينا!

- ولا تأسف على شيء؟ أبدًا؟

وانحنت على صندوق الورق، وبدأت تنظر مرة أخرى إلى ما فيه من وشى. قالت:

- لا تغضب يا حبيبي لأني أشغل نفسي بهذه التوافه في مثل هذه اللحظة...إني مضطرة لأن أذهب الليلة إلى حفل رقص في منزل سيدة من السيدات، وقد جاءتني هذه الزيوق، وعليَّ أن أختار شيئًا منها اليوم.

وصاحت فجأة:

- آه، ما أتعسني!

ووضعت رأسها على حافة الصندوق. وجعلت الدموع تنحدر من عينيها ثانية... فالتفتت، قد تفسد الوشي الدموع.

وبدأ لتفينوف يقول في قلق:

- إيرينا! أتبكين ثانية؟

فقاطعته إيرينا مسرعة:

- أجل ثانية. أوه يا جريجوري! لا تعذبني. لا تعذب نفسك! لنكن أحرارًا! لم لا أبكي؟ وهل أعلم أنا في الحقيقة لماذا تسيل دموعي؟ أنت تعرف قراري. لقد سمعته. وأنت تعلم أنه لن يتغير. إني أوافق على... كيف قلت؟ إما كل شيء أو لا شيء... ماذا تريد أكثر من هذا؟ فلنكن أحرارًا! لماذا تضع القيود حولنا؟ نحن وحيدان الآن. وأنت تحبني. وأنا أحبك. فهلا نجد لنا شغلا خيرا من التفتيش في ضمائرنا؟ انظر إلي. أنا لا أريد أن أتحدث عن نفسي أنا ما أشرت بكلمة واحدة إلى أنه ربما لم يكن سهلًا عليَّ أن أدوس على واجبي كزوجة... ولا أخدع نفسي. فأنا أعلم أني مجرمة. وأنه يحق له أن يقتلني. ولكني لا أبالي. فلنكن أحرارًا. العمر يوم...

ونهضت عن كرسيها. ونظرت إلى لتفينوف من عل، وهي تبتسم ابتسامة خفيفة، وتضيق عينيها، بينما كانت تزيح عن وجهها، بذراع عارية حتى الكوع، خصلة طويلة لمعت عليها عبرات قليلة. وانزلق عن المنضدة وشاح ثمين. وسقط على الأرض عند قدمي إيرينا. فداسته باحتقار.

- 24 -

كان لتفينوف يروح ويجيئ في غرفته بالفندق وهو مطرق يفكر. أصبح من الواجب أن ينتقل من النظرية إلى التطبيق، وأن يدبر الطرق والوسائل للهرب والرحيل إلى بلاد مجهولة. ولكن العجيب أنه لم يفكر في الطرق والوسائل بقدر كان يفكر هل وصل حقًا وبلا أدنى ريب إلى القرار الذي أصرّ عليه ذلك الإصرار؟ هل قيلت الكلمة الأخيرة التي لا يمكن أن تَستَرَد؟ لا شك أن إيرينا قالت له حين فارقته: «رتّب كل شيء. ومتى أصبحت مستعدًا فما عليك إلا أن تخبرني». إذن فالأمر مقرر. ولا محل للشك! فعليه أن يبدأ في مهمته. وقد بدأ لتفينوف مهمته بالتفكير المنظّم. أولًا النقود. وقد وجد لتفينوف أن بيده من النقود 1328 جلدًا، أي 2855 فرنكًا بالعملة الفرنسية. وهو مبلغ صغير، ولكنه يكفي حاجاتهما الأولى. ثم عليه أن يكتب إلى أبيه ليرسل إليه كل ما يستطيع. فليبع الغابة وجزءًا من الأرض. ما عسى أن تكون حجته؟ حسنًا. سيجد حجة مناسبة. لقد أشارت إيرينا إلى حليّها. هذا صحيح ولكن هذه الحلى لا ينبغي أن تدخل في حسابه مهما تكن الأسباب. فمن يدري؟ قد تنفع في أزمة. وكانت له غير ذلك ساعة سويسرية جيدة، يمكنه أن يأخذ فيها... لنقل 400 فرنك.

وذهب لتفينوف إلى مصرفي وسأله ـ بعد لف ودوران ـ هل يمكنه أن يقرض نقودًا؟ ولكن الصيارفة في بادن ثعالب مسنة حذرة. فهم يجيبون على هذه المداورات بأن يتظاهروا على الفور بالذبول والأسى كزهرة

برية حزها المنجل. وبعضهم يضحك في وجهك من دون مداورة، وكأنما أعجبته هذه الدعابة البريئة منك.

ويا لخزي لتفينوف إذ جرب حظه على الروليت. حتى الروليت. يا للعار! فوضع تالرا على رقم ثلاثين، وهو الرقم الذي يوافق عمره. وكان يريد أن يزيد رأس ماله و«يقفله». ومع أنه لم يزد رأس ماله فقد «أقفله» حقًا إذ فقد الثمانية والعشرين جلدا الزائدة.

وكانت المسألة الثانية الهامة هي مسألة جواز السفر. ولكن جواز السفر للمرأة لم يكن ضرورة لا يمكن التجاوز عنها. وكانت هناك بلاد لا تحتاج إليه مطلقًا مثل بلجيكا وإنجلترا. ثم إن من المستطاع الحصول على جواز غير روسي. فكر لتفينوف في ذلك كله تفكيرًا عميقًا، وكان عزمه ثابتًا لا يتزعزع، على أن شيئًا أقرب إلى الهزل منه إلى الجد كان لا ينفك يتسلل إلى أفكاره، وكأن الأمر كله مهزلة، وكأن أحدًا لم يفر مع أحد قط في الواقع، بل في التمثيليات والقصص، أو ربما في أعماق الريف، في مجاهل روسيا، حيث يمرض الناس من السأم وحده كما روى بعض المسافرين. وتذكر لتفينوف كيف هرب أحد أصدقائه ـ باتسوف ـ وكان ضابطًا متقاعدا من سلاح الفرسان ـ مع ابنة أحد التجار في عربة بريد بأجراس وترويكا[1]، بعد أن مهد لذلك بإسكار أبويها، واتبع الخطة نفسها مع العروس، وكيف ظهر في ما بعد أنه هو الذي خُدع، وكاد يُضرب فوق ذلك. وضاق لتفينوف بنفسه ضيقًا شديدًا لهذه الخواطر النابية، وتذكر تاتيانا، ورحيلها المفاجئ، وكل ذلك الحزن والبلاء والخزي، فشعر شعورًا أليما بأن الأمر الذي يستعد له أمر جدي فظيع، وبأنه كان محقا حين أخبر إيرينا بأن الشرف نفسه لا يدع له سبيلًا آخر...وإذا به مرة أخرى يلتف على قلبه شيء كالنار لمجرد ذكر اسمها، ثم يسكن تاركًا فيه ألما حلوا.

---

(1) ثلاثة من الخيل في صف.

وسمع وقع حوافر جياد من ورائه...فانتحى ناحية. وأدركته إيرينا على ظهر جواد، وقد ركب بجانبها الجنرال السمين، فعرفت لتفينوف، وأومأت إليه، وألهبت حصانها بضربة من سوطها على جنبه، فعدا قليلًا ثم مرق فجأة في سرعة خاطفة، وهفهف نقابها الأسود مع الريح.

وصاح الجنرال:

Pas si vite, nom de Dieu! pas si vite![1]

وركض خلفها.

(1) «لا تسرعي هكذا! لا تسرعي هكذا بحق الله!».

- 25 -

في الصباح التالي كان لتفينوف عائدًا من عند المصرفي، بعد أن تحدث معه مرة أخرى عن تقلقل سعر عملتنا في السوق الدولية، وخير الوسائل لإرسال النقود إلى الخارج، فسلمه بواب الفندق خطابًا. وعرف لتفينوف خط إيرينا، فذهب إلى حجرته دون أن يفض الخاتم. وقد وقع في نفسه ـ لسبب لا يعلمه إلا الله ـ أن ليس وراء هذا الخطاب خير. وكان هذا ما قرأه (كان الخطاب بالفرنسية):

«يا أعز حبيب، لقد أمضيت الليل كله أفكر في خطتك... أني لا أريد أن أخدعك. لقد كنت صريحًا معي، فلأكن صريحة معك. إني لا أستطيع الفرار معك. ليست لدي القوة لأفعل ذلك. إني أشعر بعمق إساءتي إليك ـ أن إثمي في الثانية لأكبر من إثمي في الأولى ـ إني أحتقر نفسي، وجبني، وأؤنب نفسي بمرارة، ولكني لا أستطيع أن أغير طبيعتي. عبثًا أقول لنفسي إني حطمت سعادتك، وأنك محق الآن في أن تعدني لعوبًا ذات نزوات، وأني أنا التي منيتك ووعدتك أوثق الوعود..إني ميلئة رعبًا وكراهية لنفسي، ولكني لا أستطيع أن أفعل غير ما أفعله، لا أستطيع، لا أستطيع. أن أبرئ نفسي، لن أقول لك أني أنا أيضًا كنت مدفوعة بعاطفتي... فهذا كله لا قيمة له، ولكني أريد أن أقول لك، وأكرر مرة بعد مرة، إني لك، لك إلى الأبد، فأفعل بي ما شئت، متى شئت، بلا شروط، ولا قيود! أني لك... أما أن أفر، وأرمي كل شيء... فلا! لا! لا! لقد توسلت إليك أن تنقذني. لقد رجوت

أن أمحو كل شيء، أن ألقي الماضي في النار. ولكني لا أرى لي خلاصًا. إني أرى السمَّ قد بلغ أعماقي، إي أرى الإنسان لا يستطيع أن يتنفس في هذا الجو سنوات دون أن يتلوث به. لقد ترددت طويلًا قبل أن أكتب إليك هذه الرسالة، فأنا أخاف قرارك، ولا أعتمد إلا على حبك لي. ولكني رأيت من الخيانة أن أخفي عنك الحقيقة ـ وبخاصة أن لعلك بدأت تعمل لتنفيذ خطتك. آه لقد كانت حلوة، ولكنها مستحيلة! أوه يا حبيبي! اعتبرني امرأة ضعيفة نزقة، احتقرني، ولكن لا تهجرني، لا تهجر حبيبتك إيرينا!... ليست لي القوة على أن أفارق هذه الحياة، ولا القدرة على أن أعيشها بدونك! سنعود بعد قليل إلى بطرسبرج، فتعال هناك، عش هناك، سنجد لك عملًا، ولن تضيع جهودك الماضية، ستجد لها مجالًا مفيدًا..ولكن عش بقربي، أحبيني كما أنا، بكل ضعفي ورذائلي. وثق أنك لن تجد قلبًا يخلص لك أو يحنو عليك حنو حبيبتك إيرينا! تعال إليّ بأسرع ما تستطيع! لن أجد لحظة راحة حتى أراك ـ حبيبتك، حبيبتك، حبيبتك» «1»

اندفع الدم إلى رأس لتفينوف بضربات مطرقة، ثم غاص إلى قلبه بطيئًا ثقيلًا، وبقي هناك كصخرة لا تتقلقل. قرأ رسالة إيرينا ثانية، وكما حدث تلك المرة في موسكو، انطرح على الأريكة خائر القوة. وظل راقدًا بدون حراك، وكأنما انفغرت حوله فجأة هوّة مظلمة، فراح يحدق في ذلك الظلام بذهول وقنوط. هكذا مرة أخرى...الخديعة مرة أخرى، بل شر من الخديعة: الخيانة والضعة...حياته تحطمت، وكل شيء اجتث من جذوره، والشيء الوحيد الذي استطاع أن يتعلق به، ذلك السند الأخير قد تفتت أيضًا! جعل يردد بضحكة مرة: «تعال وراءنا إلى بطرسبرج. سنجد لك عملًا... يعينوني رئيس كتبة مثلاً؟ ومن (هم) الذين سيجدون لي عملًا؟ هاهنا ماضيها طافيا إلى السطح، ذلك الماضي الخفيّ المروع الذي لا أعلَمه، والذي كانت تحاول أن تمحوه، وأن تلقي به في النار. هاهنا عالم المؤامرات، والعلاقات السرية، والقصص السوداء عن بيلسكي ودولسكي.. وأي مستقبل! أي دور

رائع ينتظرني! أن أعيش بقربها، وأزورها، وأشاطرها كآبة الانحلال، كآبة سيدة المجتمع التي تضجر بالمجتمع وتسأمه، ولكنها لا تستطيع أن تعيش خارج دائرته. وأصبح صديق الأسرة. وطبعًا صديق سعادته... إلى... إلى أن تتغير النزوة، ويفقد العشيق الشعبي طعمه الحرّيف، فيحل محله الجنرال السمين أو السيد فييكوف ـ هذا ممكن، وممتع، ولعله مفيد أيضًا... إنها تتحدث عن «المجال المفيد» لكفاءتي! أما الخطة الأخرى فهي مستحيلة! مستحيلة!».

وهبت في نفس لتفينوف لفحات دفينة من الغضب، كأنها الأنواء قبل العاصفة..أحنقته كل عبارة في رسالة إيرينا. حتى تأكيدها لعواطفها الدائمة غاظه وأضجره. وأخيرًا صاح:

«لن يمر الأمر هكذا! لن تلعب بحياتي هكذا دون رحمة!»

ووثب لتفينوف واختطف قبعته. ولكن ماذا يجب عليه إن يفعل؟ يهرع إليها؟ يجيب على خطابها؟ توقف، واسترخت يداه: أجل، ماذا يجب عليه أن يعمل؟

ألم يعرض عليها، هو نفسه، ذلك الاختيار الفاصل؟ إن الأمر لم ينته كما أحب، وهذا خطر كل اختيار. وهذا خطر كل اختيار. لقد غيرت رأيها، هذا حق، لقد أعلنت هي نفسها أول الأمر أنها تود أن تترك كل شيء وتتبعه، هذا حق أيضًا، ولكنها لم تذكر خطأها، بل زعمت أنها امرأة ضعيفة، لم ترد أن تخدعه، لكنها خدعت في نفسها... فأي جواب يقال لمثل هذا الكلام؟ إنها لم تنافقه على كل حال، لم تخدعه..بل كانت صريحة، صريحة بلا حرج. لم تكن مضطرة إلى مكاشفته على الفور، ولم يكن ثمة ما يمنعها من تعليله بالوعود، وإرجاء الأمور، وتركه في الظلام إلى يوم رحيلها..رحيلها هي وزوجها إلى إلى إيطاليا. ولكنها حطمت حياته، حطمت حياتين. حسنا، ليس هذا بالأمر الغريب.

وليست هي التي ظلمت تاتيانا. لقد كان هو الظالم، هو لتفينوف وحده، ولا يحق له أن يتملّص من المسئولية التي ألقاها إثمه على كاهله نيراً من حديد... هذا كله حق، ولكن ماذا بقي له أن يفعل الآن؟

وارتمى على الأريكة ثانية، وعادت اللحظات تتراكض في سرعة نهمة، مظلمة لا معنى لها غير تاركة وراءها أثرًا.

وومض في ذهنه: «لِمَ أفعل ما تقول؟ إنها تحبني، إنها لي. أليس ثمة شيء محتوم لا يقاوَمُ، كأنه القانون الطبيعي، في اندفاع كل منا إلى الآخر، في هذه العاطفة الشديدة التي اشتعلت بعد سنين كثيرة، وفرضت سلطانها بقوة قاهرة؟ أعيش في بطرسبرج... لن أكون الأول في هذا الوضع، ثم أين كان يمكننا أن نجد وطنا أنا وهي؟..»

وسبح في الأحلام، وتمثلت له صورة إيرينا كما انطبعت في ذاكرته إلى الأبد خلال هذه الأيام القليلة... ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فسرعان ما أفاق لنفسه، وبفورة جديدة من الغضب طرد الذكرى من مخيلته، ومع الذكرى صورتها الساحرة.

صاح: أنت تقدمين إليَّ تلك الكأس الذهبية لأشرب منها، ولكن في هذه الجرعة سمّاً، وجناحاك الابيضان ملطخان بالوحل اغربي عني! أأبقى معك هنا بعد أن..بعد أن طردت خطيبتي..يااللعار! يااللعار! وعصر في سورة الألم يديه، وأنبعث من الأعماق وجه آخر قد انطبعت على ملامحه الهادئة سيماء الألم. وبدا في عينيه المودعتين تأنيب أبكم.

وتحمل لتفينوف هذا البلاء طويلًا. ظل فكره المعذب يتقلب من جنب لجنب كالمحموم..حتى هدأ، واستقر على عزم. لقد كان يشعر منذ اللحظة الأولى ماذا سيكون قراره..لقد بدأ له أول الأمر نقطة نائية لا تكاد تبين وسط دوامة مظلمة من صراعه الباطني، ثم لم تزل النقطة تقترب وتقترب حتى شقت قلبه بنصل بارد كالثلج.

جر لتفينوف صندوقه من الركن مرة أخرى، وجمع متاعه في غير عجلة ـ بل في نوع من العناية البليدة ـ ثم طلب خادم الفندق ودفع حسابه، وأرسل إلى إيرينا ورقة بالروسية هذا مضمونها:

«لست أدري أتسيئين إليَّ اليوم إساءة أعظم من إساءتك الأولى، ولكني أدري أن هذه الضربة لا تقاس شدتها بتلك...إنها النهاية. تقولين لي: «أنا لا أستطيع...» وأكرر أيضاً أنا لا أستطيع... فأفعلي ما تشائين. أنا لا أستطيع ولا أريد. لا تجيبيني. إنك عاجزة عن أن تقدمي إليَّ الجواب الوحيد الذي أرضاه. سأرحل صباح الغد بأول قطار. وداعًا، وسعدت! لا أظن أننا سنلتقي مرة أخرى».

ولم يغادر لتفينوف حجرته حتى هبط الليل، ولعله كان ينتظر شيئًا. الله وحده يعلم. وحوالي الساعة السابعة مساء اقتربت من درج فندقه سيدة في شملة سوداء وعلى وجهها نقاب. اقتربت من الدرج مرتين. ثم ابتعدت بضع خطوات وبعد أن حدقت برهة في الفضاء لوحت بيدها في عزم، واتجهت للمرة الثالثة إلى الدرج.

وإذا بصوت مشدود ينطق خلفها:

- أين تذهبين يا إيرينا بافلوفنا؟

فالتفتت بسرعة عصبية.. كان بوتوجين مسرعًا إليها.

فوقفت وفكرت لحظة. ثم اندفعت إليه ممسكة بذراعه، وشدته وهي تردد مبهورة الأنفاس:

- خذني بعيدًا. خذني بعيدًا!

فتمتم في دهشة:

- ماذا أصابك يا إيرينا بافلوفنا؟

فكررت بقوة مضاعفة:

- خذني بعيدًا، إن كنت لا تريد أن أبقى إلى الأبد.. هناك!

فحنى بوتوجين رأسه طائعا. وأسرعا مبتعدين معًا.

وفي بكرة اليوم التالي كان لتفينوف على أهبة الرحيل حين دخل إلى حجرته...بوتوجين.

اقترب منه في صمت. وبصمت صافحه، ولم يتكلم لتفينوف أيضًا. كان كلاهما يحاول عبثا أن يبتسم.

وأخيرًا أخرج بوتوجين من فمه:

- جئت أتمنى لك رحلة طيبة.

فسأل لتفينوف:

- وكيف علمت أني راحل اليوم؟

ونظر بوتوجين إلى أرض الحجرة حوله...

عندي علم بذلك... كما ترى. إن محادثتنا الأخيرة قد اتجهت وجهة غريبة عند النهاية.. فلم أرد أن أفارقك من دون أن أعبر عن شعوري الطيب الصادق نحوك.

- أهذا شعورك الآن... وأنا راحل؟

فنظر بوتوجين إلى لتفينوف بحزن وبدأ يقول بزفرة قصيرة:

- آه يا جريجوري ميهالتش! لم يبق وقت للمدارة والمحاورة. إني لم أرك تُعنى كثيرًا بأدبنا القومي، ولعلك لم تسمع عن فاسكابوسلايف؟...

- عمّن؟

- عن فاسكابوسلايف بطل نوفجورود ـ في مجموعة كرشا دانيلوف.

فقال لتفينوف وقد شعر ببعض الحيرة لذلك الاتجاه المفاجئ في الحديث:

- من بوسلايف؟ أنا لا أعرف عنه شيئًا.

- لا بأس. هذا ما أردت أن أنبهك إليه: بعد أن رحل فاسكابوسلايف بأتباعه من أهل نوفجورود حاجّين إلى بيت المقدس، وروّعهم بأنه لا يؤمن بالفأل ولا الرؤيا ولا الزجر ـ تسلق هذا المنطقي فاسكابوسلايف جبل طابور. وكان على قمة ذلك الجبل صخرة عظيمة، حاول الناس من كل جنس أن يثبوا فوقها... وأراد فاسكا أن يجرب حظه أيضًا. فصادف في طريقه رأس ميت ـ جمجمة آدمية ـ فرفسها بقدمه. فقالت له الجمجمة: «لم ترفسني؟ لقد عرفت كيف أعيش. وأني لأعرف كيف أتدحرج في التراب ـ وسوف يصيبك ما أصابني.» ثم وثب فاسكا فوق الصخرة. ولما كاد يعبرها تعثّرت قدمه، وتهشّمت جمجمته... بهذه المناسبة يجب أن أشير إلى أن أصدقاءنا السلافو فيل، المغرمين برفس الرءوس الميتة والقوميات التي دبَّ فيها الفناء، يجدر بهم أن يفكروا في تلك الأسطورة.

فقاطعه لتفينوف بصبر نافد:

- ولكن ما الذي ترمي إليه؟ معذرة. لقد حان الوقت...

فأجاب بوتوجين وقد التمعت عيناه بعطف شديد لم يكن لتفينوف يتوقعه منه:

- كيف؟ الذي أرمي إليه هو ألا ترفس رأس إنسان ميت، لعل طيبة قلبك تيسرك للوثوب فوق الصخرة القاتلة. لن أستبقيك أكثر من هذا. ولكن دعني أعانقك قبل رحيلك.

فقال لتفينوف وهو يقبل بوتوجين القبلات الثلاث التقليدية:

- بل لن أحاول الوثوب!

وذابت لحظة تلك الإحساسات المرة التي كانت تغمر قلبه في شفقة على الرجل الشقي الوحيد.

- ولكن يجب أن أذهب الآن. يجب أن أذهب...

وأخذ يدور في الحجرة. فتطوع بوتوجين قائلًا:

- هل أحمل عنك شيئًا؟

- لا. شكرًا لك. لا تتعب نفسك. يمكنني...

ولبس قبعته، وحمل حقيبته. وسأل وهو يقف بالباب:

- أتقول إنك رأيتها؟

- نعم رأيتها.

- حسنًا...كيف هي؟

فصمت بوتوجين لحظة. ثم قال:

- لقد كانت تنتظرك أمس، وسوف تنتظرك اليوم.

- آه! قل لها...لا، لا ضرورة...لا ضرورة لأن تقول شيئًا... وداعًا... وداعًا!

- وداعًا يا جريجوري ميهالتش..دعني أقول لك كلمة واحدة أخيرة. ما زال لديك بعض الوقت لتسمعني، فقطارك لن يتحرك قبل نصف ساعة. إنك عائد إلى روسيا... وستعمل هناك..عندما يكون قد آن الأوان. فاسمح لثرثار عجوز ـ فلست مع الأسف إلا ثرثارا ـ كي يقدم إليك نصيحة قبل ذهابك. كلما شرعت في عمل حديد اسأل نفسك: هل تخدم بهذا العمل قضية المدنية بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه الكلمة؟ هل تسعى لتحقيق مبدأ من مبادئ المدنية؟ وهل لنشاطك تلك الصبغة الأوربية المتنورة التي لا ينفعنا غيرها الآن؟ فإن كان كذلك فسر على بركة الله! ثم احمد الله لأنك لست وحدك الآن. لن تكون «باذراً في الصحراء». فبيننا الآن كثير من العاملين... من الروّاد...ولكنك يجب أن تسرع الآن. وداعا، لا تنسني!

هبط لتفينوف الدرج مسرعًا، وارتمى في عربة، وقصد إلى المحطة من دون أن يلتفت مرة واحدة إلى المدينة التي ترك فيها شطرا كبيرًا من حياته ومن نفسه. كان كرجل أسلم نفسه إلى موجة عالية فاختطفته وحملته وهو عازم كل العزم ألا يقاومها، مضرب عن كل محاولة أخرى لإثبات إرادته.

وبينما كان يهم بدخول عربة القطار سمع من خلفه همسة ضارعة:

- جريجوري ميهالتش...جريجوري...

وانتفض...أيمكن أن تكون إيرينا؟.. أجل، إنها هي. كانت واقفة على الرصيف تنظر إليه بعينين خابيتين، وقد تلفّعت بشال خادمتها، ووضعت على شعرها المشعث قبعة سفر.

كانت العينان تقولان: عد، عد، لقد جئت من أجلك. وأي وعود كانتا تعدان! لم تتحرك، ولم تقو على أن تزيد كلمة واحدة، ولكن كل ما فيها، حتى ثيابها المهوشة، بدا وكأنها تدعوه مسترحمة...

وكاد لتفينوف ينهزم. وبلأي استطاع أن يمنع نفسه من الاندفاع إليها... ولكن الموجة التي أسلم نفسه إليها استعادت سلطانها. فقفز إلى داخل العربة، والتفت مشيرًا لإيرينا إلى الكرسي بجانبه. وفهمت. لم يفت الوقت. خطوة واحدة، حركة واحدة، وإذا بحياتين، وحّدتا إلى الأبد، تغيبان في البعد المجهول وبينما هي في ترددها ارتفع صفير عال، وتحرك القطار. وتداعى لتفينوف على مقعده، بينما سارت إيرينا مترنحة إلى كرسي، فتهالكت عليه.

ورآها موظف دبلوماسي صغير كان يتسكع في المحطة، فذهل...كان يعرف إيرينا معرفة جد عابرة، ولكنه كان شديد الإعجاب بها، ولما رآها مستلقية كالمغشى عليها ظنها أصيبت une attaque de nerfs [1]، ومن ثم

---

(1) «نوبة عصبية».

رأى واجبا عليه باعتباره un galant chevalier [1] أن يخفّ لنجدتها، لكن دهشته تضاعفت حين هبت لأول كلمة وجهها إليها. ودفعت ذراعه التي قدّمها لها، وخرجت إلى الشارع لا تلوي على شيء. ولم تلبث أن اختفت في ضبابة بيضاء كثيفة من ذلك الضباب الذي يميز جو الغابة السوداء في مطلع الخريف.

(1) «فارسا شهما».

- 26 -

اتفق لنا مرة أن دخلنا كوخ امرأة فلاحة فقدت منذ قليل وحيدها الحبيب، وشد ما دهشنا حين رأيناها هادئة كل الهدوء، تكاد تكون فرحة. فقال لنا زوجها حين لاحظ دهشتنا: «دعوها، فهي الآن لا تحسّ». وهكذا فقد لتفينوف إحساسه، فهبط عليه ذلك الهدوء الميت أثناء الساعات الأولى من رحلته. لقد كان محطّم النفس، شديد البؤس، ولكنه كان يستريح. كان يستريح بعد عذابات الأسبوع الماضي ووساوسه، والضربات التي توالت على رأسه، وضاعف من شدتها عليه أنه لم يكن مستعدًا بطبعه لمثل هذه العواصف. إنه الآن لا يرجو شيئًا في الواقع، ولكنه يحاول أن ينسى الماضي. أن ينسى الماضي، هذا هو المهم. إنه ذاهب إلى روسيا. فلابد أن يذهب إلى مكان ما، ولكنه لم يعد يرسم لنفسه خطة، فهو لا يعرف نفسه، ولا يفهم أفعاله، وكأنما فقد نفسه الحقيقية، والحق أنه أصبح قليل الاهتمام بهذه النفس. وكان يخيل إليه أحيانا أنه من المحال أن يسمح رجل (رجل!) لنفسه بأن يخضع هذا الخضوع للمرأة، للحب...فيتمتم: «يا للضعف المزري!» وينفض معطفه، ويعتدل في جلسته، وكأنه يقول: إن الماضي قد انتهى، فلنبدأ من جديد... وما هي إلا لحظة واحدة حتى يبتسم ابتسامة مرّة، ويتعجب من حاله.

وجعل ينظر من نافذة القطار.. كان الجو أغبر رطبا، لا مطر فيه، ولكن الضباب لا ينكشف، والسحب الدانية تحجب السماء وهبت الريح في

مواجهة القطار، فاندفع أمام النافذة التي جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة. وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان. كانت السحب تمر بعد السحب، ولا تزال تصعد، وتعلو وتهبط، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات، وكأنها تلعب في إحدى المساخر. ثم تتعدد وتذوب في الفضاء...كانت تتبدل دائمًا وهي لا تزال كما هي..لعبة سريعة سخيفة مكررة! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسره، فيتلاشى الرعيل كله فجأة، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة. ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين الفسيح. حدّق وحدّق، واستولى عليه شرود غريب... كان وحيدًا في المقصورة، لم يكن هناك من يزعجه، فردد مرات عديدة: دخان ودخان. وفجأة بدا له كل شيء دخاناً ـ كل شيء: حياته هو، والحياة الروسية، وكل ما هو بشري، وعلى الخصوص كل ما هو روسي. الكل دخان وبخار ـ هكذا قال لنفسه ـ كل شيء يبدو دائم التغير، في كل مكان أشكال جديدة، أحداث بعد أحداث، وكل شيء كما هو في الصميم كل شيء يسرع سابحاً إلى وجهة ما، وكل شيء يتلاشى دون أن يترك أثرًا أو يبلغ أمرًا. وتتغير الريح، فيسرع كل شيء في الاتجاه المضاد، وهنا تبدأ اللعبة المستمرة القلقة العقيمة نفسها. وتذكر كثيرًا مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج، فهمس: دخان. دخان. وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ، والبسطاء والعظماء، والتقدميون والرجعيون. فردد: دخان، بخار ودخان. وتذكر أخيرًا تلك النزهة الأنيقة، وتذكر خطبا وتصريحات لأشخاص آخرين يعدون أنفسهم لكبرى المناصب ـ حتى كل مواعظ بوتوجين... دخان، دخان، لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوِّح بيده في قنوط.

هذا والقطار ينساب وينساب. وقد خلف راشتات وكارلسروهة وبروكسال منذ زمن طويل، وانفرجت الجبال عن يمين الخط، وتراجعت إلى الفضاء البعيد، ثم اقتربت ثانية، ولكنها كانت أقل ارتفاعًا، والغابات التي تكسوها أقل كثافة...وانثنى القطار في المحطة المسقوفة وإذا بأصوات باعة الجرائد يحملون كل أنواع الصحف حتى الروسية. وأخذ المسافرون يتحركون في مقاعدهم ويهبطون إلى الرصيف، ولكن لتفينوف لم يغادر ركنه، بل ظل جالسا فيه مطرق الرأس. وفجأة ناداه شخص باسمه، فرفع بصره. كان بنداسوف يطل بمحياه الكريه من النافذة، وكانت وراءه ـ أم كان يحلم؟ كلا، بل كان كل من وراءه وجوها مألوفة من بادن: مدام زوها نتشيكوف، وفورو شيلوف، وبمبايف. وكانوا كلهم يتحركون نحوه، بينما زعق بنداسوف:

– أين بشتشالك؟ لقد كنا ننتظره. سيّان على كل حال. اقفز نحن ذاهبون جميعًا إلى جوباريوف.

وقال بمبايف مؤكدًا وهو يشق طريقه إليه:

– نعم يا بني، نعم. إن جوباريوف ينتظرنا. نط!

ولولا حمل ثقيل على قلب لتفينوف لاستشاط غضبًا. ولكنه نظر إلى بنداسوف وأشاح بوجهه من دون أن يتكلم.

فصرخت مدام زوها نتشيكوف وعيناها تقفزان من رأسها قفزا:

– ألا تسمع؟ إن جوباريوف هنا!

فلم يحرِّك لتفينوف ساكنا.

وبدأ بمبايف يقول أخيرًا:

– إستمع ـ بالله ـ يالتفينوف! ليس جوباريوف وحده هنا. إن هنا فرقة كاملة من ألمع الشبان الروس وأذكاهم ـ وكلهم يدرسون العلوم الطبيعية،

وكلهم شرفاء مخلصون! حقا يجب أن تعرِّج على هذا المكان، ولو من أجل هؤلاء. هنا مثلا شخص يدعى..يا سلام! نسيت اسمه. ولكنه عبقري، عبقري!

فقاطعته مدام زوها نتشيكوف:

- أوه، دعه دعه يا روستيسلاف أردالیونوفتش. دعه! أنت ترى أي مخلوق هو، وأسرته كلها مثله. له عمة كنت أظنها أول الأمر سيدة عاقلة، ولكني سافرت معها أول أمس ـ كانت حضرت إلى بادن منذ قليل، وفي غمضة عين رجعت ـ المهم، كنا في القطار معًا وبدأت أسالها ـ فهل تصدقون أني لم أستطع الفوز بكلمة من ذلك الجماد؟ أرستقراطية فظعة!

«كابيتولينا ماركوفنا المسكينة أرستقراطية! أكان يمكنها أن تتوقع مثل هذه الإهانة؟».

ولكن لتفينوف ظل صامتا، وأشاح بوجهه عن الجماعة، وجذب قبعته على عينيه. وأخيرًا تحرك القطار. فصاح بمبايف:

- طيب، قل شيئًا على سبيل الوداع، يا حجر، الناس لا يتصرفون هكذا!

وصرخ بنداسوف:

- طفل! أبله!

وازدادت سرعة القطار، فأطلق بنداسوف شتائمه آمنا من العقاب:

- بخيل! عفن! مدود!

وسواء اخترع بنداسوف هذا اللقب الأخير عفوًا أم كان قد تعلمه من أحد، فقد أعجب اثنين من الشبان الشرفاء الذين يدرسون العلوم الطبيعية، وكانا واقفين على قرب، فظهر بعد أيام في الوريقة الدورية التي كانت تنشر

آنذاك في هيدلبرج، بعنوان: A tout venant.je crache! أو «لا يهمني»[1].

وأخذ لتفينوف يردد مرة أخرى: «دخان، دخان، دخان!» وقال في نفسه: في هيدلبرج الآن أكثر من مائة طالب روسي، كلهم يدرسون الكيمياء والطبيعة ووظائف الأعضاء ـ ولا يكادون يطيقون أن يذكر أمامهم شيء آخر... وبعد خمس سنوات أو سِتّ لن يوجد خمسة عشر طالبًا يستمعون إلى محاضرات الأساتذة المشهورين أنفسهم. ستتغير الريح.. ويهب الدخان.. في اتجاه آخر...دخان. دخان...!

ومر قرابة المساء بكاسل. وانقض عليه الألم مع الظلام كما ينقضّ العقاب، وبكى وهو يدفن نفسه في ركن العربة، فاضت دموعه طويلًا، لم تغسل قلبه، بل زادت على عذابه ألما مرًّا حارقًا. وفي الوقت نفسه كانت تاتيانا راقدة في أحد فنادق كاسل، وقد وقدتها الحمى، وكابيتولينا ماركوفنا جالسة بجانبها تقول:

– تانيا؛ بالله دعيني أبرق إلى جريجوري ميهالتش؛ دعيني أفعل يا تانيا.

فتجيب:

– لا يا عمتي، يجب ألا تفعلي. لا تخافي، أعطيني قليلًا من الماء، سأشفى بعد قليل.

وكان بعد أسبوع أنها تماثلت للشفاء. فواصلت الصديقتان رحلتهما.

---

(1) «هذه حقيقة تاريخية».

- 27 -

عاد لتفينوف إلى ضيعته من دون أن يعرِّج على بطرسبرج أو موسكو. وفزع حين رأى أباه، فقد كان ضعيفًا متداعيًا. أما الشيخ ففرح بعودة فتاه، كما يفرح رجل في أخريات أيامه، وأسلم إليه من فوره إدارة الضيعة. وكانت في حال سيئة، وامتدت حياته بضعة أسابيع أخرى. ثم فارق هذا الكوكب الأرضي. وبقي لتفينوف وحيدًا في دارته الصغيرة القديمة، وبدأ زراعته بقلب مثقل، وبلا رجاء ولا حماس ولا مال. والزراعة ـ كما يعلم الكثيرون ـ عمل لا بهجة فيه، فلن نطيل القول عما لقيه لتفينوف فيها من عناء. أما الإصلاحات والابتكارات فلم يكن ثمة مجال للتفكير فيها، ولم يكن بد من إرجاء التطبيق العملي لما حصّله في الخارج إلى أجل غير محدود، واضطره الفقر إلى أن يتحايل على الأيام، ويتسامح في كثير من الأمور المادية والمعنوية. كانت المبادئ الجديدة لم ترسخ أصولها بعد، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوّة. كان الجهل يرتطم بالخيانة، ونظام الحياة الذي اهتزّ من أساسه يضطرب كوحل زلق، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء: كلمة الحرية. لم يكن بد من الصبر أولًا، الصبر في غير سلبية بل إيجابية مثابرة، لا تخلو من مكر وحيلة. وضاعفت حالة لتفينوف النفسية صعوبة الأمور. لم يبق فيه إلا قليل من إرادة الحياة...فأين له بإرادة العمل والجهاد؟

لكن مضى عام بعده عام، وبدأ عام ثالث. وكانت الفكرة العظيمة[1] تتحقق رويدا رويدا، وتكتسب لحما ودما، وكانت الوريقات الأولى قد نبت من الحب المبذور، ولم يعد أعداؤه الظاهرون أو المستترون بقادرين على أن يطئوه بالأقدام. ومع أن لتفينوف انتهى بتأجير القسم الأكبر من الأرض للفلاحين على نظام المزارعة ـ أي عاد إلى الطرق البدائية الفقيرة ـ فقد نجح في بعض مشروعاته: فتح المصنع من جديد، وبدأ مزرعة صغيرة بخمسة عمال ـ وقد جرب أربعين حتى اختار هؤلاء الخمسة ـ وسدّد ديونه الخاصة الكبرى...وتماسكت نفسه حتى استعاد شيئاً من لتفينوف القديم. صحيح أن كآبة دفينة لم تفارقه قط، وأنه كان أهدأ، وأنه حبس نفسه في دائرة ضيقة، وقطع كل علاقاته القديمة...ولكن تلك الاستهانة الميتة ذهبت، وعاد يتحرك ويعمل كرجل حي بين الأحياء، وذهبت آخر آثار ذلك السحر الذي أحاط به، وبدا له كل ما حدث في بادن غائماً كالحلم...وإيرينا؟ حتى هي شحبت واختفت، إلا إحساسا غامضا بالخطر كان يشعر به لتفينوف تحت الضبابة التي أخذت تكتنف صورتها. وكانت تصل إليه في الحين بعد الحين أخبار عن تاتيانا. فعلم أنها تعيش مع عمتها في ضيعتها التي تبعد عنه بمائة وستين ميلا، وأنها تحيا حياة جد هادئة، ولا تخرج إلا قليلًا، ولا تكاد تستقبل ضيوفا ـ ولكنها بخير وعافية.

وفي يوم جميل من أيام مايو كان جالسا في مكتبه ينظر بغير اهتمام في صفحات العدد الأخير من مجلة بطرجية، حين دخل خادمه يعلن قدوم عم عجوز. كان هذا العم قريبًا لكابيتولينا ماركوفنا، وقد زارها حديثًا، وكان قد اشترى ضيعة قريبة من ضيعة لتفينوف، فمرّ عليه في طريقه. ولبث مع ابن أخيه يومًا كاملًا، وحدثه طويلًا عن معيشة تاتيانا. فلما رحل في اليوم التالي أرسل إليها لتفينوف رسالة كانت الأولى منذ فراقهما. سألها أن تأذن له في تجديد تعارفهما ولو بالمراسلة، كما رغب أن تخبره أن كان يجب عليه ألا

---

(1) فكرة تحرير الفلاحين.

يفكر في رؤيتها ثانية. ولم يكن انتظاره للجواب خاليًا من قلق واضطراب... وأخيرًا جاء الجواب. لقد رحبت تاتيانا بطلبه، وختمت رسالتها بقولها: إذا كنت ترغب في زيارتنا فمرحبا بك، أنت تعلم المثل: «الشركة خير حتى في البلوى». كما كتبت إليه كابيتولينا ماركوفنا تحييه. وأصبح لتفينوف سعيدًا كالطفل، فما خفق قلبه منذ زمن طويل فرحا لشيء كما فرح الآن. أحس فجأة بالبهجة والمرح...كذا الشمس لا تكاد تشرق وتجلى. وتأتي ظلمة الليل حتى يرفّ على وجه الأرض المنتعشة نسيم لطيف. وظل لتفينوف يبتسم طول النهار حتى وهو في مزرعته يلقي أوامره. وأخذ يستعد من فوره للزحلة. وبعد أسبوعين كان في طريقه إلى تاتيانا.

- 28 -

سار بعربته مبطئا، في طرق جانبية، من دون مغامرات. وحدث مرة أن انكسر إطار إحدى العجلتين الخلفيتين، فأخذ الحداد يطرقه ويلحمه وقتًا طويلًا، وهو يلعن الإطار ويلعن نفسه معًا، ثم انتهى بأن يئس منه. ولحسن الحظ ظهر أن المرء في بلادنا يستطيع أن يسافر من دون عناء بإطار مكسور، وخصوصًا إذا كان مسافرًا «على لين»، أي على الطين. على أن لتفينوف التقى في رحلته هذه بأناس ما كان يتوقع لقاءهم. فشهد بعد مرحلة من الطريق جلسة «لقضاة التحكيم» وكان يرأسهم بشتشالكن الذي بدا له أشبه بصولون أو سليمان الحكيم، إذ كانت عباراته موسومة بطابع الحِكَم الغوالي، وكان ملاك الأرض والفلاحون على السواء يظهرون له غاية التبجيل...وحتى منظره بدا أشبه بحكماء الأقدمين، فقد انجرد شعره عن يافوخه، وانتفش وجهه حتى بدا كخميرة من الفضائل الرابية...وقد رحب بمقدم لتفينوف «إلى إقليمي، إن جاز لي أن أستعمل مثل هذا التعبير الجريء» ثم غرق في الصمت، كأنما أخذته نوبة من المشاعر الطيبة. على أنه نجح في أن ينهي إليه خبرا. وكان هذا الخبر عن فوروشيلوف، فقد عاد بطل اللوحة الذهبية للخدمة العسكرية، وتمكن فعلًا من إلقاء محاضرة بين ضباط كتيبته في موضوع «البودزم» ـ أو «الدينامزم» ـ لم يستطع بشتشالكن أن يجزم بأيهما. وانتظر لتفينوف في المحطة الثانية طويلًا حتى تسرج الخيل. وكان الوقت سحراً، والنعاس يخامره وهو جالس في عربته، حين أيقظه صوت بدا له

مألوفا، وفتح عينيه...ياللسماء! أليس هذا هو جوباريوف في سترة شهباء كالتي يلبسها البحارة، وسراويل نوم فضفاضة، واقفًا على درج المحطة، يسب ويلعن؟ لا، إنه لم يكن جوباريوف.. ولكن ما أشدّ الشبه بينهما!.. لولا أن هذا السيد كان أضخم فكا، وأبرز نواجذ، وكانت نظرات عينيه الكابيتين أشد توحّشا، كما كان أنفه أكبر، ولحيته أكثّ، ووجهه كله أغلظ وأشد تنفيرا.

جأر ببطء وحنق، فاغرا فاه الذي يشبه فم الذئب:

- حيوانات! حيوانات فلاحون بهائم! هذه هي الحرية التي تتباهون بها..الخيل لا نستطيع أن نجدها.. - حيوانات، حيوانات!

انبعث هذا الصوت الآخر من وراء الباب، وفي الوقت نفسه ظهر على الدرج في سترة شهباء كالتي يلبسها البحارة وسراويل فضفاضة أيضًا ـ جوباريوف الحقيقي هذه المرة، جوباريوف نفسه، ستيبان نيكولايفتش جورباريوف، لا شك في ذلك. استمر يقول مقلّدا أخاه (وقد ظهر أن السيد الأول كان أخاه الأكبر، رجل المدرسة القديمة المشهورة بعنف قبضتيه، والذي كان يدير ضيعته):

- بهائم! دواؤهم الجلد، اسمع كلامي. لكمة أو لكمتان في الأنف، هذه هي الحرية التي تلائمهم... قال «رئيس الفولوست» قال[1]... والله عال. سأعرّفكم من رئيس الفولوست.

- ولكن أين هو المسيو روستون؟.. ماذا دهاه؟.. هذا عمله.. الصعلوك الكسلان... كيف لا يجنبنا هذه المضايقات؟

فبدأ جوباريوف الأكبر يقول:

---

(1) «الفولوست» في روسيا قبل الثورة، صورة من صور الحكومة اللامركزية تشبه المجلس المحلي في مصر.

– يا أخي ألم أقل لك دائمًا إنه لا ينفع؟ صعلوك كسلان، هكذا هو! ولكن من أجل أفكارك القديمة...موسيو روستون! موسيو روستون! أين ذهبت ـ عليك اللعنة!

وجأر الأصغر، جوباريوف العظيم:

– روستون! روستون! ازعق عليه زعقة طيبة يا أخي دوريميدونت نيكولايتش!

– حسنًا، إني أصيح به يا ستيبان نيكولايتش! مسيو روستون!

فسمع صوت معجل: هأنذا! هأنذا!

ومن خلف ركن المحطة وثب...بمبايف.

فكتم لتفينوف شهقة. كان المتحمّس المسكين يضطرب اضطرابًا محزنًا في سترة مطرزة بالية ممزقة الكُمَّين، أما ملامحه فلم تتغير تماماً ولكنها امتطّت والتوت، وكانت عيناه الصغيرتان اللتان استولى عليهما القلق تعبّران عن وجل ذليل وخضوع جائع، ولم يزل شاربيه المصبوغين يبرزان كسابق عهده فوق شفتيه المنتفختين. ما كاد يظهر حتى أخذ الشقيقان يعنفانه معًا من أعلى الدرج. فتوقف دونهما في الطين وقد حنى ظهره في ضراعة، وحاول أن يتملقهما بابتسامة صغيرة عصبية، وهو يعجن قبعته بين أصابعه الحمراء، وينقّل قدميه، ويتمتم أن الخيل ستحضر بعد قليل...ولكن الأخوين لم يسكنا حتى وقع بصر أصغرهما على لتفينوف، وسواء أعرف لتفينوف أم أحس بالخجل أمام أجنبي، فقد دار على عقبيه مسرعًا كالدب، ودخل المحطة وهو يقرض على لحيته، وأمسك أخوه عن الكلام من فوره، وتبعه وهو يدور كالدب أيضًا. إن جوباريوف العظيم لم يفقد سلطانه حتى في وطنه.

وهم بمبايف أن يتبع الأخوين...فناداه لتفينوف باسمه. فالتفت، ورفع رأسه، وعرف لتفينوف، فطار إليه طيرانا وقد بسط ذراعيه. ولكنه حين وصل

إلى العربة أمسك ببابها وسند صدره عليه وانفجر باكيا بدموع غزيرة.

فقال لتفينوف وهو ينحني عليه ويربت على كتفه:

- هوّن عليك يا بمبايف!

لكنه استمر في البكاء، وتمتم بين شهقاته:

- أنت ترى...أنت ترى...إلى أي...

وزأر الأخوان في السقيفة:

- بمبايف!

فرفع بمبايف رأسه، ومسح دموعه عجلا وهمس:

- مرحبًا، مرحبًا أيها الحبيب، ووداعًا!..أنت تسمع، إنهما يناديانى.

فسأل لتفينوف:

- ولكن أي مصادفة جاءت بك إلى هنا؟ وما معنى هذا كله؟ لقد ظننتهما يناديان رجلا فرنسيا.

فأجاب بمبايف وهو يشير إلى السقيفة:

- إنني...مدير منزلهما...رئيس الخدم. وقد أصبحت فرنسيا على سبيل المزاح. ماذا كنت أستطيع عمله يا أخي؟ لم أجد ما آكله. أضعت آخر فلس. هكذا يضطر المرء أن يضع رأسه في النير. نزلت عن كبريائي لأعيش.

- وهو...أهو في روسيا منذ وقت طويل؟ وكيف ترك رفاقه؟

- آه يا بني! هذا كله راح وانتهى...الريح تغيرت ـ كما ترى. مدام زوهانتشيكوف... ماتروناسميونوفتا... طردها شرَّ طردة. فسافرت حزينة إلى البرتغال.

- البرتغال؟ هذا غريب!

- نعم يا أخي: إلى البرتغال، مع اثنين من الماتروفيين.

- مع من؟

- الماتروفيين. هذا اسم أعضاء حزبها.

- هل لماترونا سميونوفتا حزب؟ أهو حزب كبير؟

حسنًا. إنه مؤلف من هذين العضوين بالتحديد. أما هو فله هنا ما يقرب من ستة أشهر. غيره اعتُقِل أما هو فلم يُصَبْ بسوء. إنه يعيش في الريف مع أخيه، ويا ليتك سمعته الآن..

- بمبايف!

- حاضر يا ستيبان نيكولايتش، حاضر. وأنت أيها العجوز! مستريح؟ مبسوط؟ الحمد لله على ذلك! أين تذهب الآن؟..يا سلام!..ولا كان على البال...أتذكر بادن؟ آه! كانت أيام! وبالمناسبة: تذكر بنداسوف أيضًا؟ مات..تصدق؟..وجد وظيفة في مصلحة الدمغة، وكان في إحدى الحانات فدخل في عركة، وشجوا رأسه بعصا بليارد. نعم، نعم، هكذا حال الدنيا! ولكني سأقول دائمًا: روسيا! يا لها من بلد! انظر إلى هاتين الأوزّتين! ليس في أوربا كلها ما يشبهها! أوزتان ماسيتان أصيلتان!

وبعد أن أدى بمبايف ما يجب عليه لتحمسه الذي لا يفتَرْ، أسرع إلى المحطة حيث كان اسمه ينادى مرة أخرى بنعوت بذيئة.

وعند الأصيل شارف لتفينوف على ضيعة تاتيانا. وكان المنزل الصغير الذي تقيم به خطيبته السابقة رابضا على سفح جبل يجري بقربه جدول صغير، وتحيط به حديقة حديثة الغرس. وكان المنزل حديث البناء أيضًا، يرى من مسافة بعيدة عبر النهر والخلاء. وقع نظر لتفينوف عليه من بعد يزيد عن ميل ونصف، بزواياه المستقيمة، ونوافذه المتوازية الصغيرة التي كانت تلمع حمراء في شمس الأصيل. وكان قد أحسّ بقلق خفي حين غادر

المحطة الأخيرة، والآن ملأه الاضطراب، جاشت نفسه بفرحة مازجها خوف. سأل نفسه: كيف ستقابلاني؟ وكيف أقترب منها؟ ولكي يشغل نفسه أخذ يتحدث مع سائقه، وكان فلاحاً رزينا أشيب اللحية، طلب منه ـ على الرغم من شيبه ورزانته ـ أجر خمسة وعشرين ميلا مع أن المسافة كانت عشرين..سأله: أيعرف جماعة شستوف؟

جماعة شستوف؟ نعم، سيدتان طيبتان، نِعمَ الناس! تطبباننا أيضًا. أي والله، إنهما طبيبتان! الناس يذهبون إليهما من المنطقة كلها. أي والله، ناس مالها عدد. مثلا إذا واحد مرض، أو جُرح، أو أي شيء، يذهب إليهما توا، فيعطيانه شرابا أو مساحيق أو لزقة، ويطيب. الدواء ينفع. ولا تأخذان أي نقود. تقولان: نحن لا نفعل هذا من أجل النقود...وعندهما مدرسة أيضًا... لكن ما فائدة المدرسة؟

ولم يرفع لتفينوف عينيه عن المنزل بينما كان السائق يتكلم. وبرزت إلى الشرفة أمراة في ثياب بيض، وقفت قليلًا، ثم اختفت...ألم تكن هذه إياها؟ كاد قلبه يطفر، وصاح بالسائق.

- أسرع، أسرع!

واستحثّ السائق الجواد. وبعد لحظات أخرى...دخلت العربة من البوابة المفتوحة...كانت كابيتولينا ماركوفنا واقفة على الدرج، تصفق بيديها وتصيح وهي تكاد تطير فرحا: «أنا عرفته. عرفته قبلك! هو! هو!..عرفته!»

قفز لتفينوف من العربة قبل أن يستطيع الغلام المقبل فتح بابها، وعانق كابيتولينا ماركوفنا مسرعًا واندفع إلى المنزل، وعبر البهو، ودخل حجرة الطعام...كانت تاتيانا واقفة أمامه، وقد تورَّد وجهها خجلًا. نظرت إليه بعينيها الحنونين اللطيفتين (كانت أكثر نحولا، ولكن ذلك زادها جمالا)، ومدت إليه يدها. لكنه لم يتناول يدها، بل سقط على ركبتيه أمامها. ولم تكن تتوقع هذا. فلم تدر ماذا تقول أو تفعل..واغرورقت عيناها بالدموع. لقد

ذُعِرت، ولكن وجهها كله كان يتألق بشرا..قالت: «جريجوري ميهاليتش! ما هذا يا جريجوري ميهاليتش؟» وهو لا يزال يقبل طرف ردائها...وتذكّر في غمرة من حنان أنه ركع على ركبتيه أمامها في بادن كما يركع الآن...آنذاك، والآن! شتان ما بين المرتين!

ردد: تانيا! تانيا! هل عفوت عني يا تانيا؟

فصاحت تانيا ملتفتة إلى كابيتولينا ماركوفنا وقد دخلت الحجرة:

- عمتي، عمتي، ما هذا؟

فأجابت السيدة العجوز الطيبة:

- لا تمنعيه يا تانيا. لا تمنعيه. إنه جاء تائبا!

وبعد، فقد آن لنا أن نختم قصتنا، والحق أن ليس هناك شيء يزاد. يستطيع القارئ أن يحدس الباقي بنفسه...ولكن ماذا عن إيرينا؟

إنها لا تزال فاتنة رغم أعوامها الثلاثين، يشغف بها شباب لا يُحْصَوْن عددًا، وكان يمكن أن تشغف بآخرين لو...لو...أيها القارئ، ألا تعرج معنا دقائق على بطرسبرج، لندخل منزلًا من أجمل المنازل هناك؟ انظر، إن أمامك بهواً فسيحا، ولا نقول إنه فاخر الرياش، فذلك تعبير يقصر عن وصفه، ولكن نقول إنه رائع بارع مهيب. أتعروك هزة من الخضوع؟ إذن فاعلم أنك دخلت معبدا، معبدا كُرِّس للسلوك النبيل، والنبل المحسن، أو باختصار: لصفات عليين...إن سكونا «كاتما للأسرار» يحتويك: فالسجف المخملية على الأبواب، والستر المخملية على النوافذ، والبسط الوثيرة على الأرض ـ كل شيء كأنه قُدِّر تقديرًا ليُخفِتَ كل شيء خشن، ويلطِّف كل إحساس عنيف. والمصابيح المهندسة الضوء توحي بعواطف هادئة وقور. والهواء المحبوس يتخلله أريج مهذب. حتى السماور على المائدة يئز أزيزاً مكتما خجلا. إن سيدة الدار ـ وهي شخصية هامة في مجتمع بطرسبرج ـ تتحدث حديثًا لا يكاد يُسمع، فهي دائمًا تتكلم وكأن في الحجرة مريضًا

مدنفا يكاد يحتضر. والسيدات الأخريات يقلّدنها فلا يكدن يهمسن، بينما تحرك أختها شفتيها ـ وهي تصب الشاي ـ حركات لا صوت لها، حتى يحار الشاب الجالس أمامها، وقد ألقته المصادفة في معبد الآداب، فهو عاجز عن فهم ما تريده منه، بينما هي تنفث للمرة السادسة:

Voulez - vous une tasse de thé?[1]

وفي الأركان شبان عليهم وسامة، عيونهم تلمع بتذلل رقيق، وسيماهم متعلقة في وداعة وجلال، وصدورهم يلمع عليها ـ بلطف ـ عدد من النجوم والصلبان. والحديث دائمًا لطيف يدور حول موضوعات دينية ووطنية: «النقطة الصوفية» لف. ن. جلنكا، بعثتنا التبشيرية في الشرق، الأديرة والإخوان في روسيا البيضاء. أحيانًا يتحرك خدم في حلل رسمية، يخطون خطواً ملثما على البسط اللينة ظن وكلما خطوا ارتعشت ـ بلا صوت ـ ربلاتهم الضخمة التي غُلِّفت بجوارب حريرية ضيقة، فيزيد ارتعاش الهيبة في العضلات الصلاب ما يقع في النفس من احتشام المكان ووقاره وقدسيته. إنه معبد، معبد!

سألت إحدى السيدات العظيمات برقة:

- هل رأيت مدام راتميروف اليوم؟

فأجابت ربة الدار بنغم أثيرى كأرغن عوليس:

- لقيتها اليوم عند ليز. إني آسفة لها. فهي مُرّة الروح.

Elle n'a pas la foi.[2]

أجل، أجل. أذكر أن هذا ما قاله عنها بيوتر ايفانتش. وإنه لحق.. -إنها مُرَّة الروح.

---

(1) هل تريد قدحا من الشاي؟

(2) «فاقدة الإيمان».

فانبعث صوت ربة الدار كأنه البخور:

Elle n'a pas la foi, C'est une ame egarée [1]. إنها مُرَّة الروح. فتردد أختها بشفتيها فقط: إنها مُرَّة الروح.

لهذا لم يقع الشبان جميعًا بغير استثناء في هوى إيرينا... فهم يخافونها... يخافون روحها المرّة... وهذه هي القالة الشائعة عنها. وفيها، كما في كل قالة، نصيب من الصحة. ولا يخافها الشبان وحدهم، بل الناضجون في السن، ذوو المناصب العالية، وحتى «الشخصيات» الكبيرة أيضًا، فلا أحد يضارعها في قدرتها النافذة على أن تلمح الجانب المضحك أو الوضيع في نفسية شخص ما، ولا أحد غيرها يستطيع أن يدمغه ـ في غير رحمة ـ بالكلمة التي لا تُنسى...وإنّ لدغ هذه الكلمة ليزداد حدة إذ تخرج من بين شفتين عاطرتين جميلتين...عسير أن تقول ماذا يجري في قلبها، ولكن الأراجيف لا تثبت بين عشاقها الكثيرين حبيبا تعزّه.

زوج إيرينا ينتقل مسرعًا في ذلك الطريق الذي يسميه الفرنسيون طريق المجد. وقد سبقه الجنرال السمين وتخلف الجنرال المتسامح. ويعيش في المدينة التي تعيش فيها إيرينا صديقها سوزونت بوتوجين، ولا يراها إلا نادرًا، فليس ثمة ضرورة معينة تلزمها الإبقاء على صلتهما. لأن البنت الصغيرة التي كانت في رعايته قد ماتت منذ زمن غير بعيد.

(تمت)

---

(1) «إنها فاقدة الإيمان، روح ضالة».